روايات تاريخ العرب والاسلام

اميل حبشي الأشقر

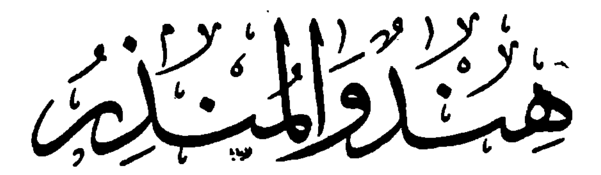
هِند والمنذِر



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

بدون تمهيد

من هو هذا الرجل ، الذي اهتزت لصوته أصنـــام الكعبة ثم سقطت عند قدميه ؟

من هو هذا الرجل الذي يسب آلهة العرب ويستخف، وهو في قلب مكة ، بدين قريش ؟

من هو هذا الرجل، الذي تردد صوته أودية الجزيرة ، من الشمال الى الجنوب، ومن الشرق الى الغرب ...؟

انه الجبار في نفسه ، وفي ايمانه ...

في تعاليمه النور ، وفي اقواله الهدى .

انه القوي في حريته ، القوي في عقيدته ...

انه العربي العظيم الذي يملأ اسمه الخافقين :

انه محمد بن عبد الله !

انه نبي العرب ﷺ .

بيان لا بد منه

النبي

هو محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، الذي قرأت عنه الشيء الكثير في روايتنا حسناء الحجاز .

ولد عليه السلام ، في النصف الاخير من الجيل السادس سنة «٥٦٩» للمسيح، وكان أبوه قد مات وأمه حامل به ، وماتت امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة ، وهو في السنة السادسة من عمره .

فتولى امره جده عبد المطلب ، ولكن عبد المطلب مات بعد سنتين ، والنبي في السنة الثامنة فكفله عمه ابو طالب بوصية جده ، وابو طالب هـــذا وعبدالله والد النبي ، اخوان لأم واحدة .

وكان ابو طالب من تجار قريش ؛ فسأله النبي ان يأذن له في السفر معــه الى الشام ففعل ، فظهر في رحلاته مع عمه ذكاؤه وفطنته وتحدث بهما الناس .

وبلغ خديجة بنت خويلد، بن اسد بن عبد العزى بن قصي ، خبر محمد وأمانته وكريم خلقه وما اشتهر به .

وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالهــا وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه .

فبعثت اليه تعرض عليه ان يخرج في مالها الى الشام تاجراً وتعطيه اكثر ممــا كانت تعطي سواه .

فرضي بما عهدت اليه فيه وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة حتى أقبلا على بصرى، وفي بصرى صومعة لراهب نصراني يقال له : بحيرا ، هو من اهل المعرفة والعلم .

فلما نزلا في ظل شجرة قريبة من صومعته أطلع الراهب رأسه وقال لميسرة : من هذا الرجل ؟

قال : انه رجل من قريش من اهل الحرم .

فجعل يحدق اليه ثم قال : « ما نزل تحت هذه الشجرة قط ، إلا نبي » .

وهذا معناه ان الراهب بحيرا كان بعيد النظر ، وقد دله بُعد نظره ، على ان هذا الرجل القريشي الذي ترسل عيناه نوراً ، سيكون له شأن ...

ثم انصرف محمد وميسرة فباعا السلع التي خرجا بها واشتريا مــا ارادا ان

يشترياه ورجعا حاملين الى مكة الربح الكثير .

وحدّث ميسرة خديجة بما قاله راهب بصرى ، فازدادت إعجاباً بمحمد ورغبت فيه ثم بعثت فعرضت عليه نفسها .

وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، والقوم جميعهم يؤثرونها على معظم النساء .

فخبر محمد أعمامه ، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب وابو طالب، حتى دخل على خويلد بن اسد ، فخطبها اليه وتزوجها وهو في الخامسة والعشرين، وهي في الاربعين .

فوفر له المال بعد هذا الزواج واصبح من اهل الرخاء واليسار .

وكان منزل خديجة يومئذ ، المنزل الذي يعرف بها اليوم، وقد اشتراه معاوية ابن ابي سفيان بعد ذلك وجعله مسجداً يصلي فيه الناس .

وخديجة هي التي ولدت للنبي جميع بنيه إلا ابرهيم .

ولدت زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة والقاسم والطاهر والطيب ، فأما القاسم والطاهر والطيب فماتوا في الجاهلية ، وأما بناته فقد أدركن الاسلام وأسلمن وهاجرن معه .

النبوة

لما بلغ محمد الاربعين من عمره ، مال الى الخلوة والاعتزال فكان يذهب الى غار يتعبد فيه ثم يعود الى اهله ليحمل زاده .

ففي رمضان وهو في ذلك الغار ، رأى الرؤيا الاولى فأسرع الى خديجة قائلاً لها :

« لقد ظهر لي جبريل وقال: يا محمد، انا جبريل وانت رسول الله ، ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق « الآية » فقرأت » .

فانطلقت به خديجة الى ابن عم لها يقال له ورقة بن نوفل وكان من اهل العلم وقد قرأ الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل وقالت له :

اسمع ما يقوله ابن اخيك .

فقصّ النبي على ورقة ما رأى ، فقال لها : هــــذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران ، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك .

فاطمأن النبي ولكنه لم يجسر على إظهار دعوته خوفاً من قريش ، لأن ذلك مخالف لها في عبادتها الاصنام ، وفي ذهاب تلك الأصنام، ذهاب التجارة والثروة من مكة .

فعمد الى بث الدعوة سرّاً في اهله الأقربين ، فكان علي بن أبي طالب ، وهو في الحادية عشرة من العمر ، أول من أسلم من الرجال ، وخديجة أول من أسلم من النساء .

وهنالك من يقول : أول من أسلم من الرجال ، أبو بكر .

على أن علياً كان يقول : « انا عبدالله وأخو رسوله وانا الصديق الاكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر ، صليت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين » .

وظل النبي ثلاثة اعوام ، مخفياً أمره ، ينشر رسالته بالسر من وراء الستار ، فلم يؤمن بدينه ، غير نفر قلائل بينهم ابو بكر الصديق ، وزيد بن حارثة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وكثيراً ما كان يخرج مع علي ، ليصليا في شعاب مكة ، مستخفيين عن أبي طالب ، وعن جميع القوم .

ومكثا كذلك ما شاء الله ان يمكثا ، ثم ان أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله :

يا ابن اخي ، ما هذا الدين الذي اراك تدين به ؟

قال : هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ودين ابينا ابرهيم ، وقد بعثني

الله به رسولاً الى العباد، وانت يا عم احق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من اجابني اليه ، وأعانني عليه .

فقال ابو طالب: اني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص اليك بشيء تكرهه وانا حي .

فلما انقضت الاعوام الثلاثة، عمد النبي عندئذ الى الظهور على ان يبدأ بعشيرته، فأرسل الى اعمامه بني عبد المطلب ، وهم نحو الاربعين رجلاً ودعاهم الى بيت عمه أبي طالب ، فلما فرغوا من الطعام ، همّ بأن يتكلم ، فابتدره عمه ابو لهب وكان شدهم وطأة عليه ، فأسكته ، فسكت ولم يتكلم هذه المرة.

ولكنه لم ييأس ، بل أعاد الوليمة مرة أخرى ، وبعد أن أكلوا وقف خطيباً وقال :

يا بني عبد المطلب، اني والله ما اعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ما قد جئتكم به ، وقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى بان أدعوكم اليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي .

فأحجم القوم جميعاً إلا علي بن أبي طالب فانه قال :

انا يا نبي الله اكون وزيرك عليه .

فأخذ برقبة علي ثم قال : ان هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم فله اسمعوا وأطيعوا .

فاستخف القوم بكلامه وقاموا يضحكون ويقولون لأبي طالب :

قد أمرك بان تطيع ابنك .

على ان الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فان النبي اظهر الدعوة مستعيناً بالله مؤمناً بقوته ، وجعل يسب الأصنام ، ويسفه الاحلام ، وينسب اهله الى الضلال لا يبالي بهم ولا يعبأ الا بتلك العقيدة الثابتة التي تدفعه الى المضي في امره .

فلما رأت قريش انه يعيب الآلهة ، وان عمه ابا طالب يمنعه ويحميه ، مشى

رجـــال من أشرافهم ورؤسائهم ، بينهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والاسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وابو جهل بن هشام،والعاص بن وائل وغيرهم وقالوا:

يا أبا طالب ، ان ابن اخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا ، فإما ان تكفه عنا ، وإما ان تخلي بيننا وبينه فإنك على مثـــل ما نحن عليه .

فردهم أبو طالب ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه .

ومضى الرسول من الناحية الأخرى ، على ما هو عليه، يظهر دين الله،ويدعو اليه ، حتى عظم الأمر بينه وبين القوم ، وتباعد الرجـــال ، واكثرت قريش ذكره بينها ولم يكن للقوم في مكة غير حديث النبي .

ثم انهم مشوا الى ابي طالب مرة اخرى ، فقالوا : ان لك سناً وشرفاًومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا ، ونحن والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه أو ننازله او ننازلك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فدعا أبو طالب محمداً وقال له :

هؤلاء كبار قومك وأشرافهم يسألونك ان تكف عن شتم آلهتهم ، فقال : ألا أدعوهم الى ما هو خير لهم منها ؟

قال : والى ما تدعوهم ؟

— الى ان يقولوا كلمة تدين لهم العرب ويملكون بها العجم .

فقال ابو جهل وهو بين القوم : ما هي ؟

قال : تقول لا إله إلا الله .

فنفروا منه وقالوا : سلنا غير هذا ، فقال :

لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري، على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك ما فيه ما تركته .

ثم بكى ، وهو يظن ان عمه قد ضعف عن نصرته وسيسلمه الى القوم .

وقام فخرج ، فناداه ابو طالب فأقبل عليه فقال :

اذهب يا ابن اخي وقل ما تشاء فوالله لا أسلمك ابداً .

فلما عرفت قريش ان الرجل أبى ان يسلمه، خرجوا وهم يتوعدون، ووثبت كل عشيرة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويتهددونهم ويضيقون عليهم سبل العيش .

وظن القوم ، ان شدتهم ستثني محمداً عن عزمه ، ولكنهم لم يعلموا ، ان تلك العزيمة الجبارة كانت وحياً ، وان قوة صبره ، ودفاعه عن دينه ، كانت قوة من الله .

أجل ، كانت تلك الشدة ، أعجز عن ان تغير كلمة من كلمات النبي ، بل كانت سبباً من أسباب الظهور ، بعد ذلك الاستخفاء ، ودافعاً الى المجاهرة برسالته في وضح النهار ، وعلى مرأى ومسمع من كل عربي .

فرأت قريش ، أن رجاءها بأبي طالب قد خاب ، ولم يبق لها الا ان تعمد الى استرضاء محمد بالحسنى ، والحيلة .

فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة ، فلما أقبل ، أشرقت وجوههم وهشوا له ، ثم قالوا :

« انا لا نعرف رجلاً من العرب جاء قومه مثل ما جئت قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين واحتقرت الآلهة وفرقت الجماعة ، ولم يبق قبيح الا قد جئت به فيما بيننا وبينك ، فان كنت جئت بهذا تطلب مالاً او ملكاً او شرفاً فنحن نعطيك ما تشاء ونملكك علينا » .

فأجابهم قائلاً : أنا ما جئت أطلب أموالكم والشرف فيكم او الملك عليكم ولكن الله بعثني رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني ان أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم فهو حظكم في الدنيا

والآخرة ، وان تردوه عليّ اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

فلما لم يجدوا سبيلاً الى استرضائه أمعنوا في الشدة والظلم، ولقي المستضعفون من المسلمين تعباً وجهداً .

وكان حمزة بن عبدالمطلب عم النبي وعمر بن الخطاب قد أسلما، وابن الخطاب من أشراف قريش واليه كانت السفارة فيهم .

كانوا اذا وقعت الحرب بينهم او بينهم وبين غيرهم من قبائل العرب، يبعثونه سفــيراً أي رسولاً ، واذا نافرهم منافر او فاخرهم مفاخر ، يبعثونه منافراً أو مفاخراً .

وكان إسلامه بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة .

وكان النبي يقول قبل إسلامه : « أللهم أعِزّ الإسلام بعمر بن الخطاب » .

وقالوا في إسلام عمر :

انه خرج متقلداً سيفه فلقيه رجل من بني زهرة فقال :

اين تعمد يا عمر ؟

قال : أريد ان اقتل محمداً !

قال : وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة وقد قتلته ؟

قال : اراك قد تركت دينك الذي كنت عليه .

فقال له الرجل : ان اختك وصهرك قد تركا دينك .

فمشى عمر حتى اتى اخته وصهره وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب.

فتوارى خباب في البيت، فسألهما عمر فقال صهره: ان الحق في غير دينك..

فوثب عليه عمر فوطأه وطأً شديداً .

فجاءت اخته لتدفعه عن زوجها فلطمها فأدمى وجهها، فقالت وهي غضبى:

نعم ان الحق في غير دينك واني اشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله.

فقال اعطوني الكتاب الذي هو عندكم ، فأعطوه إياه فقرأ شيئاً ثم قــال : دلوني على محمد ..

فخرج خباب يقول : ابشر يا عمر .

وكان النبي في الدار التي في اصل الصفا ، فانطلق عمر حتى اتى تلك الدار وعلى بابها حمزة بن عبد المطلب وطلحة وغيرهما فقال حمزة :

هذا عمر ان يرد الله به خيراً يسلم ، وان يرد غير ذلك يكن قتله هيناً علينا.

فخرج النبي حتى اتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه وقال :

ما انت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والعار والنكال ما انزل الوليد بن المغيرة ، فقال عمر :

اشهد ان لا إله إلا الله وانك عبده ورسوله ثم قال :

يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟

قال : بلى .

قال : فلماذا نستخفي ؟

فخرج القوم صفين ، عمر في صف وحمزة في صف حتى دخلوا المسجد ، فنظرت قريش الى عمر وحمزة فأصابتهم كآبة شديدة .

فسمى النبي عمر يومئذ الفاروق، لأنه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل، وكان النبي يقول : لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب .

وانت ترى ان ساعد الاسلام بعد اسلام حمزة وعمر قد اشتد ، واشتد من الناحية الاخرى ، اذى قريش وأصاب المسلمين من البلاء ما لا يستطيع محمد أن ينقذهم منه فقال لهم :

لو خرجتم الى ارض الحبشة فان فيها ملكاً لا يظلم احداً عنده ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه .

فخرج المسلمون عندئذ من مكة ، خوفاً من الفتنة ، وكانت هجرتهم الهجرة الأولى في الاسلام وقد رأوا من النجاشي ترحيباً وأنساً لم يحلموا بها وهم في مكة.

وكان اول من هاجر ، من بني أمية بن عبد مناف : عثمان بن عفان بن ابي العاص بن أمية ومعه زوجته رقية ابنة النبي.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : ابو حذيفة بن عتبة ومعه زوجته سهلة بنت سهيل .

ومن بني عبد العزّى بن قصي : الزبير بن العوام، وخرج غيرهم حتى بلغ عدد المهاجرين ثلاثة وثمانين مسلماً .

ومحمد مع من بقي من أصحابه في مكة ، وهو يرى ويسمع من قريش ما يكره ، ولو لم يكن في حمى أبي طالب ، لجاوزت قريش في الأذى كل حد .

واطمأن المسلمون في ارض هجرتهم ، أما قريش فلم تطمئن ، بل كانت تتآمر ، حتى رأت اخيراً ان يذهب عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي الى النجاشي ، يحملان اليه هدايا مكة ، ويسألانه باسم قريش ان يسلم المسلمين النازلين في بلاده .

ولكن النجاشي ردّ الرسولين ، ولم يرضَ بان يخون اللاجئين اليه .

فعمدت قريش الى امر آخر ، هو ان يكتبوا بينهم كتاباً يتعاهدون فيه ، على ان لا يتزوجوا من بني هاشم وبني المطلب ، ولا يزوجوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم .

وكتبوا ذلك الكتاب ، وتواثقوا عليه ، ثم علقوه في جوف الكعبة .

فظهرت العداوة عندئذ بمظهرها الرائع ، وانضم بنو هاشم وبنو المطلب الى ابي طالب ، ولم يخرج منهم إلا ابو لهب بن عبد المطلب عم النبي .

وراح محمد يعرض نفسه على العرب في المواسم فيقول :

يا بني فلان ، اني رسول الله اليكم يأمركم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وان تخلعوا ما تعبدون من دونه وتؤمنوا بي وتصدقوني .

وكان ، كلما أتى قبيلة ، وقال لها ذلك تبعه عمه ابو لهب وقال :

يا بني فلان ، إنما يدعوكم هذا الى ان تسلخوا اللات والعزّى « الصنمين » من اعناقكم فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

وعلى رغم كل ما رأيت ، لم تضعف همة النبي ، بل كانت عزيمته تزداد مضاء ، وعقيدته الراسخة رسوخ الجبال تزداد قوة ، وما زال يعرض نفسه على كل عزبي ذي نسب وشرف حتى بايعه نفر من اهل يثرب « المدينة » عند العقبة ، وهي بيعة العقبة الاولى فكانوا سبباً في انتشار الاسلام .

وأهل المدينة الذين ذكرت ، هم الذين يقال لهم « الأنصار » .

وقبل ان يهجر محمد مكة ، الى يثرب بثلاثة اعوام ، ماتت زوجته خديجة ، ثم مات عمه ابو طالب ، بعد موتها ببضعة ايام .

فعظمت المصيبة عليه واغتنمت قريش الفرصة بعد وفاة عمه فألحقوا به من الأذى ما لم يجسروا على مثله ، وأبو طالب حي ، حتى نثر بعضهم على رأسه التراب ، وهو يصلي .

فلم يبق الا ان يترك مكة ، وقام اهل يثرب يسألونه ان يهاجر الى مدينتهم على ان يكونوا انصاراً له .

الهجرة

غادر النبي عليه السلام ، مكة سنة ٦٢٢ للمسيح ، ومعه من بايعه من عشيرته وهم المهاجرون ، تمييزاً لهم عن الفئة الأخرى من صحابته ، وهم الأنصار .

وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن .

ونما الاسلام في المدينة وقويت شوكته ، فاتجهت انظار النبي وصحابته الى مكة وارسلوا عبدالله بن جحش في ثمانية من المهاجرين ، ليرصد قريشاً ويعلم أخبارهم .

فذهب عبدالله ونزل بنخلة بين مكة والطائف ، فمرت نوق لقريش تحمل زبيباً ، فقتلوا وأسروا رجالها ، وغنموا ما معهم ، وهذه اول غنيمة في الاسلام.

غزوة بدر الكبرى

وفي السنة التالية ، عرف النبي ان قافلة كبيرة لقريش ، فيها اموال كثيرة

ستمر من الشام ، ولا يخفرها غير ثلاثين رجل يرأسهم ابو سفيان بن حرب، كبير اهل مكة في ذلك الحين .

فأمر النبي اصحابه بغزوها ، فعلم ابو سفيان ، فارسل يستنجد اهـــل مكة فجاءه منها تسعمائة وخمسون رجلاً بينهم مئة من الفرسان .

وكان المسلمون، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، بينهم سبعون من المهاجرين ، والباقون من الأنصار .

وقد بلغ المسلمين ، بعد خروجهم من المدينة ، ان القافلة قاربت آبار بـــدر « والى هذه الآبار » تنسب الغزوة، فسبقوهم اليها ونصبوا للنبي عريشاً جلس فيه وتهيأوا للحرب .

وكان النبي قد عرف أي تأثير سيكون لهذه الواقعة .

فاستحث قومه واستوثق منهم فعرف انهم لا يقلون عنه رغبـــة في الحرب حتى الموت .

وابتدأت الحرب بالمبارزة ، ثم دارت رحاها ، فكان النصر للمسلمين بعد ان قتل منهم ، اربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وقتل من قريش سبعون رجلاً كلهم أشراف قومهم من بني أمية وبني مخزوم وبني أسد وغير هؤلاء .

وأسر منهم سبعون بينهم عقبة بن ابي معيط فأمر النبي بقتله لما كان من اذاه له بمكة وفرّ من بقي من قريش تاركين الأموال .

فغنمها المسلمون وفرقها النبي عليهم بالسواء ولم يأخذ لنفسه شيئاً .

فلما خذل الله اهل مكة ، انكسرت شوكتهم وقلّت هيبتهم ، لا سيا بعد موت أبي لهب ، الذي لم يحضر واقعة بدر ، بـــل ارسل بدلاً عنه ؛ فلما سمع بانكسار قومه ، مات من القهر .

وتبع غزوة بدر، غزوات كثيرة لا يتسع لوصفها المجال بل نكتفي بذكرها

لتكون دليلاً للقارىء على ما سيجيء .

غزوة بن قينقاع ، وغزوة الكدر ، وغزوة السويق ، وغزوة أحـد « التي خذل فيها المسلمون بخيانة عبدالله بن ابيّ بن ابي سلول » .

وغزوة حمراء الاسد ، وغزوة الرجيع ، وغزوة ذات الرقاع ، وغزوة بدر الثانية ، وغزوة الخندق « التي تدعى غزوة الأحزاب وفيها حاصرت الاحزاب المدينة فأعيام الخندق الذي حفره النبي وعادوا خاسرين » .

وغزوة بني قريظة . وغزوة بني لحيـــان . وغزوة ذي قرد . وغزوة بني المصطلق من خزاعة . وغزوة خيبر . وغزوة ذات السلاسل . وغزوة الخبط . وغزوة مؤتة .

فتح مكة

أراد النبي بعد غزوة مؤتة بشهرين ان يفتح مكة ليستقيم له الأمر .

فسار في اصحابه وهم عشرة آلاف رجل.

فسمع ابو سفيان خبر قدوم هذا الجيش العظيم فخرج ومعه حكيم بن خزام وبديل بن ورقاء الخزاعي ليستطلعوا الأمر .

فلقيهم العباس بن عبد المطلب ، عم النبي ، فقال له ابو سفيان :

ما وراءك ؟

قال : هذا رسول الله اتاكم في عشرة آلاف .

قال : وما الرأي الآن ؟

فنصح له العباس ان يذهب الى النبي ويستأمن .

فرأى الرجل ان العباس قد صدق ، فقال له : لقد صار ابن اخيك عظيماً .

ثم وفدوا على النبي ، فأكرم وفادتهم ، واسلم ابو سفيان ومن معـه فأمنهم النبي على أنفسهم ، والداخل في بيوتهم كالمحتمي بالمسجد .

ثم رجع ابو سفيان الى مكة وخبر القوم بما فعـل ، وطلب اليهم ان يسلموا ويطلبوا الأمان .

فغضبوا غضباً شديداً ، واهانوه إهانة لم يسمع مثلها قط ، حتى أن امرأته هنداً مسكت لحيته وقالت للناس :

يا آل غالب ، اقتلوا هذا الشيخ الأحمق .

ثم دخل المسلمون مكة ، بعد ان فتحوها ، وقصد النبي الكعبة، وطاف بها سبعاً وهو يقول :

جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً .

ثم أمر بالأصنام فكسرت، وتحولت الكعبة من بيت اصنام الىمسجد يعبد الله فيه ويحجه المسلمون من الاقطار الاربعة كل عام .

في الداخل والخارج

دانت جزيرة العرب كلها للنبي العربي .

ولكن نفسه كانت اوسع من الجزيرة... وايمانه الراسخ ، كان اعظم من ان يرضى بهذا الفتح لله .

كان يريد ان يفتح لعقيدته ، العالم كله ، وينشر لواء دينه ، ويرسل انواره ، الى كل افق .

فأرسل الى ملك الحبشة كتاباً يدعوه فيه الى الاسلام ، وقد حمله اليه عمر بن امية ، فقبل النجاشي كتابه .

وبعث بحاطب بن ابي بليعة ، يحمل كتاباً آخر الى المقوقس ، عامل الروم في مصر ، فأكرم المقوقس وفادةالرسول وردّه بهدية الى النبي فيها مارية القبطية التي تزوجها النبي وولدت له ولده ابرهيم .

وارسل رجلاً يدعى دحية ، بكتاب الى هرقل قيصر الروم .

وحمل عبدالله بن خذامة ، كتابه الى كسرى ، فمزق كسرى الكتاب وانتهى ما فعله الى النبي ، فقال :

« مزق الله ملكه » .

ثم راح يبعث رجاله ، وينشر كتبه في الأقطار ، ليغذي ايمانه ، ويرضي الله الذي أوحى اليه ، بنشر الاسلام ، حتى اصبحت هذه الكتب في ايدي الملوك

والامراء في داخل الجزيرة وفي الخارج .

ثم رأى عليه السلام، ان يبدأ بفتح الشام ، فجهز جيشاً كان عـــدد رجاله ثلاثين الفاً ، فيهم عشرة آلاف فارس ، ومشى ذلك النبي العظيم ، ذلك الرجل الجبار ، الذي لن تخلق مثله الأجيال ، على رأس ذلك الجيش الفاتح يتبعه قواده وامراؤه الذين عظمت نفوسهم بالاسلام .

كان اولئك القواد يستلذون الموت ، بين يدي نبيهم سيـد العرب كلها الذي اخرجهم من ظلمات الضلالة والجهل الى انوار الهدى .

ووصل الجيش الى بلد يدعى تبوك « واليه تنسب هذه الغزوة» بعد ان اعياه التعب والجهد في الطريق الذي لا ماء فيه .

فأقبل عليه يوحنا بن رؤبة « وقالوا دربة » فصالح رسول الله على ان يعطيه الجزية ، ويوحنا هذا هو صاحب « ايلة مدينة في رأس خليج العقبة » .

وجاء اهل جرباء وأذرح فدفعوا الجزية مثل يوحنا وآثروا الخضوع على ان يتصدوا للجيش الفاتح الذي يستلذ الموت ..

ثم دعا الرسول خالد بن الوليد ، القائد العربي الغازي ، فبعث به الى دومـة الجندل ، الذي يسودها اكيدر بن عبد الملك الكندي ، وكان نصرانياً ، وامره بان يخضعه كما خضع الامراء الذين تقدموه .

فذهب خالد فرآه يصيد البقر فقتل اخاه حساناً ، واخذ من اكيدر قبـاء من الديباج مخوّص بالذهب ثم بعث به الى النبي .

ولم يلبث خالد حتى قدم بصاحب دومة الجندل على الرسول فحقن له دمـه وصالحه على الجزية ثم خلـّى سبيله واعاده الى بلده .

وبعد ان قضى بضع عشرة ليلة في تبوك لا يجاوزها ، انصرف راجعـــاً الى يثرب وجعلت وفود الأقاليم وامراء القبائل يفدون اليه خاضعين لدينه وسلطانه، وحلمه وفضله يشملان الناس من كل بلد ومن كل جنس .

وكانت غزوة تبوك آخر غزوة حضرها رسول الله .

موت النبي

ومات محمد ﷺ في السنة الحادية عشرة للهجرة يوم الاثنـين ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ودفن من الغد نصف النهار .

وقيل مات نصف النهار يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول وأمر ابا بكر بان يصلي بالناس قبل ان يغمض الموت عينيه .

وإنا لنقول اليوم ، ويقول العالم كله ، ان محمداً حيّ وسيظل حياً الى الابد ، نقول هذا ولا نزيد كلمة .

امناء سره

قالوا: كان يكتب للنبي احياناً عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب ، وخالد ابن سعيد ، وابان بن سعيد ، والعلاء بن الحضرمي.

وقالوا : اول من كتب له ابيّ بن كعب وكان اذا غاب كتب له زيد بن ثابت وعبدالله بن سعد بن ابي سرح.وكتب له معاوية بن ابي سفيان وحنظلة الاسيدي.

اسماء سيوفه

اصاب من سيوف بني قينقاع ثلاثة اسياف : سيفاً قلعياً وسيفاً يدعى بتاراً وسيفاً يدعى الحتف . وكان عنده بعد ذلك المخذم ، ورسوب أصابهما من القلس.

وقيل : قدم رسول الله المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما : العضب شهد به موقعة بدر ، وسيفه ذو الفقار غنمه يوم بدر ، وكان لمنبه بن الحجاج .

شجاعته وجوده

كان النبي اشجع الناس حتى انه لم يكن يهاب احـداً او يفرّ من خطر وكان أجود الناس ، يبذل المال الذي يرسل اليه بذل الأبي الكريم الذي لا ينظر الى ما تجود به يداه حتى ليجود بكل ما عنده ثم ينفض يديه منه كأنه لم يكن .

وكان أحلم الناس يغفر لعدوه وينسى إساءته وهو القادر على سحقه ، ويلين

للضعيف وهو القوي الذي تنحني امامه الرؤوس وتخضع لإرادته الامراء والملوك.

وليس غريباً ان يكون له ذلــك الخلق السامي والنفس العالية فهو نبي الله الذي يدعو القوم الى الله والى المكرمات والى الأخلاق .

خذ لك مثلاً من حلمه وعظمة نفسه .

قال المؤرخون : كان عدي بن حاتم طي، رجلاً شريفاً يشبه ملكاً في قومه. وكان يبغض النبي ، حين سمع به ، بغضاً لم يبغض احد مثله .

وكان يسير في قومه بالمرباع ، « اي انه كان يأخذ منهم ربع الغنائم » .

وقد عرف ان جيوش النبي، تفد على القبائل فتدعوها الى الاسلام او تخضعها بالسيف ، فقال لغلام عربي كان يرعى نوقه :

أعدد لي من نوقي ، جمالاً سماناً واحبسها قريباً مني ، وعندمـــا تسمع بجيش محمد قد وطىء هذه الأرض فقل لي .

فأعدّ الغلام ما أمره به ، ثم أتاه في صباح يوم فقال : إصنع يا عدي ما تشاء فقد غشيتك خيل محمد وقد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا : هـذه هي .

فقال له : قرّب جمالي ، فقرّبها ، فاحتمل بأهله وولده ولحق بأهـــل دينه النصارى المقيمين في الشام .

وترك في بلاده ، فيمن ترك اختاً له .

فأقبلت الخيل ، وسبيت ابنة حاتم مع من سبي وحملت السبايا الى المدينة ، وقد بلغ رسول الله هرب عدي الى الشام .

وجعلت اخت عدي ، في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يحبسن بها .

فمرّ بها رسول الله ، فقامت اليه وكانت امرأة جزلة فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليّ منّ الله عليك .

قال : ومن وافدك ؟

قالت : عدي بن حاتم .

قال : الفارّ من الله ورسوله ؟

قالت : نعم .

فتركها ومضى ولم يزد كلمة على ما قال .
فلما كان الغد ، مرّ بها وقد ضيعت الرجاء ، فأشار اليها رجل من خلفه كأنه يقول لها :
قومي فكلميه .
فقامت فأعادت قولها وهي تردد : امنن عليّ منّ الله عليك .
فقال : قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة به حتى يحملك الى بلادك .
فسألت عن الرجل الذي أشار اليها بأن تكلمه فقيل لها :
انه علي بن ابي طالب .
وأقامت بالمدينة حتى قدم ركب من قضاعة ، وكانت تريد ان تلحق بأخيها النازل في الشام ، فأقبلت على الرسول ﷺ فقالت : لقد أقبل رهط من قومي أثق بهم .
فقال لمن حوله : اعطوا هذه المرأة كسوة .
فأعطوها ، ثم قال : واعطوها نفقةً وراحلةً تحملها الى اخيها الفارّ ...
ففعلوا ، وانت ترى ان نفس الرسول ﷺ ، أملت عليه ان ينسى عدوه عدياً ، وفراره من وجهه ، وأن يجود على اخته بالمال والنفقة كأنها من قومه ...
وخرجت المرأة حتى قدمت الشام فجعلت تقول لعدي :
يا قاطع يا ظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت اختك ؟!
فقال : اصبت فقد صنعت ما ذكرت ووالله ما لي عذر ، ثم قال : ماذا ترين في أمر هذا الرجل ؟
قالت : ارى ان تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فالسابق اليه له فضيلة ، وإن يكن ملكاً فلن تذل وانت انت .
قال : والله هذا هو الرأي .
ثم خرج من الشام حتى قدم المدينة ودخل على النبي وهو في المسجد فسلم عليه ، فقال النبي :

من الرجل ؟
– عدي بن حاتم .
فقام دون ان يتكلم وانطلق به الى منزله .
فلقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تخاطبه في حاجة لها، فقال عدي في نفسه :
ما هذا بملك .
ثم مضى حتى دخل بيته ، فتناول وسادة من جلد محشوة ليفاً فقذف بها الى عدي قائلاً له : اجلس ..
فقال : بل انت فاجلس عليها .
قال : لا ، بل انت .
فجلس ، وجلس رسول الله على الأرض ...
فقال عدي مرة ثانية في نفسه : ما هذا بملك .
ثم قال الرسول : ايه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسياً ؟
« الركوسية طائفة بين النصارى والصابئين » .
قال : بلى .
– أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟
– بلى .
قال : ولكن ذلك لم يكن يحل لك في دينك .
فعرف عدي انه نبي فقال : اجل والله .
ثم قال الرسول : يا عدي بن حاتم ، أيمنعك من الدخول في هذا الدين ما تراه من حاجة اصحابه؟ فوالله ليوشكن المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. أم يمنعك من الدخول فيه ما تراه من كثرة عدونا وقلة عددنا؟ فوالله ليوشكنَّ ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله ... أم يمنعك من الدخول فيه انك ترى الملك والسلطان في غيرنا وأيم الله ليوشكنَّ ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت ...

فأسلم عدي وكان يقول : إي والله ، لقد رأيت القصور البيض من ارض بابل قد فتحت ، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئاً حتى تحجّ هذا البيت .

أرأيت ، كيف خاطب النبي أخت عدوه ، وكيف حمل حلمه وخلقه العالي عدي بن حاتم ، من الشام الى المدينة ، ليستسلم اليه ويلقي بسيفه عند قدميه ؟؟

انه مثل واحد صغير ، صغير جداً ، من أمثال حكمة الرسول وحلمه وعظمة نفسه ، في حياته على هذه الارض .

وهو ﷺ ، أعظم من ان يوصف ، والبيان ، اضعف من ان يتناول صفاته ، التي هي هبة السماء .

عمر النبي

أوحي اليه وهو ابن اربعين ، وأقام بمكة يدعو الى الاسلام ثلاث عشرة سنة وبالمدينة ، وهو مهاجر عشرة أعوام ، ثم مات وهو في الثالثة والستين .

١

الخليفة الاول

عندما توفي النبي عليه السلام ، اجتمع الأنصار « اهل المدينة » في سقيفة بني ساعدة فقالوا :

نولي هذا الأمر بعد محمد ، سعد بن عبادة ، وسعد هذا زعيم عشيرة الخزرج ، في يثرب . واخرجوا سعداً اليهم وهو مريض .

فلما اجتمعوا قال سعد لابنه : اني لا أقدر لمرضي ان أسمع القوم كلهم كلامي ، ولكن تلقّ مني قولي فأسمعهم إياه ، وبدأ يقول بعد ان حمد الله :

يا معشر الأنصار :

« لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب ، ان محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الأوثان فما آمن به منهم إلا رجال قليل ما كانوا يقدرون على ان يمنعوا رسول الله ولا ان يعزوا دينه ، ولا ان يدفعوا عن انفسهم ضيماً عموا به، حتى اذا اراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الايمان بـه وبرسوله والمنع له ولأصحابه ، والاعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرها ، وانقاد البعيد صاغراً ودانت العرب بأسيافكم لرسول الله .

ثم توفى الله الرسول وهو عنكم راض وبكم قرير عين فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه : لقد أصبت في القول فسنوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى .

ثم قال احدهم : ولكن سيقول المهاجرون نحن صحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ؟

فقال آخر : اذا فعلوا قلنا لهم: منا امير ومنكم امير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً .

فقال سعد بن عبادة حين سمعها :

هذا اول الضعف ..

ثم بلغ عمر بن الخطاب الخبر ، فأقبل الى منزل النبي وارسل الى ابي بكر يدعوه اليه ...

وكان علي بن ابي طالب ، دائباً في جهاز رسول الله ، فخرج ابو بكر ، فقال له عمر :

اما علمت ان الانصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يريدون ان يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة .

فقال وهل انت واثق ؟

– اجل ، واحسنهم مقالة من يقول : منا امير ، ومن قريش امير .

فمشى ابو بكر يريد السقيفة وتبعه عمر .

فلقيا ابا عبيدة بن الجراح فانضم اليهما .

ثم لقيهم عاصم بن عدي ، وعويم بن ساعدة فقالا لهم : ارجعوا فانه لا يكون ما تريدون ...

فقالوا : لا نفعل .

ثم أقبلوا على الجماعة فقام ابو بكر خطيباً فيهم فحمد الله واثنى عليه ثم قال:

« ان الله بعث محمداً رسولاً الى خلقه وشهيداً على امته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون انها لهم عنده شافعة ولهم نافعة وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور .

ثم قرأ إحدى الآيات وقال :

فعظم على العرب ان يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه ، بتصديقه ، والايمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم له وتكذيبهم إياهم ، ولم يستوحشوا لقلة عددهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم إذن أول من عَبَدَ الله وآمن به وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك الا ظالم .

وأنتم يا معشر الأنصار رضيكم الله انصاراً لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته، وفيكم جلة ازواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم .. فنحن الأمراء وانتم الوزراء ...

فقام الحباب بن المنذر « وهو من الخزرج الانصار » فقال :

لقد ملكوا عليكم أمركم ، ان الناس في ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولن يصدر الناس الا عن رأيكم ، انتم اهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، ذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس الى ما تصنعون . فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم ، أبى هؤلاء الا ما سمعتم ، فمنا امير ومنهم امير ...

فأجابه عمر بن الخطاب قائلا :

هيهات .. لا يجتمع اثنان على ذلك، والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع ان تولي امرها من كانت النبوة فيهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة والسلطان .. من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن اولياؤه وعشيرته ؟..

فقال الحباب : لا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا فان أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ...

وقال كلمة أخرى يريد بها شراً ، فقال ابن الخطاب :

اذن يقتلك الله .

قال : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة بن الجراح ، القائد العربي العظيم :

يا معشر الأنصار ، انكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر ..

فقال بشير بن سعد ، وهو من الأنصار :

أيها الأنصار ، إنّا والله ، لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا ، فما ينبغي لنا ان نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً ، فان الله ولي المنة علينا بذلك .. إلا ان محمداً من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وإيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر بن الخطاب ، وهذا أبو عبيدة ، فأيها شئتم فبايعوا .

فقال عمر وأبو عبيدة :

لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فانك أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين .

ثم قالا : ابسط يدك نبايعك ..

وذهبا ليبايعاه ، فسبقهما بشير بن سعد فبايعه ..

فناداه الحباب بن المنذر قائلاً : لقد عققت يا بشير .

قال : لا والله ولكني كرهت ان انازع قوماً حقاً جعله الله لهم .

فلما رأت عشيرة الأوس ، ما صنع بشير بن سعد ، وما تدعو اليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم للبعض الآخر :

والله ، لئن وليتها الخزرج عليكم مرة ، لا زالت لهم الفضيلة ، بذلك عليكم ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً ...قوموا فبايعوا أبا بكر .

فقاموا فبايعوه ، ثم أقبل الناس من كل جانب يبايعونه وكادوا يطأون سعد ابن عبادة ، فقال قوم من أصحاب سعد :

اتقوا سعداً لا تطأوه .

فقال عمر بن الخطاب : اقتلوه قتله الله .

فأسكت ابو بكر القوم قائلاً : الرفق هنا ابلغ ...

فبدرت من سعد بادرة غضب ثم قال :

احملوني من هذا المكان .

فحملوه فأدخلوه في داره ، وترك اياماً ثم بعثوا اليه يقولون : أقبل فبايع، فقد بايع الناس ، وبايع قومك .

فلم يرضَ ، ورأى أبو بكر ان يغض طرفه عنه ، وقد أصبح ابو بكر سيد المسلمين وخليفة رسول الله .

والآن .. فماذا تقول ايها القارىء؟ أليست هذه المبايعة التي قرأت،انتخاباً صحيحاً « على درجة واحدة » تشترك فيها الأمة ، كبيرها وصغيرها ، في اختيار رئيسها الأعلى؟؟

أليس فيها ، معنى « الألفاظ الثلاثة » التي تقرأها في كل يوم : الحرية ، والاخاء ، والمساواة ...؟؟

أليست دليلاً على رقيّ ذلك الشعب العربي النبيل ، الذي أخرجه نبيُّه من الظلمة الى النور ؟؟..

بلى ، وسترى في اعمال الخلفاء الذين خلفوا الرسول ، مظهراً بليغاً من مظاهر هذا الرقي الذي ذكرناه ..

ابو بكر الصديق

اسمه عبدالله بن ابي قحافة ، عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، يلتقي مع النبي بالنسب ، في مرة هذا .

سموه صديقاً لأنه بادر الى تصديق رسول الله ، ولازم الصدق ، وكانت له في الاسلام ، المواقف الرفيعة العالية ، هاجر مع رسول الله وترك عياله وأطفاله ، ولازمه في الغار وفي جميع مواقفه ، في حياته .

وكان من رؤساء قريش في الجاهلية ، وأهل المشورة فيهم ، واليه كان أمر الديات والغرم ، وقد آثر الاسلام على سواه .

صفته

كان أبو بكر رجلاً أبيض نحيفاً ، خفيف العارضين ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة، وكان يخضب بالحناء، صحب النبي من حين أسلم الى حين توفي،لم يفارقه في اقامته وسفره إلا فيما اذن له في الخروج فيه من حج وغزو ، وشهد معه مشاهده كلها ، وثبت في الحرب يوم أحد ويوم حنين وقد فرّ الناس .

اخلاقه وتواضعه

من اغرب ما يروى عن اخلاقه العالية وتواضعه ان احدى النساء قالت عنه : نزل فينا ابو بكر ثلاث سنين قبل خلافته وسنة بعد ما استخلف ، فكانت جواري الحي يأتينه بغنمهن فيحلبها لهنّ !!..

زهده

اجمع المؤرخون على انه كان أزهد الناس واكثرهم تواضعاً في لباسه ومطعمه وتنحيه عن الظهور في المجالس بمظاهر الملوك ، بل كان أزهد الناس في جميع حياته حتى انه كان مثلاً لقومه في الزهد قبل الخلافة وبعدها .

وكان ممن وفد عليه ملك من ملوك اليمن ومعه الف عبد دون من كان من

عشيرته،وعليه التاج وما وصفنا من الحلل والبرود،فعندما شاهد من ابي بكر ما ذكرنا ، القى ما كان عليه ، وتزّيا بزّيه، حتى انه رئي يوماً في سوق من اسواق المدينة وعلى كتفه جلد شاة ، فقالت عشيرته :

لقد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب ..

فقال : أفأردتم ان اكون ملكاً جباراً في الجاهلية ، جبـــاراً في الاسلام ! لا والله لا تكون طاعة الله إلا بالتواضع له والزهد في هذه الدنيا .

وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود ، بعد التكبر وقـد رأوا انهم لا يستطيعون إلا ان يجاروه فيما يصنع ، ويضعوا أقدامهم حيث يضع قدميه .

قالوا : بلغ أبا بكر ، عن أبي سفيـــان ، صخر بن حرب ، أمر فأحضره ، وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له .

فأقبل أبو قحافة « والد أبي بكر وكان حياً » وقد سمع صياح ولده ، فقال لمن كان معه : على من يصيح ابني ؟

فقالوا : على أبي سفيان .

فدنا من أبي بكر وقال له :

أعلى أبي سفيان ترفع صوتـك يا عتيق الله وقـــد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية ؟

فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار وقال له :

يا أبتِ ، ان الله قد رفع بالاسلام قوماً وأذلّ به آخرين ...

ولم يتقلد أحد الخلافة وأبوه حي غير أبي بكر ، وقد توفي قبل أبيه .

وكان أولاده ثلاثة : عبدالله ، وعبد الرحمن ، ومحمد .

فأما عبدالله فانه شهد يوم الطائف مع النبي ، فجرح وبقي الى ايام ابيـــه، ومات في خلافته ولا عقب له .

وأما عبد الرحمن ومحمد فقد بقيا .

ومات أبو قحافة وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وذلك في السنة الثالثة عشرة من الهجرة وهي السنة التي استخلف فيها عمر بن الخطاب .

وخلف ابو بكر من البنات : اسماء ذات النطاقين ، وهي والدة عبدالله بن الزبير وعاشت مئة سنة ، وعائشة زوجة النبي .

خطبه

وكان ابو بكر خطيباً ، ذا منطق وبيان ، يشهد له بـذلك جميع المهاجرين والأنصار الذين رافقوه وسمعوه .

واول خطبة له وهو خليفة، كانت يوم بايعوه بيعة العامة ، بعد بيعة السقيفة التي قرأت ، قال :

اما بعد ايها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينوني، وان أسأت فقوّموني ، الصدق امانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ان شاء الله ، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ...

لا يدع احد منكم الجهاد في سبيل الله فانه لا يدعه قوم الا خربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء. اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .. قوموا الى صلاتكم رحمكم الله .

اعماله وحروبه

كان الرسول قد جهز قبل موته ، اسامة بن زيد بن حارثة ، مولاه بجيش من المهاجرين والانصار ، وأمره بان يسير الى مشارف الشام ، الى الموضع الذي قتل فيه أبوه ، زيد بن حارثة وان يوطىء الخيـــل تخوم البلقاء والداروم في الشام وفلسطين .

وكان اسامة فتّى في ربيع العمر .

فلما همّ بالزحف مع جيشه ، توفي النبي وهو في المدينة لم ينقل منها قدماً .

ثم انتشر خبر موت النبي في كل قطر ، فتركت الاسلام طوائف كثيرة من العرب وأرادت ان تعود الى جاهليتها وهي تؤثر الظلام على النور .

وهذه الطوائف يقال لها : أهل الردّة « أي الذين ارتدوا عن الدين » .

وكان هنالك ثلاثة من الأنبياء الكذبة ، ادّعوا النبوّة في حياة الرسول ، مسيلمة بن حبيب الحنفي ، في اليمامة ، وطليحة بن خويلد في بلاد بني أسد ، والأسود العبسي في اليمن .

فأما الأسود فقد قتل قبل وفاة النبي ، ووردت اخبار قتله في فجر خلافة أبي بكر .

وأما مسيلمة وطليحة فكانا باقيين وقد تبعهما فريق من العرب ، وذهب لهما بين القبائل صيت وذكر .

وكان أهل الردّة على آراء كثيرة .

منهم من كان يقول : لو كان محمد نبياً ما مات .

ومنهم من قال : لقد انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحداً أبداً .

ومنهم من قال : نؤمن بالله ونشهد ان محمداً رسوله ونصلي ولكن لا نعطيكم أموالنا « وهم يعنون الزكاة » .

وعظمت مصيبة المسلمين بعد موت نبيهم ، ورفع اهل الأديان الأخرى رؤوسهم وكثر النفاق ، وأصبح القوم « كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية . »

وثبتت قريش وبنو ثقيف وأهل المدينة على الاسلام ، ثبت الله قريشاً بسهيل بن عمرو العامري ، الذي نهاهم في مكة عن ترك دينهم ، وثبتت ثقيف بعثمان بن أبي العاص الثقفي الذي كان ثابت العقيدة ، قوي الايمان .

ومعنى كل ما رأيت ان الحال أضحت فوضى وقد قام في أذهان أهل الردّة ان المسلمين اضعف من ان يحفظوا ما أنزله عليهم الله .

وتحفزت بعض القبائل للوثوب على المدينة واستئصال المهاجرين والأنصار .

فخاف المسلمون ان يزحف اسامة بن زيد الى الشام من هذه الناحية ، فتزحف اليهم القبائل من الناحية الأخرى ...

فقالوا لأبي بكر : لقد رأيت ان جيش اسامة يضم جلّ المسلمين ، وسادتهم وأبطالهم وان العرب قد ارتدت فليس ينبغي لك ان تفرق عنك الناس .

فقال : والذي نفس ابي بكر بيده ، لو ظننت ان السباع تخطفني لأنفذت جيش اسامة كما أمر به رسول الله ولو لم يبقَ في القرى غيري !!..

وقال اسامة لعمر بن الخطاب :

قل للخليفة ان يأذن لي في الرجوع مع الجيش ، فان معي وجوه الناس وأنا لا آمن على خليفة رسول الله ومن معه من المسلمين ان يتخطفهم المشركون .

وقالت الأنصار لعمر : فان أبى الخليفة الا ان نمضي ، فأبلغه عنا ، واطلب اليه ان يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من اسامة .

فأقبل عمر على ابي بكر فخبره بما قال اسامة .

فقال: ما كنت لأردّ قضاء قضى به رسولُ الله ولو خطفتني الكلاب والذئاب.

قال : ان الانصار يطلبون اليك ان تولي امرهم ، رجلاً اقدم سناً من اسامة ابن زيد .

فوثب ابو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال له :

ثكلتك امك يا ابن الخطاب ، استعمل رسول الله ﷺ ، اسامة بن زيد وتأمرني ان انزعه ؟!

فخرج عمر يقول للناس: امضوا، فقد لقيت في سببكم من الخليفة ما لقيت...

ثم خرج ابو بكر نفسه، حتى اقبل عليهم وهم في ظاهر المدينة فأمرهم بالسير، وشيعهم وهو ماشٍ ، واسامة راكب .

وكان عبد الرحمن بن عوف يقود دابة ابي بكر .

فقال اسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن او لأنزلن .

فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما عليَّ ان أغبّر قدميَّ ساعة ، في سبيل الله ...

ثم سأل ابو بكر اسامة ، ان يأذن لعمر بن الخطاب بالرجوع معه الى المدينة، ليكون عوناً له .

فأذن له ثم أوصاه الخليفة قائلاً :

اصنع ما أمرك به نبي الله . ابدأ ببلاد قضاعة ولا تقصرنّ في شيء من امر الرسول .

فمضى الرجل غازياً ، وبثّ الجنود في بلاد قضاعة التي ارتدّت وأغـار على من حولها فسبى ، وقتل ، وغنم ورجع بعد اربعين يوماً .

وكان ظفر هذا الجيش ، من اعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فان العرب كانت تقول : لو لم تكن عند المسلمين القوة لما ارسلوا جيشهم بعد موت النبي .

وقبل ان يعود اسامة ، تعجّل قوم من بني عبس وذبيان ونزلوا في الأبرق ، ونزل آخرون « بذي القصة » بالقرب من المدينــة ومعهم قوم من بــني أسد وكنانة ، وبعثوا وفــداً الى ابي بكر يطلبون اليه ، ان يقتصر على الصلاة ويترك الزكاة .

فأبى ابو بكر ذلك وبدأ يتهيأ للحرب .

جعل على طرق المدينة ومداخلها ، علي بن ابي طالب ، والزبــير بن العوام وطلحة وعبدالله بن مسعود وغيرهم .

وكان الوفد قد خبَّر القوم، بقلة المسلمين في المدينة فأغاروا عليهم، واشتعلت نار القتال ، وخرج الخليفة مع رجاله ، وهم يؤثرون الموت في سبيل الدفــاع ، فهرب اهل الردّة الى مكان يقــال له « ذو خشب » ثم نفـّروا نوق المسلمين ، فنفرت وهم عليها ، ورجعت الى المدينة ولم يصرع مسلم .

فظن القوم الضعف برجال الاسلام ، وجمعوا صفوفهم في ذلك الليل ، على ان يفاجئوا جيش عدوهم ، عند الصباح ، بهجوم يقضي على امرائه وقواده .

وبات ابو بكر يعبىء الناس ، حتى اذا كان الفجر ، خرج على رأس قومه ، ولم يشعر القوم بالمسلمين، حتى وضعوا فيهم السيف، فما ذرّ قرن الشمس حتى تمّ لهم الظفر وقد قتلوا بعض الرجال والرؤساء .

على ان الخليفة ، لم يشأ ان يعود الى المدينة ، بل آثر اللحــاق بعدوّ الاسلام حتى يظفره الله بكل من ارتدّ عن الدين ، واستخلف على المدينة اسامة بن زيد وكان قد عاد ظافراً من غزوته كما مرّ .

وقاتل ابو بكر ، ففــاز ، وانحنت له رؤوس القوم من بني عبس وذبيان وأضحت المدينة في أمن ، وسادها السلام .

ولكن ، بقي عليه ان يحارب اهل الردّة المنتشرين في الأقـــاليم ، ويخنق صوت النبيين الكاذبين ، مسيلمة وطليحة اللذين ينفخان في صدور الناس الأباطيل والأكاذيب .

فانثنى راجعاً الى المدينة، ودعا قواد المسلمين الأبطال قائلا لهم: ستخرجون مع جيش الاسلام الظافر لاخماد الأصوات المرتفعة ضد الاسلام .

فقالوا : سمعنا وأطعنا .

فجعل يعقد الألوية ، ويسمي الأمراء حتى عقد احد عشر لواء لأحـد عشر امير ، جميعهم من أشراف الناس .

بعث خالد بن الوليد الى طليحة بن خويلد ، النبي الكاذب ، والى مالـك بن نويرة احد زعماء المرتدّين .

وعهد الى عكرمة بن ابي جهل ، في القضاء على مسيلمة النبي الآخر .

وأمر المهاجر بن ابي امية بأن يسير الى اليمن .

وأرسل عمرو بن العاص الى قبائل قضاعة ومَن حولها من الشعوب .

وبعث غيرهؤلاء حتى جرّد احد عشر جيشاً على كل جيش قائد وأركان حرب.

وخرج أبطـــال المسلمين يحملون الموت لكل من تحدثه نفسه بالخروج عن الطاعة ، ومع كل واحد منهم ، كتاب من الخليفة بالأمر الذي خرج من اجله .

طليحة بن خويلد

ادعى النبوة قبل وفاة النبي كما مرّ ، وزعم ان الملاك جبريل يأتيه ، فجعل يسجع للناس الأكاذيب فيقول :

« والحمام واليمام ، ومصر والصوام ، قـد ضمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » الى آخر ما هنالك من مثل هذه الألفاظ .

فكثر أتباع طليحة ، من بني أسد وغطفـان وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول : اذكروا الله واعبدوه قياماً .

وكان قد أسلم ثم ارتدّ في حياة النبي ثم بعد موته ، واجتمعت اليه هوازن

وغيرها ، وارتدّ معه عينية بن حصن الفزاري وانضم اليه .

وكان الاثنان طليحة وابن حصن،نازلين ببلد يدعى «بزاخة» ومعهما الطوائف التي تنتمي اليهما وتثق بأن طليحة نبي ..

فلما وصل خالد بن الوليد ، واستعد الجيشان ، خطب خالد في جنوده ثم اقتحم القوم وهو يقول : الله الله يا معشر الأنصار .

وفعل رجاله مثلما فعل ، فاختلطت الصفوف واشتد القتال ، وقاتل خالد بسيفين حتى كسرهما ، ودافع عينية وطليحة دفاع الأبطال حتى رأيا أخيراً انهما أعجز عن ان يثبتا في المجال .. وان يظفرا بجيش يرأسه خالد بن الوليد .

فلوى طليحة عنق فرسه ونجا بزوجته الى الشام . أما عينية فلم يكن له من سبيل الى النجاة ، فأسر وأرسل مع أسير آخر يدعى قرة بن هبيرة الى ابي بكر فرجعا الى الاسلام .

وبقي طليحة في الشام في ظل بني غسان الى أن توفي أبو بكر ودخل بنو أسد وغيرهم في الاسلام فأسلم وحسن اسلامه .

وكان خالد قد أتمّ ما عهد اليه فيه وعاد الى المدينة يجرّ أذيال النصر .

مسيلمة الكذاب

لقد قرأت الآن ، أن أبا بكر أرسل عكرمة بن أبي جهل لقتال مسيلمة بن حبيب وأتبعه بشرحبيل بن حسنة .

فوافى عكرمة القوم ، فغلبوه ، وشرحبيل في الطريق ، ثم انتهى الخبر الى الخليفة فكتب الى عكرمة : اذا أتاك كتابي فلا ترجع الى المدينة ، فتوهن الناس ، بل امضِ الى قتال اهل عمان ...

وكان قد تقدمه الى قتالهم ، حذيفة بن محصن ، وعرفجة بن هرثمة ، فلحق عكرمة بهما كما امره أبو بكر .

ولم يلبث أبو بكر حتى أمر خالداً من جديد ، بالمسير الى اليمامة ، للقضاء على النبي الكذاب .

والنبي الكذاب ، مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة ، وهي قبيلة من قبائل ربيعة هو رئيسها وسيدها .

وكان قد أسلم كما أسلم طليحة الأسدي ، ويروى انه اجتمع بالنبي وسأله ان يجعله خليفة له ...

وكان في يد النبي ، عسيب من سعف النخل فقال له :

لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك اياه .

فلما رجع الى اليمامة ارتدّ ، وادّعى النبوة وكان يقول :

اني أشركت في الأمر مع محمد ... فتبعه القوم .

ثم تمشى الغرور في برديته فكتب الى النبي :

« من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله !

أما بعد فاني قد اشركت في الأمر معك وان لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يعتدون ... »

وبعث الكتاب مع رجلين من قومه .

فلما قرأ النبي كتابه قال للرجلين :

أتشهدان اني رسول الله ؟

قالا : نعم .

قال : أتشهدان ان مسيلمة رسول الله ؟

قالا : نعم ، اشترك معك في الأمر ..

فقال : اما والله ، لولا ان الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ، ثم كتب الى الكذاب :

« من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ،

« أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين وقد أهلكت اهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك » .

فأخفى مسيلمة هذا الجواب ، وكتب عن رسول الله كتاباً أثبت فيه الشركة بينهما وأخرج ذلك الكتاب الى قومه ، فافتتنوا به ، وكان ذلك في آخر السنة

العاشرة من الهجرة .

وظل على هذه الحال،حتى اتاه خالد بن الوليد القائد العظيم ، باربعة آلاف. واهل اليمامة اربعون الفاً .

فلما بلغهم دنو خالد ، خرجوا الى اطراف بلدهم واستفزوا النـاس ، فنفروا اليهم حتى ملأوا ذلك السهل .

وكان على مقدمة خالد ، شرحبيل بن حسنة ، الذي ارسله الخليفة عونـاً لعكرمة بن ابي جهل .

ففاجأه ، في احدى الليالي ، ستون رجلاً من اهـل اليمامة يريدون ان يقضوا عليه وعلى رجاله ، فقتلوا حتى لم يبق منهم واحد غير رجل يدعى مجاعة .

وأقبل خالد ، ينازل القوم في وضح النهار،وكانوا قد تهيأوا وتقدمتهم الخيل.

وقد عرف قائد المسلمين ان الحرب ستكون شديدة الوطأة ، وان العـدو الكثير العدد ، لا يزعزع اركانه غير القوة الجبارة ، التي اظهرهـا المسلمون ، في جميع الميادين .

والتقى الناس فرأى خالد ورجاله حرباً لم يلق المسلمون مثلهـا ، في حرب العرب منذ ظهَرَ الاسلام.

اربعة آلاف رجل ، يحاربون اربعين الفاً في ديارهم!!.. انه مظهر غريب من مظاهر البطولة ، والشجاعة والاستبسال .

اقتتلوا حتى تكسرت السيوف ، ولم يبق الا ان يعمد المسلمون الىالفرار...

ثم تداعوا فقال ثابت بن قيس : اللهم اني أبرأ اليك مما يعبد هؤلاء وهو يعني اهل اليمامة ، ثم خاض المجال وجالد بسيفه حتى قتل .

وقال زيد بن الخطاب: والله لا أتكلم حتى أظفر او اقتل فاصنعوا كما اصنع وحمل ، وحمل اصحابه فقتل .

ثم قام البراء بن مالك ، أخو أنس بن مالك فقال :

أين يا معشر المسلمين .. انا البراء بن مالك ، هلمَّ إليَّ .

وثار كما يثور الأسد ، وقاد الصفوف الى قلب الجيش .

فتصدى له ولمن معه محكم بن الطفيل وهو من أبطال اليمامة ، ووراءه فرسان قومه ، فرماه عبد الرحمن ، بن أبي بكر بسهم فوضعه في نحره فقتله .

ثم زحف المسلمون بقيادة خالد وأركان حربه ، وهم يعلمون انهم يزحفون الى الموت ، فأكرهوا عدوهم على الالتجاء الى حديقة لهم والاحتماء بها .

فقال البراء : ألقوني عليهم في الحديقة .

فقال الناس : لا نفعل يا براء .

قال : أما أنا فسأفعل ، واحتمل حتى اذا أشرف على الحديقة من الجدار اقتحم أبطالهم ودفعهم عن الباب حتى فتحه للمسلمين .

ودخل المسلمون عندئذ ، وقد وثقوا بالنصر ، وجعلوا يضعون السيوف في الرقاب وأهل اليمامة يسقطون تحت الأقدام، حتى انتهوا الى مسيلمة وهو يقول: قاتلوا عن أحسابكم .

فضربه وحشي مولى جبير بن مطعم ورجل من الأنصار ، فقتلاه .

وفرّ بنو حنيفة وأخذهم السيف من الجوانب الأربع ولم يبق منهم غير الجماعة التي تقيم بالحصون .

على ان الاسلام خسر في هذه الواقعة طائفة من مشاهير الرجال المهاجرين والأنصار وفضلاء الصحابة لا يتسع المجال لذكر اسمائهم .

قالوا : قتل من المسلمين ألف وثمانماية رجل .

ومن المشركين سبعة عشر ألفاً .

وكان خالد بن الوليد يقول: شهدت عشرين زحفاً فلم أرَ أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة .

وبعد ان نظر خالد ، في أمور القوم ، صالح الجماعة الباقية على ان يخضعوا للاسلام ، الخضوع المطلق ، وكتب الى الخليفة يقص عليه أخبار الظفر .

فبعث اليه ابو بكر يأمره بالمسير الى العراق فاتحاً غازياً ، حتى يصبح العراق كله قطعة من ارض المسلمين .

فأطاع خالد ومشى من اليمامة الى العراق لا يلتفت الى الوراء ، حتى انتهى

الى القرية الأولى من قرى السواد ، فصالحه اهلها على عشرة آلاف دينار ووضع عليهم الجزية .

ونحن نذكر لك في السطور التي ستجيء شيئاً عن هذا الفتح العظيم لتستطيع أن تقرأ الرواية كلها دون ان ترجع الى كتب التاريخ .

٢

فتح العراق

خالد بن الوليد من اعظم قواد المسلمين ، اذا ذكرته العرب ذكرته بالاحترام والإجلال .

انه عظيم في إسلامه عظيم في جلده عظيم في صبره عظيم في بسالته .

وقد يقل بين قواد العالم كله في الزمن الماضي والزمن الحاضر ، وجود قائد يشبه خالداً في اقتحام الغمرات والاستخفاف بالخطر في ساحات الموت.

قلب من الحديد وعزيمة جبارة لا تعرف الضعف وسيف قاطع تنحني له ، اذا سُلّ سيوف القواد والأبطال .

وليس مثل خالد في الطاعة ، يقول له الخليفة : امشِ فيمشي مستهيناً بعدوه ، ويقول له : قف فيقف ولو كان مسربلاً بسربال النصر !

وخالد من أشراف المهاجرين ومن سادة العرب .

لقد ظفر باليمامة كما قرأت وقتل نبيّها الكذاب ، وقبل ان يذوق ثمرة ظفره أمره أبو بكر بأن يتوجه الى العراق ، فركب جواده وهو يقول لرجاله :

امشوا في سبيل الله .

والعراق بلاد كبيرة واسعة ، كثيرة الخصب كثيرة الماء كثيرة الخير ، وهي قطعة من ملك كسرى ، على أقاليمها الأمراء والولاة من العرب والفرس .

والحيرة من العراق ، وأنت قد عرفت ما هي الحيرة وتبينت أحوالها في

في روايتنا « النعمان الثالث » .

وكان على الحيرة يوم زحف اليها خالد ، أياس بن قبيصة الطائي، فخرج اياس مع أشراف قومه يستقبلون ذلك الجيش الزاحف ويتعرفون ما عنده، فقيل لهم: هذا قائد الاسلام خالد بن الوليد .

فقالوا : نريد ان نراه .

فدعاهم خالد وقال لهم : لكم ان تختاروا واحدة من ثلاثة ، اما الاسلام واما الجزية او الحرب .

فتشاور القوم ثم قالوا : نختار الجزية .

فصالحهم على تسعين الف درهم يدفعونها كل عام، وغادر الحيرة الى مكان يقال له « الحفير » وهو أعظم اقليم من أقاليم الفرس في ذلك القطر .

وصاحب الحفير فارسي اسمه هرمز وهو من أبطال قومه .

فلما سمع أنهم يريدون بلاده كتب الى كسرى ازدشير يخبره بأمرهم ، وتعجل هو ورجاله في المسير الى موضع يدعى « الكواظم » اختاره للقتال .

وسبق خالداً في النزول على الماء .

فقال خالد لأصحابه : سيكون هذا الماء لمن يصبر ..

وكان مع خالد عشرة آلاف ، وقد أمده ابو بكر بثمانية آلاف ، عليهم أمير شجاع من أمراء الاسلام هو المثنى بن حارثة الشيباني .

وقد أمره الخليفة بأن يكون خاضعاً لابن الوليد .

فلما التقى الجيشان جيش المسلمين وجيش الفرس ، خرج هرمز من بين صفوفه ودعا خالداً الى البراز .

وكان قد تواطأ مع اصحابه على أن يغدروا بخالد .

فبرز اليه خالد ومشى نحوه راجلا ، فلم يرَ هرمز الا ان ينزل هو أيضاً عن فرسه ، وأقبلا يتضاربان والعيون تنظر الى ذلك البراز الرائع الذي تبذل فيه قوى القائدين .

وبينا الناس من الفريقين ينظرون والأيدي على القلوب ، احتضن خالد القائد

الفارسي وهمّ بقتله فحمل اصحاب هرمز الذين تواطأ معهم ليغدروا بخالد فضربه خالد فقتله ، وحمل الفارس المسلم القعقاع بن عمرو على الصفوف ، فانهزمت الفرس ولحق بهم الجيش الظافر يقتل ويسبي حتى جنّ الظلام .

فبعث خالد بالفتح وخمس الغنائم الى ابي بكر وسار من ساعته حتى نزل بمكان البصرة وأرسل المثنى بن حارثة في آثار العدو ففرقهم في كل طريق .

ثم بلغ الخبر كسرى فبعث جيشاً عظيماً نزل « بالدلجة » فسار اليهم خالد فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيراً من أبطالهم .

ثم اجتمعوا في « مليس » ومعهم فريق كبير من نصارى العرب ينتصرون للفرس ، ففاجأهم ابن الوليد بجيشه وبرز اليه مالك بن قيس فقتله خالد واشتد القتال حتى صبغت الدماء مياه النهر وسمي نهر الدم .

ثم سار الى أمعيشيا فغزا أهلها قبل ان ينقلوا أموالهم وغنم جميع ما فيها ، ثم أمر فهدمت منازلها ولجأ الناس الى بلاد الفرس .

وكان كلما نزل بلداً استسلم اليه اصحاب ذلك البلد وصالحوه ، حتى بلغ الخليفة ظفره بأعدائه وخبر حروبه وصبره فقال :

عجزت النساء ان يلدن مثل خالد !

وهي كلمة تناقلتها الأجيال وكانت علامة شرف وفخار لكل من ينتمي الى خالد بن الوليد الجبار .

* * *

انثنى الجيش الفاتح الى الحيرة وأقام بها سنة ، وقائده العظيم يرسل رجاله الى الثغور فيفتحونها حتى ملكوا السواد كله الى شاطىء دجلة .

وكان الفرس متحيرين مترددين ، فقد مات ملكهم ولم يجمعوا على رجل يملكونه .

على أن خالداً لم يكن يعرف الراحة والهدوء ، كان يريد ان يفتح الارض للاسلام ويملأ خزائن المدينة من مال الجزية .

فتح الأنبار ، ثم صالح أهلها على ما أراد ، وفتح عين التمر وقتل من فيها من بني تغلب والفرس، ولم يُبقِ إلا على أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل، منهم سيرين والد محمد بن سيرين ، ونصير والد موسى بن نصير ، أحد مشاهير القواد في دولة الأمويين .

ثم فتح مع عياض بن غنم دومة الجندل، وكانت له مواقع بالقرب من الحيرة، تبعث الرعب الى القلوب .

وعندما رأى أن الأمر قد استقام له في العراق، وأن القوم الذين أخضعهم لا يترددون في دفع الجزية ، همز جواده يريد « الفراض » وهي أرض بين الشام والعراق والجزيرة ، كأنه كان يريد ان يختبر شجاعة الروم في الحرب ، كما خبر شجاعة الفرس ، أو كان جواده لم يشأ الا ان يثب من قطر الى قطر .

ولقي الروم في تلك الارض ومعهم تغلب ، واياد ، والنمر ، فاشتعلت نار القتال بين الفريقين ولم تلبث الجيوش حتى فرّت من وجهه ، كأن خالداً قضاء الله على الارض .

أجل ، كان خالد قضاء ، والويل لمن تحدثه نفسه بأن يعرض لسيفه ..

ولم يتراجع حين خفقت فوق رأسه رايات النصر ، بل أمر رجاله بألا يرفعوا السيف عن العدو حتى يقتلوا كل من تردد في الفرار .

ففعل المسلمون ما أمرهم به ، ثم أقام بالفراض عشرة أيام وآذنهم بعد ذلك بالرجوع الى الحيرة ، وذلك في السنة الثانية عشرة ، ولكنه لم يعد معهم ، بل قاد الجيش باسمه عاصم بن عمرو ، وخرج هو سراً يريد الحج ومعه جماعة من أصحابه ، دون ان تعلم بذلك عامة الجيش .

حتى ان الخليفة أبا بكر لم يدرِ أن قائده خرج حاجاً الا بعد رجوعه.

فعتبه ، ثم عاقبه بان صرفه الى الشام ليكون عوناً لجموع المسلمين باليرموك .

وكانت غزواته كلها التي قرأت في أقل من سنة .

* * *

٣

فتح الشام

عندما استقام أمر العرب لأبي بكر ، وفرغ من اهل الردة حدث نفسه بان يغزو الروم في الشام ويضم الى البلاد التي دانت لملكه ، هذا الاقليم الروماني الواسع الأرجاء .

ولم يتردد في الأمر ، بل دعا عمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وعلياً . وعبد الرحمن بن عوف . وطلحة . والزبير . وسعد بن ابي وقاص . وأبا عبيدة ابن الجراح . ووجوه المهاجرين والانصار وشاورهم فيه .

فاستصوبوا الرأي ، ووافقوه فيما همّ به .

ولم يبقَ إلا ان يجهز الجيش ، فنادى مناديه :

انفروا أيها الناس الى جهاد عدوكم الروم في الشام .

وبدأ يكتب كتبه ، ويرسل رسله الىالأمراء والعمال فأقبلوا علىالمدينة خفافاً وثقالاً وهم يؤثرون الطاعة والجهاد على التمتع بلذة الامارة وأبهة الحكم .

وكان تجهيز الجيش وبعثه الى الشام جماعات ، تتبع الجماعة منها الاخرى ، وكلما قدم المدينة أمير أمره الخليفة بان يلحق بالأمير الآخر حتى أصبح المسلمون الزاحفون الى الحرب جيشاً جراراً يرأسه القواد المجربون .

أما الأمراء فهم : أبو عبيدة بن الجراح . ويزيد بن ابي سفيان . وربيعة بن عامر. وشرحبيل بن حسنة . وخالد بن سعيد . وعمرو بن العاص. وغير هؤلاء .

وقد جعل كل واحد منهمأميراً علىجماعة وجعل أبا عبيدة، أميراً علىالجميع.

وكان أبو بكر يوصي أمراءه بوصايا كثيرة، منها تقوىالله ، وحسنالصحبة ، والمواظبة على الصلاة في أوقاتها ، وكان يقول :

ليصلح كل منكم نفسه حتى يصلح الله له الناس ، وأكرموا رسل العدو اذا قدموا اليكم ، وقللوا لبثهم عندكم حتى يخرجوا من الجيش وهم جاهلون لم يطلعوا على شيء ، وامنعوا الجنود من محادثتهم وليتولّ الأمير أمر مخاطبتهم .

وأوصاهم أيضاً بان يكثروا الحراس ويفرقوهم في الجيش ويكثروا مفاجأتهم في مواضع الحراسة بغير علم منهم فمن وجدوه غافلاً يعاقب بغير افراط .

وقال : ستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له الى غير ذلك مما أوصاهم به .

وكلما خرج جيش كان الخليفة يدعو له بقوله :

« اللهم احفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وشمائلهم واحطط أوزارهم وأعظم أجورهم .. »

وكان هرقل ملك الروم عندما بلغه مسير جيش الاسلام ، مقيماً بفلسطين ، فحث الناس وحرضهم على القتال .

ثم أتى دمشق ، ففعل مثل ذلك ، ثم أتى حمص فأوصى حاميتها وأهلها بما أوصى به أهل دمشق ، ثم أتى انطاكية فأقام بها وبعث الى الروم فجمع منهم الجيش الكثير .

فلما دنا أبو عبيدة من « الجابية » خبّره الناس ان هرقل في انطاكية وان الجيش الذي أعدّه للحرب ، لم يعدّ أحد من آبائه مثله .

فكتب بذلك الى أبي بكر .

فجاء الجواب يعده فيه بالنصر ، ويذكر له أنه سيبعث اليه الرجال ، في كل حين .

ولم يلبث حتى بعث اليه بجند مع هاشم بن عتبة بن ابي وقاص وسعيد بن عامر ومعاوية بن ابي سفيان مدداً لأخيه يزيد .

المعركة الأولى

كانت الواقعة الاولى ، في موضع يقال له « العربة » من أرض فلسطين .

خرج ستة قواد من الروم على رأس ثلاثة آلاف .

فبعث اليهم يزيد بن ابي سفيان ، أبا أمامة الباهلي في خمسمائة من الرجال فقتلوا قائداً من قوادهم وفريقاً كبيراً من الجنود .

وزحفت بعد ذلك جنود المسلمين حتى قاربوا الشام، فأرسل الروم الى ملكهم يسألونه ان يتعجل في إرسال الجيش .

فبعث اليهم نحو تسعين الفاً نزلوا « بثينة جلّق » في أعلى فلسطين وعليهم أخوه وهو من أبطال الروم .

وكان هرقل في حمص .

أما فلسطين فكان فيها عمرو بن العاص بمن معه من رجال الاسلام .

وأرسل هرقل جيشاً آخر يبلغ ستين الفاً الى الناحية النازل فيها ابو عبيدة وهي الجابية .

وجيشاً آخر الى البلقاء وكان نازلاً فيها يزيد بن ابي سفيان .

وبعث مثله الى بصرى مقر شرحبيل بن حسنة .

ولكن رأى المسلمون بعد تفرق هذا الجيش ان الاجتماع أولى ، فتشاوروا في الأمر ثم اختاروا وادياً بناحية الشام يقال له اليرموك يجتمعون فيه .

وما لبثت صفوفهم حتى وفدت الى ذلك الوادي .

وجاء الروم أيضاً وجعلوا جانب الوادي الآخر مخيماً لهم .

وقد ظل الفريقان ثلاثة اشهر لم يجرد في خلالها سيف الا في معارك صغيرة لم تكن حرباً .

فخاف المسلمون ان يطول الأمر فكتبوا الى الخليفة يستمدونه ، فلم يرَ إلا ان يبعث اليهم خالداً ، وكان خالد قد حج ، بدون اذن الخليفة فعتب عليه، كما مر.

وقد جاء في كتاب الخليفة الى خالد ، ان يتعجل في المسير الى الشام ، ويأخذ نصف الناس الذين عنده ويولي المثنى بن حارثة الشيباني أمر النصف الآخر الباقي في العراق ، ووردت في الكتاب هذه العبارة :

فاذا التقيتم « وهو يعني أبا عبيدة والمسلمين » فانت أمير الجماعة والسلام .

فمشى خالد بالنصف وهم تسعة آلاف وجعل يغير في طريقه على كل بلد يراه حتى بلغ أرض الشام ناشراً راية العقاب السوداء ، التي كانت للنبي فأغار على غسان وأرسل رجاله الى كنيسة في الغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء ، ثم سار

حتى أتى بصرى فقاتل من فيها فظفر بهم ثم صالحهم .

وكانت بصرى أول بلد فتح بالشام .

وكتب خالد الى ابي عبيدة كتاباً أرسله اليه مع عمرو بن الطفيل الازدي ، وهذا هو كتابه :

« أما بعد فاني أسأل الله لنـــا ولك ، الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا من كل سوء .

« وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير الى الشام وبالقيـــام على جندها والتوالي لأمرها والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليتـه فانت على حالك التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك تمم الله بنا وبك من احسان ورحمنا وإياك من صلى النار والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فلما قرأ ابو عبيدة كتاب خالد وهو كتاب عزله عن القيادة ، قال :

« بارك الله الخليفة رسول الله فيما رأى وحيا الله خالداً » .

وكان أبو بكر قد كتب لأبي عبيدة :

أما بعد فاني قد وليت خالداً قتال العدو بالشام، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع فاني لم أبعثه عليك ان لا تكون عندي خيراً منه ، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك خيراً والسلام .

اليرموك

طلع خالد على المسلمين في اليرموك ، في شهر ربيع الآخر من السنة الثـالثة عشرة للهجرة، وقد كمل عددهم في ذلك الوادي العظيم الذي صرع فيه الاسلام ، أعظم دولة من دول الشرق والغرب. وكان الروم يزيدون المسلمين، ستة أضعاف.

ا فلما وقف رجال خالد في المواضع التي اختارها لهم ، خطب فيهم يحثهم على الجهاد ثم قال : ان هؤلاء قد تهيأوا للقتال ، وان هذا يوم له ما بعده أن رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعده ، فهلموا فلنتنـاوب على

الامارة وليكن بعضنا اليوم والآخرغداً حتىتتأمروا جميعكم ودعونيأتأمر اليوم.
فأمروه ، ثم خرجت الروم في تعبية لم يرَ الناس مثلها قط وخرج خالد على نظام لم يكن مثله في العرب : جعل جيشه ستة وثلاثين قسماً على كل قسم منها قائد مجرّب ، وأقام أبا عبيدة على القلب ، وكان عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة على الميمنة ، وعلىالميسرة يزيد بن ابي سفيان ومعه القعقاع بن عمرو، وعلى الطلائع قباث بن أشيم ، وجميع هؤلاء القواد ومن وراءهم من الرجال يؤثرون الموت في ذلك الوادي على الفرار من وجه العدو .

وبينا هم ينظرون الى صفوف الروم وينتظرون ان يبدأ القتال ، قام رجل يقول لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين .

فانتهره قائلاً : قل ما أكثر المسلمين وأقل الروم ، انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، ثم أمر عكرمة بن ابي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال وتلاحمت السيوف وغاصت الرجال والفرسان في لجة الموت .

وبينا القوم يتخاطبون بالسيوف والأسنة ، ونساء المسلمين يرفعن أصواتهن بالتحريض والدعاء ، قدم البريد من المدينة ، يحمله محمية بن زنيم وعلى وجهه آثار التعب والعياء .

فسأله بعضهم عما يحمل فقال : خير وسلامة .

ثم لقي خالداً فقال له : لقد مات الخليفة ابو بكر وخلفه عمر بن الخطاب ، ولكني لم أشأ ان أذكر ذلك لرجال الجيش ..

فذعر القائد ثم قال : وأين الكتاب ؟

فدفعه اليه قائلاً : هذا هو وهو يحمل أيضاً خبر عزلك عن الامارة .

فلم يقل خالد كلمة بل تناول كتاب الخليفة الجديد وجعله في كنانته وكره ان يعلن للناس ما جاء فيه ، خوفاً من ان تضطرب الصفوف . غير أنه لم يكتم أبا عبيدة الخبر، فأخفى الاثنان ما عرفاه وانثنيا الى الساحة، الىالأتون الملتهب. كأن البريد لم يجيء .

وحملت الروم حملة تزعزع الجبل ، فتراجع الجيش الذي يرأسه عكرمة بن

أبي جهل وعمه الحرث بن هشام ، فرفع عكرمة صوته قائـلاً : قاتلت النبي ثم أفرّ اليوم ؟؟

ثم نادى : من يبايع على الموت أيها المسلمون ؟

فبايعه عمه الحرث بن هشام وضرار بن الأزور في اربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، وقاتلوا أمام خيمة خالد بن الوليد فتخطفتهم السيوف وأبصر الناس خالداً في تلك الساعة يقتحم قلب الروم ويغوص بين خيلهم ورجلهم ، ثم رأوا رجاله يبرون الرقاب وراءه وعن جانبيه ، فاذا خيل الروم تلوي أعناقها ، واذا الصفوف التي هي كرمال الصحراء تتضعضع وتعمد الى الفرار .

فهتفت النساء هتاف النصر وتسابقت رجال الروم الى الخندق فاقتحمه خالد ورجاله ، فكثر القتل وسالت الدمـــاء وهوت الفرسان عن الخيل حتى أمسى الوادي جثثاً وأشلاء ، وأمسى الخندق أنقاضاً .. من لحم ودم ..!

ثم ساد السكوت الوادي وبسط الليل ظله الرهيب . وكان خالد وابو عبيدة يعلمان ان فريقاً كبيراً من وجوه الأمراء حصده السيف في ذلك اليوم ، فباتا في الخندق بين الأجساد المهشمة وفوق الدمـــاء المتجمدة ، وهما يفكران في هذه الواقعة الكبرى وفيمن خسرا من الرجال .

ولم يطلع الصبح حتى عمدا الى الطواف بين صفوف المسلمين، ليتعهدا الجرحى، ويريا بأعينهما القواد الأحياء . وحمل عكرمة بن ابي جهل وابنه عمر بن عكرمة الى خالد وهما جريحـان . فوضع رأس الوالد على فخذه ، ورأس الولد على ساقه وأقبل يمسح وجهيهما ويقطر في حلقيهما الماء ، حتى ماتا بين يديه .

وكان مع الجيش كثير من النساء، وقد قاتلن في ذلك اليوم، كما قاتل الرجال، وأقبلن في اليوم الثاني يفتشن عن رجالهن بين الثلاثة آلاف قتيل ، الذين خسرهم المسلمون . وأعظم القواد بلاء ، يوم اليرموك، كان عكرمة الذي ذكرناه ، وكانوا يقولون له وهو يقتحم الروم بسيفه : اتق الله وارفق بنفسك ، فيقول :

كنت أنا وأبي أشدّ الناس على النبي، وكنت أقاتل عن اللات والعزّى فأبذل نفسي لها فكيف أستبقيها الآن عن الله ورسوله .. لا والله أبداً ..

وقد وجدوا في جسم عكرمة يوم قتل ، بضعاً وسبعين ضربة وطعنة .
ولحق المسلمون بعدوهم الفارّ حتى قاربوا دمشق ، وهم يقتلون ويأسرون كل من رأوه من فلول الروم . أما هرقل فكان في حمص، يوم هزيمة رجاله ، فغادرها جاعلاً عليها وعلى دمشق أميرين ينوبان عنه .
وكانت القيادة العامة قد صارت الى ابي عبيدة ، في ذلك الحين ، بعد ان عرف الناس ان الخليفة أبا بكر قد مات .

٤

قبل موت الخليفة

اغتسل ابو بكر يوم الاثنين ، وهو اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة وكان يوماً بارداً ، ففاجأته الحمّى ولزمته لا تفارقه خمسة عشر يوماً لم يخرج فيها الى صلاة . وهنالك قول آخر هو رأي القليل من النـاس ، ان اليهود دسّوا له السم في الارز وكان يأكل مع الحرث بن كلدة .
فلما ثقل ، وأحس أن روحه ستذهب الى خالقه ، دعا النـاس اليه وهو في فراشه وقال لهم : لقد نزل بي ما ترون ولا أظن إلا أنني ميت ، وقد أطلق الله ايمانكم من بيعتي ، فأمّروا عليكم من أحببتم فانكم ان أمرتم رجلاً في حياتي كان أجدر ان لا تختلفوا بعدي .
فخرجوا من عنده يتشاورون ثم رجعوا اليه وقالوا : رأينا رأيك يا خليفة رسول الله .
قال : لعلكم تختلفون .. قالوا : لا . قال : فعليكم عهد الله على الرضى .
قالوا : نعم ، قال : فامهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .
ودعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب !
فقال : ما سألتني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني ، انه والله أفضل من رأيك

فيه إلا أن فيه غلظة .. قال : علي بعثمان بن عفان، فأقبل فقال له : أخبرني عن عمر بن الخطاب .

قال : انت أخبرنا به . فقال : قل يا أبا عبد الله .

قال : علمي به أن سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله. قال: يرحمك الله.

ثم دعا بعض وجوه المهاجرين والأنصار فشاورهم في الأمر . فقال طلحة بن عبيد الله : ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وأنت ترى غلظته ؟!

فقال : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال: أبالله تخوفني يا طلحة؟ سأقول لله اللهم اني استخلفت عليهم خير أهلك ..

وأضجع قليلا ، ثم أمر بإحضار عثمان مرة ثانية ، فقال :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد ابو بكر ، ابن ابي قحافة في آخر عهده بالدنيا ، خارجاً منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، اني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم الا خيراً فان عدل فذلك ظني به ، وعلمي فيه، وان بدل فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ، ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

ثم أمر بالكتاب ، فختمه عثمان ، وخرج به وهو يقول للناس :

أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم .

فقرأه عليهم فسمعوا وأطاعوا . ثم دعا عمر فأوصاه بما أوصاه ، ثم خرج من عنده .

فرفع أبو بكر يديه الى السماء وقال : اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم وقد خفت عليهم الفتنة ، فعجلت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح الله ولاتهم ، واجعله من

خلفائك الراشدين ، واصلح له رعيته .

ثم حضرته الوفاة فقال لابنته عائشة زوجة النبي :

اغسلي ثوبيَّ هذين ، وكفنيني بهما ، فان الحي أحوج الى الجديد من الميت .

وأوصاها بان يدفن الى جنب النبي ، وان تغسله زوجته أسماء بنت عميس ويعينها ولده عبد الرحمن. فلما توفي ، حفر له ، وجعل رأسه عند كتف الرسول ، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة ، في السنة الثالثة عشرة ، وله من العمر ، ثلاث وستون سنة ، كما كان عمر النبي ، يوم وفاته .

وقد مرَّ على خلافته ، سنتان ، وثلاثة أشهر ، وعشرة أيام .

٥

عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب ، بن نفيل ، بن عبد العزّى بن رباح بن عبد الله بن عدي بن كعب ويكنّى أبا حفص ، ويلقب بالفاروق وهو من أشراف قريش ، وامه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

أسلم في السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة .

وكان رجلاً طوالاً ، أصلع ، أبيض ، شديد حمرة العينين ، في عارضيه خفة ، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً مقبلاً على شأنه .

وكان يتختم في يده اليسرى ، ويخضب بالحناء وهو يفوق الناس طولاً فاذا مشى فكأنه على دابة مشرف على الناس .

وعمر من الرجال الذين كان لهم شأنهم في الجاهلية والاسلام ، وكانت حياته وهو خليفة ، حياة عدل وزهد وفضيلة وتقى ، اذا رأى الحق أظهره ولو كان من وراء إظهاره الموت ، وهو لم ينظر قط الى الاشخاص بل كان ينظر الى الأعمال .

ان عمر في عدالته وأخلاقه وأدب نفسه قدوة لكل رجل رفعته الأقدار الى العرش .

وكان النبي يقول : ان الله وضع الحق على لسان عمر وقلبه .

وكان يقول أيضاً : عمر بن الخطاب معي حيث أحب وأنا معه حيث يحب ، الحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان .

وللنبي عليه السلام أقوال كثيرة في هذا الخليفة العظيم لايتسع لذكرها المجال. كما ان للخلفاء وكبار الصحابة آراء فيه نذكر لك بعضها :

قال ابو بكر : ما على ظهر الأرض رجل أحبّ إليّ من عمر . وقال ابن مسعود : لو ان علم عمر وضع في كفة ميزان ووضع علم أحياء الارض في كفة اخرى لرجح علم عمر .

وقال حذيفة : كأن علم الناس كان مدسوساً في حجر عمر ، ما أعرف رجلاً لا تأخذه في الله لومة لائم الا عمر .

وقال ابو أسامة : أتدرون من هو أبو بكر وعمر ، هما أبو الاسلام وامه .

وقال جعفر الصادق : أنا بريء ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير .

وقال علي بن ابي طالب : ان في القرآن لرأياً من عمر .

وقال بلال المؤذن لأسلم : كيف تجدون عمر ؟

فقال : خير الناس ، الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم .

فقال بلال : لو كنت عنده اذا غضب لقرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه.

وقال الأحنف بن قيس : كنا جلوساً عند عمر ، فقلنا له :

ماذا يحل لأمير المؤمنين من مال الله ؟

قال : لا يحل لعمر من مال الله غير حلتين ، حلة للشتاء ، وحلة للصيف ، وما حجّ به واعتمر ، وقوته وقوت أهله كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم .

أجل ، كان ابن الخطاب الخليفة العظيم الذي دان له هذا الشرق وانتشرت جنوده يفتحون للاسلام كل قطر ، وملأت هيبته نفوس العرب ، أميرها وصعلوكها واهتزت له قصور الأكاسرة وملوك الرومان ، كان يلبس جبة من صوف مرقعة بالأديم « الجلد » ويطوف في الاسواق على عاتقه الدرّة ، أي السوط يؤدب بها الناس .

وقد رآه القوم في المدينة ، حاملاً قربة على عنقه ، فقيل له : ما هذه ؟
فقال : ان نفسي أعجبتني فأردت ان أذلها .
وكان اذا ولـّى على البلاد أميراً من الأمراء كتب اليه ، واشترط عليه ان لا يركب برذوناً « فرساً غير أصيل » . ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات والفقراء ، فان فعل ، حلـّت عليه العقوبة .
ودخل على ابنه عاصم يوماً وهو يأكل لحماً ، فقال له : ما هذا ؟
قال : اشتدت شهوتنا له . فهز رأسه قائلاً : أوكلما اشتدت شهوتك الى شيء أكلته ؟؟.. كفى بالمرء سرفاً ان يأكل كل ما اشتهى ..
وكان اذا حج، لا يضرب فسطاطاً ولا خيمة بل كان يلقي كساءه على شجرة ويستظل تحته.. وكان شديداً حريصاً على كل كلمة يقولها أمراؤه وأركان دولته، ولا يغفر لهم عملاً يعملونه الا اذا كان لهم فيه عذر .
نعم ، كان يريد ان يكون الولاة مثلاً للعرب ، في أدبهم ، وأخـلاقهم ، وطهارة وجدانهم وبعدهم عن كل حرام .
ولقد جاء في تاريخه : ان النعمان بن عدي بن نضلة كان مع أبيه في أرض الحبشة فجعله والياً على ميسان ، وكان النعمان شاعراً ، فقال في مجلس له :

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها   بميسان يسقى في زجاج وحنتم
اذا شئت غنتني دهاقين قرية   ورقاصة تجثو على كل منسم
فان كنت ندماني فبالأكبر اسقني   ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعلّ أمير المؤمنين يسوءه   تنادمنا في الجوسق المتهدم

وبلغ عمر قوله ، فقال : نعم والله انه ليسوء أمير المؤمنين .
ثم التفت الى من حوله قائلاً : من لقيه فليخبره اني قد عزلته
فذهب رجل من قوم النعمان فخبره أمر عزله .
فقدم على عمر وأقبل يقول : والله ما شربت الخمر قط يا امير المؤمنين وما ذاك الا شعر طفح على لساني . فقال : قد يكون ذاك ، ولكنك قلت ما قلت فلا تعمل لي على عمل ما بقيت ..

وعمر ، أول من دعي أمير المؤمنين .

يقول قوم ان عمر قال : أنتم المؤمنون وأنا أميركم ، فهو سمّى نفسه .

ويقول آخرون : قدم لبيد بن ربيعة ، وعدي بن حاتم ، المدينة لحاجة لهما ، فلقيا عمرو بن العاص ، والخليفة في المسجد ، فقالا لعمرو : استأذن لنا على أمير المؤمنين عمر .

فوثب عمرو بن العاص فدخل فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال له : ما بدا لك في هذا الاسم يا ابن العاص ؟

قال : قدم لبيد بن ربيعة ، وعدي بن حاتم فقالا لي : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت لهما : أصبتما اسمه ، انه الامير ونحن المؤمنون .

وهو أول من كتب التاريخ الهجري، قيل في ذلك : رفع اليه صك مكتوب في شهر شعبان ! فقال لمن حوله : أي شعبان هو ؟ الذي مضى ؟ او الذي هو آت ؟ او الذي نحن فيه ؟

ثم جمع أصحاب رسول الله فقال لهم : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه .

فقال قائل : اكتبوا على تاريخ الروم .. فقيل : انه يطول فهم يكتبون من عهد ذي القرنين ، وقال آخر: اكتبوا تاريخ الفرس، ثم قال علي بن ابي طالب :

اكتبوا منذ خرج النبي من مكة الى المدينة ، يعني يوم هاجر .

فكتب التاريخ في ذلك الحين ، وكان ذلك في شهر ربيع الاول سنة ١٦ .

وهو اول من اتخذ بيت المال ، أي أنه جعل لمال المسلمين وزيراً .. وأول من سنّ قيام رمضان ، وأول من جمع القرآن في الصحف ، وأول من طاف بالليل ينظر الى أعمال الناس ، وأول من عاقب على الهجو ، ونهى عن بيع أمهات الأولاد ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من وضع الخراج على الأرض ، والجزية على اهل الذمة ، في البلاد التي فتحها قواده ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من استقضى القضاة في الأمصار ، وأحصى قبائل العرب ، وفرض للناس الأعطية، وأول من حمل الطعام على السفن من مصر ، واول من اتخذ الدرة ، وأول من

قال : « أطال الله بقـاءك » قاله لعلي بن ابي طالب ، واول من قال : « أيدك الله » قاله لعلي ايضاً .

وكان متواضعاً خشن الملبس كما قرأت ، شديداً في أمور خلافته ، وقـــد اتبعه عماله في معظم أفعاله يتشبهون به ، اذا غابوا عنه أو كانوا عنده .

مـع انهم هم الأمراء ، الذين فتحوا البـــلاد ، وأوسعهم الله من الأموال ، ووفرت لهم أسباب العيش الرغيد ، وصنوف اللذات . ولكنهم « زادوها » كما يقولون ، في خشونة العيش ، حتى كادت هذه الخشونة ، تذهب بهيبـة الامارة والحكم . ليسمع امراؤنا وحكامنا ، في هذا الجيل ، حكاية أمير حمص !!

كان سعيد بن عامر ، عاملاً لعمر بن الخطاب ، على حمص ، فشكاه أهل البلد، الى أمير المؤمنين، وسألوه أن يعزله عن الولاية . فقال لهم : وماذا تشكون منه؟

قالوا : لا يخرج الى عمله حتى يرتفع النهار .. ولا يجيب أحداً منا ، اذا جنّ الظلام ، وله يوم في الشهر لا يخرج الينا فيـه أبداً . فقال لكاتبه : عليّ بسعيد ابن عامر .

فلما جاء ، جمع بينه وبين أهل حمص وقال : قولوا الآن ماذا تشكون ؟

فقال أحدهم : لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار . قال : ما تقول يا سعيد ؟

قال : يا أمير المؤمنين، انه ليس لأهلي خادم ، فأنا أعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر فأخبز خبزي ، ثم أتوضأ وأخرج اليهم !!!....

قالوا : لا يجيب أحدنا عندما يأتي الليل . فقال : ماذا تقول يا سعيد ؟

قال : كنت أكره أن أذكر هذا .. اني جعلت الليـل كله لربي ، وجعلت النهار لهم !!... وماذا تشكون أيضاً !؟

قالوا : له يوم في الشهر لا يخرج الينا فيه . قال : ماذا يا سعيد ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اني أغسل ثوبي في ذلك اليوم ، ثم أجففه فـــلا أخرج الى عملي إلا في اليوم الثاني !!..

فأشرق جبين عمر وقال : الحمد لله الذي لم يضيع فراستي فيك ، ثم قـال :

أهل حمص ، استوصوا بواليكم خيراً ... ثم أعطاه ألف دينـــار وقال له : ستعن بها .

فحملها الى زوجته ، فقالت له : أغنانا الله عن خدمتك .

فقال لها : ألا تدفعيها الى من هو أحوج اليها منا ؟ قالت : بلى ...

فجعلها صرراً ، ثم دفعها الى رجل يثق به وقال : انطلق بهــذه الصرة الى فلان ، وبهذه الى اليتيم فلان ، وهذه الى الفقير فلان ، حتى بقي منها شيء يسير فدفعه الى زوجته ، فقالت : ألا نشتري لنا فيه خادماً ؟

قال : سأعود أنا الى الخدمة وسيأتيك من هو أحوج اليه ...!

* * *

هذه صورة من صور أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، وهؤلاء هم عماله الذين ولاهم أمور الناس وأوصاهم بأن يحفظوا قوله ويذكروا دائماً ان المــال الذي يأخذونه لم يكن مالهم ، وإنما هو مال المسلمين ...

وليس لنا أن نبدي رأياً في زهد عمر وخشونة عيشه وشدته في الأمور التي ذكرناها عنه ، بل نترك لك ايها القاريء العزيز ، هذا الرأي .

٦

حرب العراق

لقد قرأت فيا تقدم ، ان خالداً ابن الوليد ترك العراق بامر من الخليفة ابي بكر رضي الله عنه ، ليلحق بالمسلمين النازلين في الشام ، وقـد انتهى امر امارة الجيش بعد ذهابه ، الى المثنى بن حارثة الشيباني ، وهو من الصحابة ، ينتمي الى ذهل بن شيبان وينتهى نسبه الى ربيعة بن نزار ، وكان قد وفد مع قومه الى النبي عليه السلام ، في السنة التـاسعة للهجرة ، وارسله ابو بكر في صدر خلافته الى

العراق قبل مسير خالد اليه ، وهو الذي أطمع ابا بكر والمسلمين في الفرس ، وهوّن عليهم امر الحرب والفتح في بلاد الاكاسرة ، الذين كانوا سادة الشرق .

والمثنى عربي شجاع ، حسن الرأي في السلم والحرب ، وقد أبلى في قتال اهل فارس بلاء لم يبلغه فارس عربي ، فلما تولى امن الجيش في العراق ، في السنة الثالثة عشرة ، اقام بالحيرة ينظر في الأمر الذي عهد اليه فيه ، ويضع مع اركان حربه منهاج القتال في ارض العدو .

وكان كسرى ازدشير قد مات ، وتولى الملك بعده شهر براز بن ازدشير بن شهريار بن سابور ، وقد افتتح عهد ملكه بارسال جيش فارسي عظيم يقوده هرمز جاذويه الى الساحة التي يحارب فيها المسلمون ، فخرج المثنى من الحيرة الى بابل ، وقد كتب اليه كسرى كتاباً يقول فيه :

لقد بعثت اليكم جنداً من وحش فارس ، وهم رعاة الدجاج والخنازير ... ولست اقاتلكم الا بهم .

فأجابه المثنى : انما انت احد رجلين اما باغ فذلك شرٌ لك وخير لنا ، واما كاذب فأعظم الكاذبين فضيحة عند الله وعند الناس ، الملوك ... والحمد لله الذي ردّ كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير .

وأقبل هرمز على بابل واقتتل الجيشان قتالاً شديداً ، أكره الفرس على الفرار الى المدائن مضعضعي الصفوف ، وبقيت الأرض وراء دجلة بيد المثنى .

ثم مات كسرى شهر براز وكادت تنشب الفتنة بين امراء فارس من أجل الملك ، ثم ملكت ابنة لكسرى ، فلم ينفذ لها أمر فخلعت عن العرش ، ثم ملك سابور ابن شهر براز فثارت به ازرميدخت بنت كسرى فقتلته ، وقد شغلتهم فتنتهم وثورتهم عن الجيش العربي .

ولم ترد من الناحية الاخرى على المثنى اخبار الخليفة ابي بكر ، فرأى ان يذهب الى المدينة ، واستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ، وكانت غايته من السفران يستأذن أبا بكر في الاستعانة على الفرس بأهل الردة الذين حسنت توبتهم ، لأنهم خير من حمل السيف ، فلما قدم المدينة ، رأى أبا بكر ، على فراش مرضه يصارع

الموت ، فلم يستطع الا ان يقص عليه ما عنده .

فدعا ابو بكر عمر بن الخطاب ، وقال له : اذا انا مت ، فلا تنس أن تندب الناس للذهاب الى العراق مع المثنى ، واذا فتح الله على اهل الشام ، فاردد اهل العراق الى العراق فانهم اهله وولاة امره وأهل الجرأة على من فيه .

ثم مات ابو بكر ، كما مرّ ، فدفنوه ، ثم قام عمر يندب النـاس ويسألهم ان يساعدوا المثنى في حربـــه ، وكانت حرب الفرس ، اثقل حرب على المسلمين ، وأكرهها اليهم ، لشدة سلطان أهل فارس وقوتهم وقهرهم الامم ، فظل عمـــر يندب الناس ثلاثة ايام ، وهو لا يجد من يرغب في الذهاب الى العراق ، فلما كان اليوم الرابع ، اقبل ابو عبيد بن مسعود الثقفي ، وهو من الصحابة فقال : انا لها يا مولاي ...

ثم جاءسعد بن‌عبيد، وسليط بن قيس، وهما من الانصارفقالا: الى‌العراق...

وتتابع الناس ، وراءالامراء الثلاثة يسألون عمر أن يأذن لهم في الذهاب‌حتى أصبحوا جيشاً كثير العدد ، فيه فرسان العرب والقواد البسلاء . فقال رجـــال الدولة لعمر : اجعل على هذا الجيش اميراً من السابقين الى الاسلام ولا تؤمر أبا عبيد .

قال : لا والله لا أفعل ، ولا أؤمر إلا اولهم انتداباً ، ثم دعا ابا عبيد وقـــال له على مرأى ومسمع من المثنى ، وجميع الأشراف :

أنت أمير الجيش ، ولكن اسمع من اصحاب رسول الله وأشركهم في الأمر ، ولولا سرعة سليط بن قيس في الحرب، وفي التسرع الى‌الحرب ، ضياع الاعراب، لجعلته اميركم .

واعتذر في عزله المثنى ، وخالد بن الوليد عن الامارة بقوله : اني لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما ، فأحببت ان يعلموا أن الله هو الصانع، وكان ذلك الجيش ، اول جيش سيّره عمر بن الخطـاب ، ثم سيّر بعده يعلى بن أمية الى اليمن .

ظفر المسلمين

أمر عمر ، المثنى بن حارثة ، بان يتقدم القوم الى العراق ، ويدعو الى القتال من حسن إسلامه من اهل الردّة ، فسبق المثنى الجيش الى الحيرة ، وكانت نار الفتنة ؛ في اثناء غيابه ، قد اشتعلت في بلاد الفرس ، وانتهى امرها الى جلوس احدى بنات كسرى على العرش، واشترطوا عليها ان يشاركها في الملك ، عشرة أعوام ، رجل من ابنـــاء الملوك اسمه رستم ، ثم يكون الملك بعد ذلك ، في آل كسرى اذا وجدوا من غلمانهم ، والا ففي نسائهم .

فدانت فارس لرستم قبل مجيء ابي عبيد ، ثم قدم المثنى الحيرة ، وأقام بها خمسة عشر يوماً ، ثم عرف ان جيشاً من الفرس ارسل لقتاله ، فخرج مع جنوده وجيش الفرس نازل في موضع يقال له النمارق ، وتهيأ لحربه .

وقبل ان يشهر السيف أقبل ابو عبيد ، فجعل المثنى على الخيـــل ، وعلى جناحي الجيش ، والق بن جيـدارة ، وعمرو بن الهيثم بن الصلت ، ثم هجمت صفوفه هجوم رجل واحد زعزع اركان الفرس فولوا الأدبار ، ولكن فرارهم لم يكن الى المدائن ، بل كان الى بلد يدعى « كسكر » فيه الامير نرسى ، نسيب كسرى ، فتبعهم أبو عبيد وهزم نرسي كما هزم الذين سبقوه الى الحرب ، ثم بعث رستم قائده جالنوس بجند كثير ، فكان نصيبه ، نصيب الذين تقدموه . أجل ، كان جنـــد المسلمين جنداً لا يغلب ، كان يحارب عن عقيدة راسخة ، واولئك يحاربون والذعر ملء القلوب .



هند

تقيم احياء بني طيء بين الحجاز والعراق، بالقرب من موضع يقال له ذو طلوع وتقيم بالقرب منها قبائل بني اسد وجديلة .

وطيء من القبائل الكبرى التي لهـا مقامها ومنزلتها بين قبائل العرب ، فيها الامراء الذي سادوا قومهم .وغير قومهم ، وفيها الفتيان النبلاء ، الذين يمنعون الجار ويدافعون عن الكرامات .

حاتم ، الجواد العربي المشهور ، وأياس بن قبيصة الذي كان عاملاً لكسرى على الحيرة وابنه ، قبيصة بن أياس ، وعدي بن حاتم الذي قرأت خبر اسلامه فيما تقدم ، جميعهم من طيء ، وجميعهم من سادة الناس ، ومن امرائها ، ابو زبيد الطائي فتى المكرمات ورجل الميادين .

ولم تكن طيء كلها قـد دخلت في الاسلام ، فقد كان بعضها مسلماً والبعض الآخر نصرانياً ، من هذا البعض أبو زبيد .

وللرجل ثلاثـــة اولاد زبيد وزياد وهند ، وهي أصغرهم ، وليس في طيء وجيرانها ، من جديلة وأسد ، فتاة أحسن وجهـاً من هند وأكرم خلقاً وأطيب عنصراً ، وهي في السنةالسادسةعشرة من العمر ، تعلمت من أبيها الكرم والجود، فقد كان ابو زبيد مثل معظم امراء قومه في بذلهم المال للضيف ولذوي الحاجات كما تعلمت منه ومن أخويها الشجاعة وطهارة الوجدان .

وكان أبو زبيد وبنوه عرباً ، بأشد ما في هذه اللفظة من قوة المعنى ، عرباً في اخلاقهم وحميتهم وشريف قصدهم ، يقصدهم الناس من القبائل المجاورة للاحتماء بهم من كيد عدو والاستعانة بحميتهم على دفع ظلم .

وقد عرفت طيء ، لابي زبيد واولاده هذه الخلال ، فاحترمتهم الاحترام كله كما تحترم الرعية ملكها، وسلم اليهم الفريق الكبير منها مقاليد الامور ، وعند ابي زبيد رجال يفدون مهجهم في سبيله ويتركون اطفالهم ونساءهم اذا اختارهم لأمر أو بذلهم لحرب .

وكانت لهند ، رصانة وحكمة يعترف لهـا بها اهل الحي من رجال ونساء ، حتى ان العجائز اللواتي هنّ أقدم سناً من جـدتها كن يصغين الى النصائح ، التي تجود بها عليهنّ ، وكان فتيان طيء ، ينظرون الى فتاة أبي زبيد نظرات الهيام والاعجاب وكل منهم يتمنى ان تكون له ، غير انهم كانوا يهابون ان يخـــاطبوا

اباها بأمر الزواج ، خوفاً من ان يُسمعهم ما لا يحبون ويردهم رداً قبيحاً هم بغنى عنه ، بل كانوا يهابون ان يذكروا ذلك أمام هند ، فهند لم يخفق فؤادها على حب ، ولم تكن من الفتيات ، اللواتي يسهل على شباب العرب أن يسألوها الرضى بالزواج.

وقد يكون هنالك مانع آخر ، هو منزلة ابيها من القوم ومقامه الرفيع بين امراء القبائل المنتشرين بين بادية العراق وذي طلوح .

اجل ، كان لابي زبيدة مقامه العالي في تلك الناحية من بلاد العرب ، وقد عرفته بكر وتغلب وضبيعة وغطفان وجديلة وأسد وجميع العشائر النازلة في نجد وفي البادية التي قرأت .

وكان معظم هذه القبائل قد اعتنق الاسلام ، أما الذين لم يعتنقوه فكانوا يدفعون الجزية على ما يريد خليفة المسلمين .

ومن عادة ابي زبيد ، ان يقضي في كل عام ثلاثة اشهر في الحيرة ، يشتري ويبيع النوق ، وكان له في عاصمة ملوك العراق منزل رحب كالمنزل الذي له في طيء ، تقيم به اسرته في الاشهر الثلاثة ، ويلجأ اليه كل عربي ضعيف .

وهكذا كان العربي الضعيف يلجأ الى منزل ابي زبيد في العشيرة ، وكان له أمام ذلك المنزل فناء تجتمع فيه العربان في ايام الصيف ، يجتمعون من كل قطر وكل جنس ، بينهم المسلم وغير المسلم ، ويتحدثون بذلك الدين الجديد الذي بزغت أنواره في الحجاز وجعل يمتد حتى رفع النبي وخليفته وصحابته لواءه ، في كل افق عربي .

نعم كان الاسلام حديث العرب في كل مجلس لها ، وكانت الحرب التي يخوض غمارها قواد المسلمين والتي تنتهي بالظفر باعثاً قوياً للحمية العربية في الصدور .

وكانت هند الفتية ، هند الكبيرة النفس ، الشريفة القصد ، الشجاعة القلب تقول لأبيها كلما شهدت مجلساً له :

أيطيب لك يامولاي ان يحمل زعماء العرب سيوفهم الى الميادين ، وتقيم انت بين مضارب طيء ، كأن أمر العرب لا يعنيك ؟

فيقول لها ابو زيد : اصبري يا هند حتى يرسل خليفة محمد قواه من جديد الى

هذا العراق الذي يخضع للاكاسرة المستبدين !

وصبرت هند .. غير ان نفسها كانت تتوق الى الميادين، ليس لتضرب لقومها الدف وتحرضهم على القتال كما كانت تفعل معظم نساء العرب في ذلك الزمان ، وكما تفعل نساء البادية في هذا الزمان ، بل لتقتحم الصفوف وراء ابيها واخويها، وهي تحمل لهم الماء والسهام وبعض عدة الحرب وتكون لهم عوناً على المفاجآت .

وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فالمرأة البدوية كانت تشبه الرجل في الرأي والشجاعة والشعر والادب والاقدام ، وقد نبغ بين مضارب العرب نساء كنّ مفخرة من مفاخر التاريخ العربي .

اجل ، كانت المرأة البدوية بعيدة الاثر في الحكمة والدهاء والحرب ، وكانت قوية الارادة ، راقية النفس ، شديدة الاحتمال في موقف الروع ، وقد ظلت على هذه الحال حتى نضجت المدنية وتحضر القوم ولجأوا الى اسباب الترف والرخاء.

وفي التاريخ طائفة كبيرة من نساء العرب ، اشتهرن بما يشتهر به الرجال ، من عظمة ورقي وطموح ودهاء ، ونقلت الكتب اخبارهن ، بروعتها وأثرها في النفس الى هذا الجيل .

وانّا ، ليطيب لنا ان نذكر لك بعض هؤلاء النساء ، لتنحني باحترام واجلال ، امام تلك الصفات العالية التي كانت لهن ، وتغذي النفس بما تقرأوه عنهن ، من أخبار التعقل والقوة ورقي النفس والادب .

نذكرهن لك ، لتجعلهن مثلاً لنفسك المتحضرة الراقية ، ونحن لا نتقيد بالمكان والزمان ...

٨

هذا تاريخ الانباط ، وقد قرأته جلياً واضحاً في رواية الحارث ، التي كانت الرواية الاخيرة قبل الاسلام .

لقد رأيت في تاريخ هذه الدولة ، انه كان للنساء فيها شأن يذكر لم نتبسط فيه ، وكانت خلدو وشقيلة ، زوجتا الحارث الرابع ، ملكتين بالفعل ، وقد شاركتا الحارث العظيم في ادارة الملك الواسع الذي كان له .

ونعتقد ، انك لم تنس شقيلة الثانية ، زوجة مالك الثاني ، ابن الحارث ، التي تولت الامر مع مالك خمساً وثلاثين سنة ، اي من السنة الاربعين ، الى السنة الخامسة والسبعين بعد المسيح .

وهنالك امرأة اخرى جلست مع زوجها على عرش بترا ، هي جميلة زوجة ريبال الثاني ابن مالك الذي ذكرناه .

وزينب ! زينب ملكة تدمر ! ألا تصغر في نظرك ، عند ذكر زينب ، نفوس الملوك الجبابرة ، والقواد الفاتحين ، ونوابغ الرجال والنساء منذ وجد التاريخ العربي الى اليوم ؟

ألم تكن زينب التي خلعت طاعة الرومان، ومدت رواق ملكها فوق مصر ، والعراق ، والشام ، وما بين النهرين واسيا الصغرى الى انقره ، امرأة عربية؟..

وهذه بلقيس الفتاة الجبارة ، التي وثبت الى العرش الحميري مستهينة بالاخطار والرجال ... لقد كانت عربية من حمير ، وكانت قدوة لقواد اليمن ، وأصحاب الرأي فيها في الدهاء والجرأة والصبر .

وفي التاريخ العربي نساء غيرهن ، كانت لهن الوجاهة والنفوذ والصوت البعيد ، كما كان لهن العقل الفريد ، والحكمة اللامعة ، والصلابة في العقيدة والايمان.

كانت ماء السماء بنت عوف ، صاحبة نفوذ غريب في ملك العراق ، وذات تأثير وسلطان نافذين في القوم ، حتى ان الاكاسرة كانوا يظهرون لها الاحترام ، ويخطبون ودها بالجواهر واللآلي . يرسلونها اليها مع الوفود والنواب .

وكانت عشيرتها ، جشم ، تفاخر العرب ان منها ماء السماء .

ومن نسلها كبار ملوك الحيرة ، وهم ينسبون اليها فيقال : « المنذر ابن ماء السماء . »

وهند بنت النعمان : اعقل نساء العراق ، واكثرهن فضلاً ، وابعدهن نظراً ،

والآن ... وانت تقرأ أخبار الانقلاب الاجتماعي العظيم الذي احدثه النبي العربي ﷺ ، افلا تجد أن زوجتيه ، خديجة بنت خويلد وعائشة بنت ابي بكر كانتا من النساء اللواتي تحتاج العرب الى رأيهن وتعترف بفضلهن ؟

لقد نشطت خديجة محمداً للقيام بالدعوة ، فهو لم يكن يسمع شيئاً يكرهه دون رد أو تكذيب ويخبرها به الا ثبتته وهونت عليه وخففت عنه وذلك كان دأبها حتى أغمض عينيها الموت .

واما عائشة ، فهي المرأة القوية الارادة الواسعة العقل ، الثابتة العزيمة ، في كل عمل وكل رأي ، وكان لها في صدر الاسلام ، التأثير الكبير في مجرى سياسته .

ولعائشة اخت تدعى اسماء ، ويقال لها ذات النطاقين وقد تزوجها الزبير بن العوام وستبدو لك الآن بين السطور التي تقرأ ، عظمة اسماء وعزتها وحزمها ، وهي بين ذراعي الموت .

حاصر الحجاج بن يوسف ، عبدالله بن الزبير في مكة ، حصاراً ضاقت له نفسه ، وفرق عنه اصحابه فأقبل يقول لأمه وكانت قد عميت :

« يا اماه ، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي الا اليسير ، والقوم « وهو يعني بني امية الذين يحاربونه » يعطونني ما اردت من الدنيا فما رأيك ؟ »

فقالت : انت اعلم بنفسك ، فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه اصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني امية وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد أنت ، اهلكت نفسك ومن قتل معك ، وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين ، لمَ خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ...

قال : يا اماه ، اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني ..

قالت : يا بني ان الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله .

فقبل رأسها وقال : هذا الرأي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله ،

فانظري يا اماه اني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر الى الله فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ولا عمـل بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في امان ولم يتعمد ظلم مسلم او معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بـل انكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي اللهم ، لا أقول هـذا تذكية لنفسي ولكني اقوله تعزية لامي حتى تسلو عني .

قالت: أرجو ان يكون عزائي فيك جميلاً ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى انظر الى ما يصير أمرك ..

قال : جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي .

قالت : لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم قالت :

اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل .. وذلك النحيب والظما في هواجر مكة والمدينة ، وبره بي وبأبيه ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فاثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين » .

تلك هي أسماء بنت أبي بكر وهذه هي كلماتها في أروع ساعـة من ساعات الحياة ..

وهنـالك امرأة اخرى أثبت عزيمة من ام عبد الله وأمتن خلقاً هي الخنساء الشاعرة وأي عربي لا يعرف الخنساء .

كانت قد أدركتها الشيخوخة في حرب العراق ، فلمـا تلاحمت السيوف في واقعة القادسية ، شهدت تلك الواقعة وسرها ان يقتل أبنـاؤها في سبيل الحق فأوصتهم بأن يشرفوا قومهم وحرضتهم على الثبات في الميدان .

وسعرت النار وقام الفرس والعرب يتنازعون السلطان .. فتقدم أبنـاء الخنساء واحداً بعد آخر ينشدون الرجز ويذكرون فيه وصيـة امهم حتى قتلوا جميعاً .

فلما بلغها الخبر ، قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم !!! ...

وهذه هند بنت عتبة : والدة معاوية بن ابي سفيان انها كانت ذات ثبـات ورأي ، وكانت ترافق زوجها الى الساحات التي يقاتل فيها المسلمون .

وقد شهدت واقعة « أحد » وهي تحرض الرجال ، ووراءها نساء قريش يضربن بالدفوف ، فلما أغمدت السيوف ، كان حمزة بن عبد المطلب ، عم النبي ، وهو من أعداء زوجها ، قد قتل ، فبقرت بطنه واستخرجت كبده فجعلت تلوكها تشفياً وانتقاماً .

وقد أسلمت يوم فتح النبي مكة كما مر .

واشتهرت من نساء الجاهلية وصدر الاسلام ، بالجرأة ورباطة الجأش ورحابة الصدر والثقة بالنفس ، ام حكيم بنت عبد المطلب ، وسفانة بنت حاتم طي ، وسلمى بنت عمر ، وعائشة بنت طلحة بن عبد الله ، وغيرهن .

كانت عائشة بنت طلحة ، ابنة ام كلثوم بنت ابي بكر ، وهي تشبه خالتها عائشة ، زوجة النبي ، من جميع النواحي .

وهي زوجة مصعب بن الزبير ، ولم يكن في نساء العرب ، أجمل منها خلقاً وأحسن وجهاً .

وكانت لثقتها بنفسها لا تحجب وجهها عن أحد من الناس .

فعاتبها مصعب في ذلك ، فقالت : « ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لأستره ، والله ما فيَّ وصمة يقدر ان يذكرني بها أحد .

وكانت تجالس الرجال تسمع لهم ويسمعون لها أحاديث الأدب والشعر ، ثم تنتقل من مجالس العلم الى ساحات السباق تشهد المباراة في الرمي ، ولها في كل ذلك هيبة ونفوذ في القوم .

وعرفت الشجاعة واقتحام الغمرات ، كبشة اخت عمر بن معديكرب ، فقد كانت بطلة كما كان عمر بطلاً ، وكانت تستهين بالخطر كما كان يستهين به ، ذلك الفارس العربي الجبار .

وكانت مثل كبشة ، خولة بنت الأزور ، اخت ضرار الكندي ، فقد رافقت أخاها الى الحرب يوم فتح المسلمون الشام وتحدثت بشجاعتها الرجال وملأت أخبار بطولتها جزيرة العرب .

وبكارة الهلالية الشاعرة النـــاثرة ، التي شهدت واقعة صفين مع علي بن ابي طالب ، فقد كانت تخوض المجال وهي تحرض الناس على جيش معاوية ، وترسل الكلام والشعر اللذين يوغران الصدور .

فلما انتهى أمر الحرب ، واستقامت الخلافة لمعاوية في الشام ، قالت في ذلك شعراً رددته أودية الحجاز وبادية الشام ، ولم يبرح الناس يرددونه الى هـــذا اليوم ، قالت :

قد كنت اطمع ان اموت ولا أرى فوق المنابر من أميـــة خاطبا
فالله أخر مـــدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل احمـد عائبا

وقد استقدمها معاوية اليه وهي في آخر العمر ، فذكر بعض الناس قولهـا وهي في المجلس ، فلم تخف ولم تعتذر ، بل قالت : « قلت اكثر من ذلك وهذا لا يمنعني من برّك » .

قال : وهل لك حاجة نقضيها لك .

فقالت : لا حاجة لي ، ثم انصرفت وهي أعز مما كانت .

وشهدت صفين مع بكارة ، امرأة أخرى هي الزرقـاء بنت عدي بن قيس ، وكانت خطبها وأقوالها تقع كالصواعق على رؤوس الأمويين ، ولما سألها معاوية بعد ذلـك ان تعيد عليه قولها ، أعادته على مسمع من رجـــال مشورته وهي لا تبالي به .

ولو أردنا ان نذكر جميع النساء اللواتي كن نساء في جمالهن ، ورجـــالاً في أفعالهن ، لجعلنا هذه الصفحات وصفاً للصفات العالية التي اشتهرن بهـا وذكرها المؤرخون .

* * *

كانت هند تشبه في صفاتها ، بعض هؤلاء النساء اللواتي ذكرنا لك اسماءهن ، وكانت حمية العرب تجيش في صدرها بدافع العاطفة الجنسية والاحساس القومي، وهي لم تتردد كما قرأت في اظهار هذه العاطفة لأبيها وأخويها ، بل لم تتردد في اظهارها ، لأولئك الأمراء والزعماء الذين يزورون أباها وينزلون ضيوفاً عليه .

وكان الأخوان زبيد وزياد ، يشعران بمثل ما تشعر به هند، ويسألان أباهما، بصفته عربياً ، ان يثبت وجوده لأبناء جنسه في الميادين ، ويأخذ حصته من الغنائم الكثيرة التي يغنمها اولئك الأبطال الظافرون .

وكان نبأ فتح الشام قد ملأ الأقطار ، والعرب في كل قطر تتغنى بذكر هذا الفتح ، وترسل وفودها الى امير المؤمنين تسأله ان يجعل لها نصيباً من شرف القتال في سبيل الإسلام .

ثم رأت القبائل النازلة في جوار العراق ، وفي العراق نفسه ، ان جيشاً جديداً بقيادة أبي عبيد بن مسعود ، زاحفاً الى ذلك القطر ومعه سليط بن قيس والمثنى بن حارثة وسعد بن عبيد وغيرهم من امراء الناس .

فلحقت جماعة منها بهذا الجيش الزاحف ، ومكثت الجماعات الأخرى في مضاربها تنتظر شبوب النار ..

ولكنها حال لا يطيقها ابو زبيد ! الناس من حوله ينفرون خفافاً وثقالاً الى الحرب ، وجيرانه : بنو أسد وبنو جديلة وغطفان وقيس ، يحملون السيف ويمشون الى الساحات وهو في مضاربه يسمع ويرى ولا ينقل قدماً !!

انه ضعف لا ترضاه له العرب ولا يرضاه لنفسه .

ففي مساء يوم وقد انصرف ضيوفه ولم يبق في منزله غير البعض من ابناء قومه ، دعا اليه اولاده الثلاثة وتقدمهم الى مضرب يقوم في طرف الحي وجلس وهو يقول :

سنذهب على عادتنا في هذا الشهر الى الحيرة فماذا ترون في أمر الحرب ؟ قل

يا زبيد اني اريد ان يذكر كل واحد منكم رأيه .

فقال زبيد : لو لم تكن لك رغبة في القتال لما خطر لك ان تذهب الى الحيرة في هذا العام .

– لماذا ؟

– لأن المسلمين والفرس سيجعلون الحيرة ، وما حولها من سهل وجبل وماء ، ميداناً للخيل وليس من الرأي ان نقيم بها ، وراء جدر البيت كما تقيم بعض النساء .

– ولكن كيف تريد ان نحمل السيف ، وقائد المسلمين ، ابو عبيد لم يدعنا الى حمله ؟!

– وهل تريد يا أبي وانت من سادة العرب ان يضع قائد المسلمين السيف في يدك ، ويسألك ان تكون عوناً له على الفرس ؟

– بل أريد ان يعلم هذا القائد ويعلم المثنى بن حارثة ، أن أبا زيد الطائي ، له منزلته في قومه .

قال : أتعرف أبا عبيد يا مولاي ؟

– لا ، بل أعرف المثنى وقد رأيته في الحيرة ، يوم بعثه ابو بكر خليفة محمد قائداً لجنده ، ثم رأيته ، بعد مجيء خالد بن الوليد الى العراق ، وبعد انصراف خالد الى الشام .

قال : يظهر انه لا يستطيع ان يندب الناس الى الحرب ، الا اذا أمره عمر ابن الخطاب .

قال : ليس لابن الخطاب ان يعرض لقائده في مثل هذا الأمر ، ألم تسمع ان رسل المسلمين أقبلت على القبائل التي تجاور طيئاً تدعوها الى القتال ؟

فسكت زبيد وهو يعد الجواب ..

فخاطب أبوه زياداً قائلاً : وانت ماذا تقول يا زياد ؟

– اذا كانت هذه رغبتك يا مولاي فخير لنا ولك ان نبقى في طيء ونترك الذهاب الى الحيرة الى العام المقبل ..

– أي أنه يجب ألا ندنو من ساحة القتال ..
– اجل ، كما انه يجب ان نتجاهل وجود الحرب ، ولتقل العرب ما تشاء ..
قالها وهو ينظر الى أخويه نظرة اليأس .
وكانت هند ساكتة ، فلما سمعت كلام زياد رفعت رأسها قائلة : أتأذن لي يا أبي في القول الآن ؟
– نعم .
قالت : يخيّل اليّ أنك لا تريد ان يكون لقومك ذكر بعد اليوم .
– وكيف ذلك ؟
قالت : تخوض العرب جميعها غمرات الموت في الميادين ، وتبقى انت في قومك ، ثم تسألني كيف ذلك ؟
– وهل تظنين يا هند اني أخاف الحرب ؟
– لا يا مولاي ، بل أعرف انك سيدها وحامل لواء الظفر في كل مجال ، ولكن هذا التردد الذي هو الضعف، سيلبس قومنا ثوب العار الى الابد، وستقول العرب بعد حين انك لم تشأ ان تهرق نقطة من دماء قومك في سبيل الشرف والمجد.
قال : ان الشرف الذي تذكرين يقوم في هذا الموقف ، الذي تسمينه تردداً او ضعفاً ...
ثم خفض صوته قائلاً : أتعلمين ماذا يقول قائد العرب عندما يراني مع قومي في الميدان ؟
– ماذا ؟
– سيقول : ان هذا الطائي الذي يدفع قومه الى الحرب ، دون ان أدعوه اليها ودون ان يكون لي في ذلك رأي ، يطمع بالغنائم ولا يبالي الا بنفسه .
– ولكنه هو نفسه ، يأخذ حصته مما ذكرت وليس في ذلك شيء من الذل يا مولاي ..
قال : انه يحارب ويأخذ ما يأخذه بأمر الخليفة ، اما انا فرجل عربي من طيء لم يخطر لرجال الحرب ان يستخدموا سيفي ، بل يخطر لهم ان يسألوا عني

وعن قومي ، وهذا ما يكرهني على التردد الذي لا أطيقه ، ولم أتعود مثـــله من قبل .

– ومـاذا تصنع اذن ، وقد أصبح أمراء العرب ، في هذا القطر جيشاً لأبي عبيد بن مسعود يحاربون تحت لوائه ؟

قال : لقد خبرني اليوم بعض الضيوف، ان قبيلتي النمر وتغلب، لم تشتركا في القتـال ، وان سيد النمر ، الذي يدعى انس بن هلال ، لم يرد ان يقود قومه الى الساحة خوفاً من ان يتهمه المسلمون ، بما أخاف انا ان يتهموني به .

– وأين تقيم القبيلتان ؟

– تقيم النمر بالعراق ، بالقرب من مكان يقال له عين أباغ ، من ناحية الشام ، وتقيم تغلب وراء الحيرة ، من ناحيـة الفرس ، وهي قريبة من دجلة وقد سمعت اليوم ان أمير النمر سيشاور امير تغلب ، وينظر الاثنان في أمر الحرب قبل ان يتهيأ الفرس لها من جديد :

فبرقت عيناها قائلة له : وهل يجهل الاميران ابا زيد الطائي ؟

– لا ، فلي مع الاثنين صحبة ، وبيني وبينهما عهود ولاء لا يغيرها الزمان .

– اذن ارجو الا تنفرد بالرأي يا مولاي .

– وماذا ترين ؟

- ارى ان تتشاوروا انتم الثلاثة ، ليكون لك عذر عند العرب بعد ان تخمد نار القتال ..

فابتسم قائلاً : لقد فكرت في هذا الامر منذ ساعة ولم أشأ ان امضي فيه قبل ان اطلعكم عليه ، أجل سأفعل هذا يا هند ، وسأرسل رسلي الى الاميرين ، عندما يبزغ الفجر .

– اتدعوهما اليك ؟

– نعم وهما لا يترددان في المجيء .

– ولكن الزمان سيمر يا مولاي .

– ليمر شهر ونحن متفقون ، خير من ان يمر الزمان كله ولا رأي لنا .

– ولكني اظن انهما لا يتركان القبيلتين في مثل هذه الايام ...
فضحك ثم قال: ان في القبيلتين رجالاً يمنعون عنهما العدو، اذا غاب الاميران.
قالت : لنفترض انهما لم يسلما بالاشتراك في الحرب ؟
– بل يسلمان بما يسلم به ابو زيد .. اني لا اريد يا بنية ان يفتح العراق وليس لي يد في فتحه ، ولكني اصبر ريثما يعرف القوم منزلتي ، ويرسلون رسلهم الى طيء ، كما ارسلوهم الى اسد وجديلة وعبس .
– وان لم يفعلوا ؟
– أعمد الى امر آخر هو اني اخوض المجال عندئذ مع قومي ولا أبالي .
فاشرق جبينها وقالت لاخويها : ان الشرف باق، وستبقى لطيء منزلتها بين العربان ان شاء الله .

فقال ابو زبيد : لم يخطر لي يا بنية ان اقف ازاء هـــذه الحرب مكتوف اليدين ، كما انــه لم يخطر لي ان اقيم بطيء حتى يندبني المسلمون للحرب ، ولكني رأيت الناس كلهم يترددون في حمل السيف ولا يمشون الى الميدان الا اذا دعاهم اليه المثنى او ابو عبيد فقام في ذهني ان القوم لا يريدون ان ينظروا اليّ كما ينظرون الى غيري من الامراء ...
– ولكنهم لا يعرفونك يا مولاي ليتعمدوا الاساءة اليك .
– قلت لك اني عرفت المثنى في الحيرة .
وهل تظن ان ذلك التعارف الذي جرى يكفي ليعلم الرجل من انت ويذكر في أي موضع يقيم قومك ؟
– لقد ذكر له الناس امري ويخيل الي انه لم ينس ما خبروه .
– اذن فانت ترى انهم يريدون ان يجرحوا كرامة طيء .
– أجل ، هذا ما اراه ، ولا يضمحل هذا الشك الذي تغلل في صدري الا عندما أرى رسلهم بين هذه الخيام .
– بل يضمحل الآن يا مولاي .
– ومن يستطيع ان يفعل ذلك ؟

– انا .. ! ولي في ذلك رأي .
قال : ماذا ؟
قالت : انك نصراني ، بين قبائل وامراء كثار ، اعتنقوا الاسلام ، أليس كذلك ؟ – بلى
– وقد رأيت ان جيش المسلمين لم يغز قوماً ، ولم يزحف الى بلد ، الا كتب له الظفر ..
– ومعنى ذلك ؟
قالت : أسألك سؤالاً واحداً قبل ان أجيب ، أتستطيع يا مولاي ان ترد جيش الخليفة اذا غزا طيئاً ؟
– لا .
– واذا أراد هذا الخليفة ان يمحو طيئاً من الوجود فمن يقدر على منعه وهو سيد الناس وقد خضعت له العرب ؟
– لا يقدر على ذلك غير الله ..
– اذن فلو اراد القوم ان يذلوك ، لطلبوا اليك ان تدخل مع قومك في دينهم ، ولم يقبلوا منك الجزية بل لو أرادوا ذلك لملأوا هذا السهل رجالا ، وأكرهوك على الامر الذي يريدون .
ثم قالت : انظر الى ملك الروم الذي تخفق اعلامه في البر والبحر ، والى جنوده المنتشرين ، كرمال الصحراء في كل ناحية من نواحي الارض .. انظر اليهم ، لقد ذلوا بعد عزهم ، وحطهم القضاء عن كراسي المجد ، ولو لم يلجأ الى الفرار ، من وجه الجيش الغازي الذي خرج فاتحاً من الحجاز ، لما بقي في هذا الشرق رومي .. ان جيش الخليفة لا يغلب يا مولاي ، وسترى بعد قليل ان عرش كسرى الذي رفعه الاكاسرة الى العلياء سيصبح موطئاً لحوافر الخيل ...
فتمتم أبو زبيدة قائلاً : صدقت يا هند ان هذا الجيش لا يغلب .
وكان قد رأى ان الحق فيما تقول وقد بدت على جبينه دلائل اللين والرضى .
فابتسمت قائلة : اتظن بعد يا مولاي ان القوم يتعمدون اهانتك ويرغبون عنك؟

فاطرق ولم يجب .

فقالت له : قل يا مولاي ، فنحن الآن ندرس الموقف ، ونتلمس الطريق الذي يجب ان نسير عليه ، بعد ايام .

فالتفت الى زبيد قائلاً : لقد غلبتنا هند يا بني .

قال : هذا ما كنت اريد ان اقوله لك يا مولاي .

ثم قال زياد : وعلى أي أمر عولت الآن ؟

– على أن أخوض المجال مع النمر وتغلب دون أن يدعوني القوم .

– اذن سنذهب الى الحيرة .

– اجل ، على ان نمكث بها بضعة ايام ثم نحمل السيف ، وسأبعث غداً بكتاب الى انس بن هلال ادعوه به الى المجيء مع امير تغلب .

فطابت نفس هند واطمأنت الى ذلك الوعد .

انها كانت تؤثر الذهاب الى الميدان لتغذي احساسها القومي .. وتحمل الماء والسهام لابطال العرب ، على ان تقيم مع امها في الحي تطعم الضيف وتحسن الى فقراء طيء تساعد الرعاة في حلب الغنم والنوق .

ورأت ان تمضي في حديثها الى النهاية ، فقالت :

بقيت لي حاجة يا مولاي .

قال : اذكريها فهي مقضية ..

قالت : اريد ان ارافق أبي وأخويَّ الى ساحة القتال .

فقطب حاجبيه قائلاً : انت ؟

– نعم أنا ، فاني لم اشهد الحرب ! وليست النساء اللواتي رافقن ازواجهن واخوتهن ، الى ميادين اليمن والشام ، اثبت جناناً من هند واشد احتمالا .

قال اراك تنظرين الى ساحات الوغى كما تنظرين الى سهل تتسابق فيه فرسان طيء !! .. ان الحرب يا بنية اعظم مما تظنين وتلك الساحة ، التي تتلاحم فيها السيوف ، وانت تريدين ان تذهبي اليها ، سوف تباع فيها الارواح وتتدحرج في معتركها الرؤوس عن الاجساد ...

قالت : رأيت كل ذلك يا مولاي .

– ومتى كان ذلك وأنت لم تخرجي من الحي !؟

– رأيته بعيني نفسي وانت تقص علينا اخبار حروبك .. ولمسته بيدي في الحكايات التي ترويها نساء العشيرة عن أزواجهن ..

– ولكنك لم تبصري الدماء تنفجر من الصدور ، والامعاء تخرج من الاحشاء .. والاجسام الجبارة تجعلها السيوف اشلاء ...

قلت : لقد كنت مثلي يا مولاي قبل ان ترافق اباك ، في أول غزوة له ...

قال : ان الذي يطيقه الرجال ، لا تطيقه النساء .

– اشعر ان في هذا الصدر قلب رجل ... !

– لا تصلح المرأة للحرب ، ولو كان لها قلب من الحديد .

– وهل تريد يا مولاي ان تكون خولة بنت الازور الكندي ، التي أبلت احسن البلاء في فتح الشام ، أثبت جناناً من ابنتك ، وانت انت ؟

قال : لقد ألفت خولة القتال مع قومها ، وعلمها اخوها ضرار ركوب الخيل ، وضرب السيف .

– وأنا قد تعلمت ما تقول يا مولاي ، ومع ذلك فليس غرضي ان اقتحم الصفوف ، بل ان ارافق اخوي في المجال ..

قال : اعلمي يا هند ان الوالد لا يعرف في الحرب ولده ، والأخ لا يذكر اخاه ، وعندما يرتفع غبارها وتشتعل نارها ينسى الانسان انه انسان ، وتتلاشى عاطفته كما يتلاشى الدخان في الفضاء .. وكيف تتبعين اخويك وهما لا يعرفان لها مجالاً ؟

ترين الفارس في القلب ، ثم ترينه في الجناح الأيمن ، ثم في الأيسر ، ثم تمر لحظة يحتجب بعدها الى الابد عن عيون الناس ولا يبقى له غير ذكر ضعيف تردده الشفاه ..

– ومع ذلك فأنا اريد ان ارى ما تصفه لي ، واقسم لك اني لا احمل سيفاً ، ولا اضرب ضربة .. ولكن تأذن لي ان اضرب لقومي الدف ، واحمل لهم الماء.

ثم قالت : هذه نساء المسلمين يتقدمن أزواجهن الى العراق وفيهن الاميرات صاحبات العز والشرف في العرب ... فمرني يا مولاي أكن بينهن ولا اجـــاوز المكان الذي يقمن به عندما تغير الخيل !

وقامت فقبلت رأسه وهي تقول : عدني يا ابي بأنك ستفعل ..

قال : ما تعودت ان أعد اليوم ، لأندم غداً ..

– ولكنك لن تندم يا مولاي ، بل ارى انــــك سترفع رأسك بين العرب وتقول : هذه هند بنت ابي زبيد الطائي تشارك قومها في طلب المجد ..

فحنى الوالد رأسه ، عند هذه الارادة الحديدية ، ثم رفعه قائلاً :

تذهبين معنا الى الحيرة ، ثم ننظر في الأمر بعد ذلك .

– بل تعدني الآن .

قال : لا اجسر على هذا .

– وماذا تخاف يا مولاي وأنا سأكون بين نساء المسلمين .

فهزّ رأسه وجعل يقول : أخاف ان يطيش سهم من سهام العرب أو الفرس، ثم يقع في هذا الصدر ،

وأشار الى صدرها .

قالت : يضمن زبيد حياتي ..!!

فقال : تضمن حياة اختك يا زبيد ؟

فتردد الفتى قليلاً ثم قال : نعم ، على ان تبقى مع النساء ولا تحمل السيف..

فابتسم لولده البطل الواثق بنفسه وقال : ان الرجـل الذي لا يستطيع ان يضمن حياته لا يستطيع ان يضمن حياة سواه ... ومع ذلك فقد وعدت ..

ونظر الى زياد قائلاً : وانت يا بني ، أتوافق هنداً فيما تسألني إياه ؟

– نعم يا مولاي ، فليس من الشرف ان تمكث بين مضارب الحي وبنـــات الأمراء يطفن بين صفوف الجيش .

– ولكن ماذا تصنع امك ؟

فقالت هند : انها راضية يا مولاي وقد حدثتها قبل اليوم .

فرفع عينيه ويديه الى العلاء ، وجعل يتمتم ألفاظ الدعاء ثم قال وشفتاه ترتجفان : احفظ اللهم اولادي الثلاثة الذي يجودون بأنفسهم في سبيل مجد العرب ..

واخذ يمسح الدموع التي تفجرت من عينيه ثم همّ بالنهوض ليعود الى مضربه ، فقالت هند :

ألا تقص علينا يا مولاي اخبار المثنى بن حارثة الذي عرفته ؟

– وماذا أقص من اخباره يا بنية ؟ ان المثنى بطل من ابطال المسلمين الذين يقل وجود مثلهم في هذه الأمة واذا كان جميع القواد الذين يسيّرهم الخليفة الى الأقطار ، يشبهون المثنى في بطولته واقتحامه الغمرات، فأعلامهم ستخفق فوق أسوار المدائن ، وفي كل بقعة من بقاع الروم .

قالت : وهل شهدت حرب خالد بن الوليد ؟

– لا ، ان خالداً كان يثب كالنمر من بلد الى آخر ، يغزو ويفتح ويحطم ويأخذ الجزية ، وقد سمعتهم يقولون : لم يقم في المسلمين قائد مثل خالد !..

– ولماذا عزله عمر بن الخطاب عن قيادة الجيش في الشام ؟

– لا أعرف لهذا العزل سبباً يا بنية ، فقد يكون هنالك سرٌ من أسرار الدولة لا يبوح به الخليفة لأحد من الناس .

قالت : ان نفسي تتوق الى رؤية هذا الخليفة كما تتوق الى رؤية الحرب ، ولا أعلم في أي يوم أستطيع ان أراه ..

– سترينه في العراق ، اذا خطر له ان يزور جيشه فيه .

قالت : كم مرة رأيته انت يا مولاي ؟

– كنت أراه في أسواق العرب قبل الاسلام ، فأرى الناس وهو أصغرهم سنّاً يحترمونه ويسمعون له ..

– وهل حدثته ؟

– لا ، فقد كنت فتى لا أعبأ بمثل هذا ولم يكن خليفة لأدنو منه وأحدثه وأسمع قوله ، وكنت كلما رأيت رجلاً من قريش ، تتنحى له الجماعة وتوسع له ،

اسأل عنه لأعرف من هو ...

– يقولون ان الخليفة ابا بكر ، كان ليناً حسن الابتسامة ، وهذا ، شديد غليظ يخافه الناس ولا يحبونه .

قال : ما سمعت قط ان غلظته وشدته تمنعانه من وضع الرحمة والعدل في موضعها .. يكفي عمر بن الخطاب انه يطوف في الليل مع رجل من رجاله ، ينصت تحت ستار الظلام الى كل زفرة من زفرات الفقراء ، وينظر والناس لا يعلمون في أمر البؤساء من العرب فيعطيهم ويكفيهم وهم لا يدرون من هو ذلك المحسن الذي تعهدهم بالمعروف .

نعم ، يقولون انه شديد ، ولكن خالك أبا عبد الله أثبت لي يوم قدم هذه الارض ، انه شديد في دينه ، لين في فضله . كبير في رحمته . عظيم في شعوره . وقد خبّرني نصراني كان في المدينة منذ شهرين ، قال :

سمعتهم في السوق يتحدثون بأمر عمر ويذكرون فضله وطوافه في الليل واحسانه الى المحتاجين وشدته على من لايطيع أمره، وذكر لي طائفة من الحكايات عنه أذكر منها اثنتين .

فاستوت جالسة وهي تقول : الاولى يا مولاي ؟

قال : كان عمر قد أمر مناديه فنادى ان لا يمزج اللبن بالماء ، فبينما هو يعس بالمدينة مع رجل يدعى أسلم أحس بالتعب ، فاتكأ في جوف الليل على جدار قائم في أحد الأحياء ، فاذا امرأة تقول لابنتها وهو يسمع :

قومي الى ذلك اللبن فامزجيه بالماء .

قالت : لا أفعل لأن عمر نهى عن ذلك ..

قالت : ولكنك في موضع لا يراك فيه عمر .. قومي فامزجيه .

فأجابتها قائلة : والله يا أماه ما كنت لأطيعه في الظاهر وأعصيه في السر .. والله لا أفعل ...

فهامس عمر عندئذ رفيقه قائلاً: يا أسلم، اعرف الموضع..ثم مضى في طوافه، فلما أصبح قال : امض يا أسلم الى الموضع فانظر من القائلة ..

فمضى الرجل ولم يلبث حتى عاد وهو يقول: انها جارية يا مولاي لا زوج لها .
فقام فدعا أولاده وقال لهم :
هل فيكم من يحتاج الى امرأة فأزوّجه ؟
فقال ولده عبد الله : لي زوجة .
وقال عبد الرحمن : لي زوجة .
وقال عاصم : يا أبتاه لا زوجة لي ، فزوجني .
فبعث عمر الى الجارية فزوّجها من ولده .
« وهي التي ولدت لعاصم بنتاً ، وولدت البنت ، عمر بن عبد العزيز »
فقال زياد : وعلي أي شيء يدل عمله يا مولاي .
– على بعد نظره في اختياره النساء لبنيه ، وعلى عطفه واحسانه ، الى من يطيعه من الرجال والنساء .
فقالت هند : والحكاية الثانية ؟
– اما الثانية ، فهي تدل على خلقه العالي ، والرحمة التي تملأ صدره ، اسمعي يا هند :
كان عمر يدور بين الاحياء في المدينة ، على عادته ، فبينا هو ، في رحبة من رحابها ، رأى بيتاً من شعر لم يكن مبنياً بالامس ؟ فدنا منه ، فسمع انين امرأة ورأى رجلاً قاعداً ، فسلم عليه ، ثم قال : من الرجل ؟
قال : رجل من أهل البادية . – ومتى قدمت ؟
– أتيت امس اصيب من فضل اميرنا عمر بن الخطاب .
قال : فما هذا الصوت الذي اسمع في البيت ؟
قال : انطلق رحمك الله لحاجتك .
– ولكني لا أنطلق حتى تقول لي ما هو ؟ قال : امرأة تمخض ..
– وهل عندها أحد ؟ قال : لا .
فانطلق عمر حتى أتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي : هل لك في اجر ساقه الله اليك ؟ قالت : وما هو ؟

قال : امرأة غريبة تمخض وليس عندها احد ! قالت : نعم ان شئت .

قـــال : خذي ما يصلح للمرأة في ولادتها ، وآتيني بوعاء أحمل فيه بعض الحاجات ، ففعلت ما أمرها به ، فقال : انطلقي الآن ..

ثم تقدمها ومشت خلفه حتى انتهى الى باب البيت فقال لهـــا : ادخلي الى المرأة فهي هنا .

واقبل على الرجل يقول له : أوقد لي ناراً ، ففعل ، فجعل النار تحت الوعاء حتى انضج ما فيه ...

وولدت المرأة ... فقالت ام كلثوم :

يا امير المؤمنين ، بشّر صاحبك بغلام ...

فلما سمع الاعرابي بأمير المؤمنين ، تنحى عنه واستولى عليه شيء من الخوف، فقال له عمر : مكانك كما انت .

ثم حمل الوعاء ووضعه على الباب قائلاً لامرأته :

شبعيها .. ففعلت ثم اخرجت الوعــاء ، فقام عمر فوضعه بين يدي الرجل، وقال : كـُل ويحك فانك قد سهرت الليل .

فأكل الاعرابي الفقير حتى شبع ، فقال عمر لأم كلثوم : اخرجي لنذهب ، ثم قال للرجل : اذهب الينا غداً نأمر لك بما يصلحك .

فذهب الرجل في صباح اليوم الثاني فأجازه وأعطاه ..

والتفت ابو زبيد عندئذ الى بنيه قائلاً لهم : هذه هي شدة عمر بن الخطــاب وتلك هي غلظته ...

فاطرقت هند وهي لا تقول كلمة .

فقال أبوها : ما الذي جرى لك يا بنية ؟

قالت : افكر فيما سمعت عن هذا الخليفة العظيم الساهر على رعيته ..

قال : سترى العرب من فضل عمر بن الخطاب ما لا تنساه .. ان الاسلام في ظله سيمد رواقه فوق كل فضاء .

ونهض قائلاً : قوموا الآن لنختار لنا رجلين نرسلهما الى انس بن هلال وابن الفهر التغلبي .

وتقدمهم الى مضرب كبير قائم في الساحة ، ودعا اليه بعض رجاله فاختار منهم اثنين وكتب الى كل امير كتاباً ، ثم اوصى الرجلين بما يجب ان يقولاه .
وقبل ان تذهب هند الى خبائها هامس زوجته سليمى بنت عمر العبسي قائلاً: أراضية انت بأن تذهب هند مع ابيها واخويها الى ساحة القتال في العراق ؟
قالت : وهل عولت على الاشتراك في الحرب ؟
– نعم وسأقود قومي اليها بعد ان يجيء الاميران اللذان كتبت اليهما الساعة.
قالت : ان النمر وتغلب قبيلتان نصرانيتان أليس كذلك ؟
– بلى ، فقولي لي أتأذنين لهند في الذهاب ؟
قالت : ما كنت لأمنع هنداً من هذا الشرف الذي تطوق به قومها ، نعم ، أذنت لها في الذهاب ولتفعل في العراق ما فعلته خولة بنت الازور في الشام ..!
فابتسم قائلاً : انهـــا مثالة تعلمتها هند من امها . فقم يا أبا زبيد ، وارفع رأسك تيهاً ، فقد اصبحت نساؤك اشد رغبة في الحرب ، من الرجال ..
وضحك ضحك الفخور المطمئن .. ولم يذهب الى فراشه الا عندما انتصف الليل ونام كل من في الحي ...
اما هند ، فكانت قد بدأت ترى امام عينيها اشباح الفرسان واشلاء القتلى تملأ الميدان ..

١٠

كان للمسلمين ، في ذلـك الزمن ، جيشان عظيمان يفتحان الاقطار للاسلام ، واحد في العراق ، والآخر في الشام ، كما قرأت ..
ما عدا تلك الجيوش الصغيرة ، التي تفرقت في كل اقليم ، لم يخضع اصحابه لسيد العرب ، خليفة النبي .
وقد مرّ بك ، ان جيش الشام ، ظفر بالروم ، في واقعة اليرموك ، فلجأ

الجيش الروماني بعد فشله ، الى دمشق وحمص ، واحتمى العدد الاكبر منه ، في بلد ، في نواحي الاردن ، يقال له فِحل « بكسر الفاء » .

ثم بلغ الخبر ابا عبيدة ، وانتهى اليه ، من ناحية اخرى : ان جيشاً رومانياً آخر ، بعث به هرقل ملك الروم ، مدداً لأصحابه في دمشق .

فتحير القائد الظافر في الأمر ، ولم يدرِ أيبدأ بدمشق أم بفحل .

فكتب في ذلك الى الخليفة، وأقام ينتظر الجواب، في موضع يدعى الصفر، ولم يمكث طويلاً حتى ورد الجواب وقد جاء فيه :

ابدأ بدمشق فانهـــا حصن الشام وبيت ملكهم ، وأشغل اهل فحل بخيل تكون بازائهم ،فاذا فتحت دمشق فسر الى فحل، فاذا فتحت فحل، فسر انت وخالد الى حمص واترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص في فلسطين والاردن.

فامتثل ابو عبيدة امر امـــير المؤمنين وأرسل الى فحل عشرة قواد معهم الرؤساء والابطال الذين خبروا الحرب .

ونزل هؤلاء بالقرب من البلد ، فلما ابصر الروم جيش المسلمين ارسلوا الميــاه حول فحل ، فأصبحت الأرض وحلاً تغرق فيها الرجال والخيل .

وكان في فحل ثمانون الفاً ، يحصرهم المسلمون من الجهات الاربع .

ثم بعث ابو عبيدة ، قائداً يدعى ذا الكلاع ، وامره بان يقيم مع جيشه، بين دمشق وحمص ، خوفاً من ان يجعل هرقل ، جيشاً آخر ، مدداً لأهل دمشق .

وبعث علقمة بن حكيم ورجلاً آخر اسمه مسروق لينزلا بين دمشق وفلسطين، منعاً للمدد الذي قد يجيء من تلك الناحية .

وتلك حكمة حربية أراد قواد المسلمين المجربون ان يتم لهم بها النصر على العدو النازل في كل بقعة من أرض الشام .

وكان أبو عبيدة يستشير خالداً في كل خطوة يخطوها الجيش ، فخـــالد من القواد الذين لا تجود بمثلهم الأقدار في كل زمان .

ولولا أمر عمر بن الخطاب بتولية أبي عبيدة ، لكان خالد في جيش الاسلام مرجع كل طلب ومرجع كل أمر .

وكان القوم في كل مجـالسهم يتحدثون بأمر عزله عن القيادة ، ويذكرون لذلك العزل اسباباً جعلهـا أمير المؤمنين عذراً له .. كانوا يقولون : ان عمر كان ساخطاً على القائد الكبير لقتله مالك بن نويرة في أيام ابي بكر . وقالوا : ان خالداً فيه تبذير للمال ، مال المسلمين، يعطي الشاعر اذا مدحه .. ويعطي المجاهد والفارس ، بين يديه فوق ما يستحقان ، ولا يبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفـائهم شيئاً . وهذا ما لا يريده عمر بن الخطاب .

ويقول مفتي مكة احمد دحلان في الجزء الاول من كتـابه ، ان ذلك التبذير الذي جعله ابن الخطاب عذراً له في أمر العزل كان اجتهاداً .

كما كان جود خالد وبذله المال اجتهاداً ، لم يرد به الا الحق .

فلما أتمّ أبوعبيدة كل شيء، مشى مع قواده الى دمشق يضربون عليها الحصار، ابو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو بن العـاص على ناحية ويزيد بن ابي سفيان على ناحية ، فأمسى اهل دمشق داخل الجدر والأسوار ليس لهم ملجأ الا هرقل يبعث اليهم بالجنود من حمص .

ولم يتردد هرقل في ذلك، فقد أرسل الى دمشق جنوداً تحتل مواقف المسلمين وتكون للرومان سوراً آخر يرد هجوم الأعداء .

غير ان القائد ذا الكلاع ، النـــازل على بعد ليلة من دمشق ، تصدى للجند الرومي وردّه بقوة السيف عن الوصول الى الموضع الذي أراد .

ومكث المسلمون حول دمشق سبعين ليلة يحاربون الروم بالمجانيق، ويحصرونهم بشدة وعنف حتى خاب رجاء اهل دمشق ، وضيعوا آخر أمل لهم بالدفاع ..

وكان خالد بن الوليد ، الجبار ، قد ملّ الحرب من وراء الاسوار .. لقد كان يريد ان ينازل عدوّه بالسيف ، ويبــارز فرسان الروم ، وهم في عقر دارهم ، ليثبت للعالم كله، ان هؤلاء الفرسان الذين دوّخوا الارض لايستطيعون ان يثبتوا في وجه الفاتح العربي .

أجل، كان خالد الذي لا ينام، ولا يأذن لجيشه في النوم، الا كما ينام الذئب ، قد ملّ موقفه ، وهو في نظره ، موقف خمول ، وخطر له ان يصعد الى السور ،

ثم يثب الى الداخل ... وهو خاطر لا يخطر الا للقائد الجبار الواثق بنفسه .

فأعدّ الحبال لأجل غايته ، ونهض عندما جنّ الليل ، مع القعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي وغيرهما من أصحابه ، وأثبتوا حبالهم بالسور ، ثم صعدوا لا يبالون بالخطر الذي قد يدهمهم من الأمام .

وكان ذلك الموضع ، أحصن المواضع في دمشق ، وأكثرها ماءً .

وقد أوصى رجاله بان يحموه ، وأمرهم بأن يعمد بعضهم الى الباب ، والبعض الآخر الى الحبال ، عندما يسمعون التكبير .

ثم ارتفعت بعد ذلك في هدوء الليل أصوات تقول : الله اكبر .

فتزاحم المسلمون ، يريدون باب السور والحبال ، ووثب خالد ومنَ معه الى الداخل يحصدون بالسيف ، الحراس القائمين عند الجدار حتى انتهوا الى الباب ففتحوه ، وقد سالت حوله دماء القوم ..

واستيقظ الروم من غفلتهم في تلك الساعة ، فرأوا ذلك الباب قد فتح ودخل المسلمون منه .

فلم يبقَ لهم الا ان يلجأوا الى ابي عبيدة ، فقصدوا الباب الذي يقيم عنده وبذلوا له الصلح .

فرضي بذلك ، ثم سألوه ان يدخل معهم فيمنعهم من أهل الجانب الآخر ، وهم يعنون خالداً وجماعته .

ولم يدرِ ابو عبيدة ان خالداً دخل عنوة .

وفي الوقت نفسه دخل عمرو بن العاص ، من ناحيته ، ويزيد بن ابي سفيان من ناحيته ، دخلا صلحاً كما دخل قائدهما الاكبر ، وهما مثله ، لا يعلمان بما صنعه ابن الوليد .

والتقى القائدان ، خالد وأبو عبيدة ، في وسط المدينة فأمر ابو عبيدة خالداً بان يكف عن القتال ، وكان يقول :

اغمدوا السيوف فقد صالحت القوم .

فقال خالد : ولكني دخلت فاتحاً .

فتنازعا في ذلك ، ثم انتهى الامر بينهما ، بأن أجروا ناحية خالد ، مجرى الصلح على ان يتقاسم القواد والجنود ما غنموه ، وهكذا فعلوا .

ثم كتب ابو عبيدة الى امير المؤمنين يخبره بالفتح .

فسرّ عمر وأهل المدينة ، سروراً لم يكن لهم مثله من قبل ، وكتب ابن الخطاب الى قائده يقول له:

ارسل الى العراق ، اولئك الجنود الذين قدموا الشام مع خالد ابن الوليد ، وامض في أمرك ..

فأعاد ابو عبيدة جنود العراق كما أمره الخليفة وجعل هاشم بن عتبة ، بن أبي وقاص ، قائداً لهم ، وعلى مقدمة الجند القعقاع بن عمرو ، وعلى الجناحين عمرو بن مالك الزهري وربعي بن عامر .

١١

قبيلة النمر ، من قبائل العرب المعروفة في باديتي العراق والشام وبين القبائل النازلة على شاطىء دجلة .

وقد امتدت شهرتها الى ما يجاوز العراق من عشائر واحياء ، فعرفتها غطفان وعبس وأسد ، وكان لها في احياء بني طيء المقام الذي تستحقه شجاعة رجالها المغاوير .

كذلك كان بنو تغلب . رجالهم رجال بأس وحرب ، وقد اعترفت لهم الميادين بأنهم سادتها يوم تصطدم الخيل .

وكان سيدهم ابن الفهر التغلبي ويقال له عبد الله ، وسيد النمر انس بن هلال ، وقد مر ذكر الاثنين .

ولأنس ولدان ، اكبرهما المنذر ، والآخر فتاة تدعى الزهراء ، هـو في العشرين من عمره وهي في الثامنة عشرة .

والزهراء آية في الجمال ، جمال الوجه وجمال الخلق ، وقد أمسى جمالها مثلاً ، حتى ان القبائل النازلة على الشاطىء كانت تدعوها « حسناء النمر » .

اما المنذر فقد وهب له الله من الحسن مثل ما وهب لأخته ، وأعطاه من المروءة والجرأة ورباطة الجأش ما لم يعط سواه من شبان قومه .

أضف الى ذلك انه كان جواداً لا يرد فقيراً ولا يبخل على سائل ، وكان شجاعاً غازياً يقتحم بفرسه الجيش ولا يبالي .

وكثيراً ما كان ابوه ينهاه عن المغامرات ويوصي زعماء العشيرة بأن يكونوا حرساً له اذا ساروا الى غزو او صيد وهو لا ينثني ولا يخشى الاخطار .

وكان أنس قد سلـّم اليه معظم الامور في النمر ، يعطي ويمنع ويأمر وينهى ، ويتصرف بالغنائم كأنها ملك له لاينازع فيه .

على انه كان حكيماً وداهية في العطاء ، يأخذ هو وابوه كما يأخذ الامراء ، ويجود على أفراد الجند كما يجود على ابناء عمه .

فأحبته العشيرة كما أحبت أباه وجعلته سيداً لها بعد أنس ، ترجع اليه اذا غاب أبوه في جميع الشؤون .

ولم يكن للمنذر عدوٌ في قومه .. بلى ، ان له في النمر عدواً لا يحبه ولا يطيق ان ينظر اليه ، هو ابن عمه كليب بن خالد ، الحسود الغدار .

يرجع امر هذا البغض الى سببين : اولهما ، ان كليباً أراد ان يتزوج الزهراء ويزف اخته كبشة الى المنذر ، فرفضت الزهراء ورفض المنذر ، وكان هذا الرفض طعنة في صدر كليب .

اما السبب الآخر ، فحسدٌ دبّ في الصدر وتأججت ناره بعد تلك الطعنة التي اصابت عزته وكرامته ، فكاد جسمه يذوب من حسده وهو يرى انه لا يستطيع ان يمد الاذى الى ابن عمه .. !

كان يرى الزهراء كل يوم ، فيذكر ذلك الغرام الذي امسى حقداً ، ويرى الناس يروحون ويجيئون في مضارب المنذر فتصغر نفسه ثم يغمرها البغض .. ! ثم تثور .. !

هكذا كان ابوه خالد في حيـــاته .. كان يحسد اخاه على نعمته ونفوذه وسلطانه ويلعن القدر الذي هيأ لأخيه أسباب السلطة والجاه .

ولم يكن له في ذلك عذر ، بلى ، كان عذره تلك الاخلاق الصغيرة التي لا تطيق ان ترى الناس متمتعين بالنعم والعز .

ومات خالد ونار الحسد تتقد في صدره وتحرق فؤاده ولم ينظر عند مــوته نظرة رضى الا الى ولده كليب الذي كان واثقاً بأنـــه سيكون خير خلف لخير سلف .

والحسود جبان في كل مواقفه وفي جميع أدواره ، فكليب لم يكن يجسر على اظهار عاطفة الحقد ، بل لم يكن يجسر على الظهور بمظهر الثأر خوفاً من ذلك الجزاء الرهيب الذي هو الموت .

لاجل ذلك كنت تراه ضاحكاً لعمه ، باشّاً لوالديه لا يتردد في الطاعة ولا يظهر الا الخضوع ..!

ولكن ، كانت له وراء ذلك المظهر الكاذب فكرة هائلة هي القضاء على المنذر ، في ساعة تغفل فيها عين الزمان وعيون أبناء العشيرة الذين كانوا جميعهم حراساً له .. فيقوم في ذهن عمه انس ان الاقدار كانت الجانية ..!

ولا يبقى بعد ذلك الا ان يجعله عمه ولداً له ، وخلفاً له في الامارة ، فتمسي الزهراء والنمر عندئذ ملكاً له .

تلك كانت فكرة كليب النبيلة ! وقـــد نضجت في دمـــاغه نضجاً يستلذ التفكير فيه ، وهو لا يصدق متى يجـود عليه الزمان بتلك الساعة الرهيبة التي تبسم له فيها الحياة ...

ولم يكن في العشيرة من يعرف شيئاً عن فكرته ، كانوا يعرفون ان ذلـــك الطلب طلب الزواج الذي انتهى بالرفض قد زال أثره من صدره ، وان ذلـــك العيش الهنيء الهادىء الذي يعيشه مع انس والمنذر معناه الخضوع الذي لا غش فيه

حتى ان المنذر نفسه كان يثق به الوثوق كله ، وقد جعله شريكاً له في قيادة العشيرة ، الى الغزو .

بل جعله أميناً لسره ورفيقاً له في لهوه وصيده وحربه فكان الناس يقولون: كليب والمنذر اخوان !

وقد اصابوا في قولهم من ناحية المنذر فقد كان يحب ابن عمه وشقيقته كما يحب الزهراء ولم يكن رفضه الزواج الا لان الزواج لم يخطر له .

ومثلما كان المنذر كانت الزهراء فهي قد أبت ان تتزوج كليباً لانها لم تكن لتشعر بشيء من الحب له ..

١٢

دخل المنذر مضرب أبيه في مساء يوم كثرت فيه ضيوف النمر من القبائل المجاورة يتحدثون بأمر الحرب .

وكان في مضرب انس شيوخ النمر وزعماؤها ، بينهم كليب بن خالد، وكانت الحرب من رأيه ...

فقال المنذر لأبيه : في دار الاضياف رجل يقول انه رسول ابي زبيد الطائي وقد وصل الآن .

فأشرق جبينه قائلاً : رسول ابي زبيد الشجاع الجواد .. ان ابا زبيد خير الأصدقاء والأعوان .. أين هو رسوله ؟

فخرج المنذر ، ثم عاد ووراءه ذلك الطائي .

فقال انس : اهلا برسول ابي زبيد .. ماذا تحمل ؟

– أحمل رسالة يا مولاي .

وناوله اياها .. فاخذها ثم دفعها الى كليب ابن اخيه وقال له : إقرأ يا كليب .

فقرأ : من ابي زبيد الطائي ، الى سيد النمر انس بن هلال .

تمنعني من القدوم اليك موانع كثيرة لا استطيع الان ان اذكرها لك فأرجو ان تتعجل انت في المجيء الى طيء ففي الصدر اشياء اريد ان اقولها لك .

فقال انس : ما اسمك ايها الفتى ؟

– ربيعة .

قال : الا يريد مولاك يا ربيعة ان يحدثنا بشأن الحرب في العراق ؟

– لا اعلم ، فقد يكون هنالك غرض آخر له ..

– ولكن الا تعلم رأي ابي زبيد في هذه الحرب ؟

– ليس لي ان اعلم شيئاً من هذا ايهاالأمير ، اني رجل ارعى النوق في الخلاء، من الصبح الى المساء ، ولا تخطر لي هـــذه الحروب الا عندما يقول لي مولاي : احمل السيف فاحمله وانا لا ادري الى اين ...!

فبدت على وجه الامير دلائل الاعجاب وقال : بارك الله في طيء وفي اميرها مثلك تكون العرب .. ولكن ألم يقل لك مولاك شيئاً تقوله لي ؟

– كلمة واحدة امرني بأن اقولها لك هي انه ارسل رسالة مثل هـــذه الى الامير عبد الله بن الفهر التغلبي .

قال : لقد عرفت الان .. انه يريد ان ننظر في هذا الامر الذي يجري في العراق بين المسلمين والفرس .. خذوا ربيعة الى دار الاضياف ..

وهذا معناه انه سيخاطب قومه بالامر الذي قدم ربيعة من اجله .

فلما انصرف الطائي قال لمن حضر : مثلما تتحدثون أنتم بشأن هذه الحرب ، تتحدث جميع القبائل .. ماذا ترون الآن؟ اتمكثون على هذا الشاطىء ام تسيرون الى الميادين التي تشرف الرجال ؟

فقالوا نسير اذا سرت ، ونبقى اذا بقيت .

اما كليب فقال : اذا اراد عمي ان اذكر له رأيي الآن ، فعلت .

قال : هات .

قال : اخشى ان تذهب العرب جميعها الى ساحات القتال ونبقى نحن .

فالتفت الى المنذر قائلاً : وانت ؟

– الحرب بما فيها من الشرف ، والغنائم خير من الحياد .

قال : هذا دم الشباب .. وانتم ايها الزعماء ؟

فلم يشأ احدهم ان يبدي رأيه في الأمر .

فقال : يظهر انكم تؤثرون الاقامة بين المضارب على ان تنازلوا عدواً .

فقال احدهم: بل نؤثر الحرب، في جميع المواقف كما تعلم ونحن رجال الامير نمشي وراءه الى حيث يشاء .

قال : خير الآراء ان نذهب الى بني طيء لنسمع رأي ابي زبيد .

فقال المنذر : بل خير لنا ان ننتظر قدوم عبدالله بن الفهر فهو من النصارى مثلنا وله في ذلك رأي .

– اصبت يا بني ، وانا ارى ان الأمر سينتهي بنا الى خوض المجال .. ارسلوا رجلاً يستعجل عبد الله .. فنحن لا نسير الى بني طيء الا اذا كان معنا .

قال : وتذهبان انتما الاثنين دون ان ترافقكما الرجال من العشيرتين ؟

قال : يخيل الي انك تريد الذهاب ..

– أجل ، فأنا لا أعرف احداً من طيء وقد قيل لي ان بلادهم بلاد خير وخصب .

قال : طب نفساً فسترافق اباك ان شاء الله .

فقال كليب : وانا يا عم ؟

– وستذهب انت. ثم ابتسم قائلاً : ولكني اخشى ان تكون هذه الرغبة في السفر لغرض آخر ...

فقال المنذر : وماذا يكون غرضنا في طيء يا مولاي ؟

– ان في ذلك الحي حسان العرب ... ولأبي زبيد فتاة هي فتنة القلوب ، واسمها هند ..

فنظر كليب الى المنذر نظرة لمعت لها عيناه ببارق غريب ...

اما المنذر فقال : لم افكر في الحسان بعد يا مولاي وانا لا اعرف هنداً ...

– وانا ايضاً لا اعرفها ولكنها وصفت لي .. ومع ذلك فسنراها وأخاف ان تفكر عندئذ في الزواج .

قال : لا يخطر لي الآن غير الحرب يا مولاي .

فقال كليب : من يعلم فقد تصيدك هند وتنسى الحرب ...

فأدرك المنذر غايته فقال : اقسم برأس ابي اني لا اتزوج الا بعد ان تنتهي حرب الفرس ...

قال : لا تحلف يا منذر فقد يوجد الزمان غداً ما تظن انه غير موجود ...

قال : لقد حلفت الآن وسترى .

قال : اشهدوا ايها القوم ...

وكان يظهر المزاح

فقال ، لا تشهد احداً فمتى قال المنذر كلمة كانت عهداً ..

فقال ابوه ، تقول هذا يا بني لانك خلي . ولكن احذر ذلك السلطان الذي يسمونه الحب ، فهو سلطان جائر لا يلين ..

– ليزحف الي بجنوده فأنا لا أبالي.. ومع ذلك فانا لم أعرض للحب في قسمي بل عنيت الزواج ..

– وانت ماذا تقول في الحب يا كليب ؟

– لقد خبرت الحب يا مولاي ، وذقت جوره ، واني لا استطيع ان انسى هذا الجور ..

– ولكني اراك ناسياً ..

فاستدرك الفتى قائلاً ، اردت ان أصف لك يا عم جور هذا السلطان كما اردت انت ان تصفه للمنذر .. وضحك ، كأن كلمته لم تكن عن قصد ..

وضحك القوم الا العشاق منهم ، فكانوا يهزأون في سرهم بابن اميرهم الذي كان يظن ان الدنيا كلها سيف وغزو .

وباتوا يتحدثون حتى دب النعاس في الجفون فانصرفوا الى مضاربهم ، وبعضهم يقول للبعض الآخر ، ستجتمع العرب كلها في العراق فيظهر ان ساعة الفرس قد دنت ..

وكان انس قد أوصى ولده بأن يحسن الى رسول ابي زبيدة ويسأله البقاء في الحي ريثما يجيء عبد الله بن الفهر .

١٣

لم يتردد امير تغلب، في السفر الى احياء طيء عندما انتهت اليه رسالة ابي زبيد وكان الرسول قد خبّره ان له رفيقاً في بني النمر ، جاء يحمل رسالة الى انس ابن هلال كالرسالة التي حملها هو اليه.

فقال له ، لقد أرسل الي انس رسوله في ذلك ، وسنمر بالنمر ونحن ذاهبون الى طيء .

وهكذا فعل ، وكان انس وولده وابن اخيه قد تهيأوا للرحيل ، فلما اقبل عبد الله مكثوا بالحي بضعة ايام ثم مشوا يريدون طيئاً ، وكليب بن خالد يفكر في هند الحسنا، التي وصفها عمه .

لم تكن غايته ان يتعشق هنداً، فعاطفة الحب ماتت في صدره ، ولكنه كان يخشى ان يتعشقها المنذر فيجرحه في ذلك جرحين ، ثم هو لا يستطيع بعد ذلك الا ان يثأر بغرامه الضائع وكرامته الجريحة ، وهذا الثأر لا يتم الا بموت المنذر فالويل للمنذر المتكبر المستخف ..!

أما المنذر فكان يفكر في الحرب ، وفي ذلك المجد الذي ينتظره اذا هو جاهد فيها جهاد الابطال المسلمين ، وكان القوم اثني عشر رجلاً مع الرسولين ، انس والمنذر وكليب ومعهم عبدان ، وعبد الله بن الفهر وأخوه وخاله واثنان من خدمهم ، وقد وصلوا الى طيء بعد ثمانية أيام ، فلما أقبلوا كان أبو زبيد وأولاده الثلاثة على أفراسهم يتسابقون مع بعض فرسان الحي .

وميدان السباق وراء الخيام .. فأقبل عبد من عبيد الامير يقول لمولاه : الاضياف يامولاي !

وأبو زبيد على فرسه فقال : انزلوهم وانحروا لهم الجزور ... اذهب وافعل ما أمرتك به ... ثم استوقفه قائلاً : ويلك ممن هم ، فأجابه العبد قائلاً : وهل تأذن لعبيدك يا مولاي أن يسألوا أضيافك من أي قوم هم ؟!

قال : وعددهم ؟

– عشرة يا مولاي ، بينهم العبيد ، ومعهم ربيعة وعدي اللذان لا أعلم الى أي بلاد بعثتها .. فقال عندئذ لاولاده وفرسان الحي : الى المضارب ، فهؤلاء أمراء النمر وتغلب ، وركض فرسه وجرى الفرسان وراءه ، الا هنداً فانها لم تشأ الا ان تسير مع أبيها جنباً الى جنب ، وكان الضيوف في تلك الساعة ، في ذلك المضرب الكبير مضرب الضيافة ، الذي يغطي ساحة كبيرة من ساحات بني طيء ، فلما وصل أبو زبيد ترجل ووثب الى الداخل وفعلت هند مثله ، ثم تبعها زبيد وزياد ومن تبعها من القوم . وتعانق الامراء عناقاً طويلاً ظهرت فيه عاطفة الحب والولاء ، ثم سمى أبو زبيد أولاده ، وسمى انس بن هلال ولده وابن أخيه وعرّفهم عبدالله بن الفهر بأخيه وخاله ... ثم جلسوا ، وقد تمّ التعارف ، وجعلت العيون تتعارف من جديد ، وكان المنذر قد ابصر هنداً ، فذكر عندئذ كلام أبيه ثم رأى ان تينك العينين السوداوين بما فيهما من عذوبة وسحر ، لا يستطيع ابوه ، بل لا يستطيع الشاعر العربي ان يصف الفتنة المنبعثة منها ، كما انه رأى في ذلك الجبين الزاهي الوضاح ، وفي ذلك الثغر الذي تغمره الابتسامة البريئة قوة ذلك « السلطان القاسي » الذي يجور على القلوب ... وأحس في تلك اللحظة ، بعاطفة غريبة لم يكن له بها عهد .. وشعور جديد فياض باللذة ، يخفق له القلب .. لقد جاء الحب الذي كان يهزأ به ذلك النمري .. وفاجأته قوته الجبارة التي لا تغلب ، في اللحظة الاولى التي وضع فيها قدمه في ارض طيء ، أجل أقبل ذلك السلطان المستبد يحمل سيفاً من الفولاذ ، وتخفق فوق رأسه اعلام العظمة والفتح ! .. وهذه آثار فتحه في قلب المنذر ، قشعريرة تتمشى مع دمه ، وخفقان يضطرب له احساسه ، وعذوبة تغمر نفسه ...

مسكين هذا الامير الفتى ، لقد أراد في اللحظة الاولى ان يثبت امام التيار ترسله عينا هند فأغرقه ذلك التيار في لجة بعيدة الغور ولم يستفق الا على امواج يتخبط في غمارها العجاج .. على ان له في ذلك عزاء ، هو ان هنداً وقعت في شرك الغرام كما وقع هو ، وقد عرف ذلك من نظراتها الحاملة شعاع الحب .. اجل ، كانت هند قد فتنها جماله ومظهر نبالته وعظمة نفسه ، وأيقنت بأنها قد

خلقت له ..

والتقى النظران يتراسلان بتلك اللغة الخفية العذبة لغة الشعور .. غير ان هنالك عينين أخريين كانتا تنظران اليهما نظرات فيها النار .. هما عينا كليب .. وقد وثق في تلك الساعة بأن ذلك الأمر الذي كان يخشاه قد تم ، ولم يبق له الا ان يتحفز للوثوب عندما تغفل الاقدار .

وكان الامراء قد بدأوا يتحادثون ، فقال انس لأبي زبيد ، لقد قدمنا بلاد طيء ونحن نعلم ما هي الغاية من هذه الدعوة ، قال : ما هي ؟

– هي الحرب التي تزحف العرب الى ساحاتها من كل بلد ..

– أصبت والله انها هذه الحرب .. وقد اردت ان ننظر في امرها مجتمعين ، قبل ان ينتهي هذا الامر .

– وماذا رأيت ؟

– ليس لي الان رأي ، قولوا انتم .

– ماذا يا عبد الله ؟

فقال ابن الفهر ، ألم يقل لكم الضيوف من العرب ان نساء المسلمين يتبعن اهلهن الى الميادين في الشام والعراق ..

فقال ابو زبيد ، بلى ففي كل جيش طائفة من النساء تساعد الرجال في الحرب.

– اذن فنساء المسلمين خير من رجال النمر وتغلب وطيء ..

– تريد ان تقول انه لم يبق في الاحياء غير من ذكرت ؟

– اجل ، فالناس يسيرون جماعات .. يشرفون قومهم ويغنمون الغنائم ويخلدون ذكرى العرب ، ونحن نرعى النوق !!.

– ولكن اولئك لا ينقلون قدماً الا اذا اتتهم رسل الخليفة يندبونهم باسمه للقتال ، ويسألونهم ان يكونوا عوناً لاخوانهم .

قال : لم يندب الخليفة غير اهل الحجاز ..

– وهل انت واثق بهذا ؟

– لقد ذكر لي ذلك اهل الحيرة انفسهم ..

– اما انا فقد خبروني غير ذلك ، واثبتوا لي ان جميع القبائل التي تقيم بين الحجاز والعراق دعيت كلها الى حمل السيف .

ـ لو كان هذا صحيحاً لدعيت طيء .

قال : دعيت جديلة وهي من جيراننا وقصّ عليّ ذلك احد رجالها قبل ان يسير مع قومه .

– إذن كان المسلمون حكماء في دعوتهم ..

– وما معنى ذلك ؟

– معناه انهم دعوا قوماً وتركوا قوماً آخرين يدعونهم بعد قليل .

قال : اراك تحسن الدفاع عن العرب .

– اجل ، وعلينا كلنا ان ندافع عنهم ونكون عوناً لهم بالسلاح والرجال والخيل والنوق ، فيعلم اهل فارس ان دولتهم التي استبدت بالعرب بضعة اجيال ستسقط بقوة القوم الذين استبدت بهم ، سقوطاً لا يرتفع لها بعده ذكر ، الا عندما تلجأ الى الطاعة وتخضع للفاتح المسلم الجبار ..

وكانت مظاهر الحمية قد ارتسمت على جبين عبد الله .

فقال ابو زبيد ، اسألك سؤالاً ايها الامير . – ما هو ؟

ـ لماذا لم تذهب الى الميدان لتساعد المسلمين في الفتح ؟

ـ لأني رأيت ان اصبر ريثما أستشير النمر وطيئاً ، وكنت قد هممت قبل وصول رسولك بأن اكتب اليك والى انس في هذا .

فقال ابن هلال عندئذ : يرى عبد الله ان نسير الى القتال دون ان يدعونا اليه الناس .

ـ وانت ترى ايضا ما يراه !

ـ نعم ، وقد حدثت قومي بهذا الذي تذكره الآن ، فرأيت الرغبة في الحرب أعظم من الرغبة في البقاء ، وكان ولدي المنذر أشد الناس رغبة في هذا .

والتفت الى ولده فرآه يحدق الى هند ، والهيام في عينيه .. فابتسم ابتسامة قصيرة كأنه أدرك معنى هذه النظرات ثم قال : لقد جاء دورك الآن يا بني فاذكر ما تعلم ..

قال : أي أمر تريد ان تسمع رأيي فيه ؟
– الامر الذي نتحدث به .. ألم تكن حاضراً ؟ ...
فقال كليب : لا يا عم انه لم يكن حاضراً ...
فقطب انس حاجبيه وسكت .. ولكن المنذر لم يسكت ، بل استطاع ان ينقذ موقفه فقال : أصاب كليب فقد كنت غائباً ..
– وأين كنت ؟
– كنت في المدائن .. مدائن كسرى ، ثم انتقلت منها الى الحيرة ثم الى النمارق ، وكسكر ، وتلك الشواطيء التي جالت فيها خيل المسلمين والفرس ..
فابتسم ابتسامة ثانية وقال : وماذا رأيت ؟
– رأيت ان عرش الاكاسرة ، الذين أخضعوا هـذا الشرق سيزول ، وستكون الدولة للمسلمين .
فضحك أبو زبيد ضحكة ذات معان كأنه فهم ، هو الآخر مغزى ذلك الاعتذار ثم قال انس ، لقد اختار عبدالله الرأي الذي اخترته انت من قبل ، فهو يؤثر الحرب على الصبر ، وأنا من رأيه فماذا تقول ؟
فنظر الى القوم ليتبين الرغبة على الوجوه ... فأومأت اليه هند ان يوافق اباه ، وكانت تلك الاشارة الخفية اول مظهر من مظاهر الغرام ..
فقال : لقد عرف ابي ان ولده يريد ان يحارب الفرس ليثبت للعرب ان النمر أسبق القبائل الى امتشاق الحسام ، في سبيل الشرف .
– إذن لم يبق الا ان يرضى أبو زبيد .
قال : اما انا فراض ولا اطيق ان يتقدمني الناس الى العراق ولكني أحببت ان يعرف قائد المسلمين منزلتنا قبل ان نفاجيء العراق بالخيل .
فقال المنذر : اقترح عليكم اقتراحاً ..
فقال ابوه : هات يا منذر .
– نرجع الى بلادنا ونمكث شهراً ونحن نتهيأ للقتال ، فاذا دعينا اليه في خلال هذا الشهر ذهبنا ونحن شاكرون للقوم دعوتهم ، والا ركبنا خيلنا دونان

يكون لهم في ذلك رأي ، فنحن عرب وليس في هذه الارض قوة تمنعنا من ان نشارك قومنا في الفتح ...

فاعجب أبو زبيد وولداه ، بنبالة هذا الفتى وتلألأ الحب في عيني هند ... وجعلت تتفرس في أبيها كأنها تقول له : قل كلمتك ...

فقال الأمير الطائي : لقد اثبتّ لنا الآن ايها الامير الشجاع انك عربي وان رأيك خير الاراء ، ثم قال لاولاده :

اما انتم فقد وجدتم الآن شريكاً لكم في المبدأ والغاية . أجل ايها الامراء لقد أصاب المنذر في قوله فنحن عرب والقوم الذين يحاربون الفرس هم قومنا فلنتهيأ للحرب ونشحذ السيوف ...

فارادت هند ان تذكر أباها بوعده أمام ضيوفه فقالت : اظن انك لم تنس وعدك يا مولاي .

– واي وعد هذا يا بنية ؟

قالها وهو يتجاهل الامر .

فقالت : ان اذهب معك ومع اخويّ !

قال تذهبين اذا ذهبت بنات الامراء مع ابائهن .

فاضطرب المنذر قائلاً : اما أبي فسيأذن لاختي الزهراء في الذهاب ، ويفعل الامير عبدالله مثله .. أليس كذلك .

فاجابه عبدالله قائلاً : اما بناتي الثلاث فصغيرات السن لا يصلحن للحروب.

واما انس فقال : لقد اراد المنذر انترافق الزهراء هنداً فليكن ما اراد...

وقال زبيد : إذن نسير يا أبي الى الحيرة في هذين اليومين ، ثم تلحق بنا العشيرة بعد أيام ..

قال ، سنفعل ذلك ، فقل للعشيرة منذ اليوم ان تعد عدتها وتدعو بني طيء النازلين في البادية .

فطابت نفس هند ، وانصرفت عندئذ الى التفكير في هذا الغرام الذي فاجأها والذي لا تعرف مصيرها فيه . وكان المنذر مثلها يفكر في غرامه ، وهو لا يدري

اي هناء ام اي شقاء يعده له الزمان .. بل هو لا يدري ، كيف يستطيع ان ينصرف من ديار طيء ، دون ان يبوح بحبه لهـذه الطائية الحسناء التي استهوته عيناها الذابلتان ... وكان واثقاً بأنه لا يقوى على الانصراف الا اذا حمل هناءه على امل اللقاء في الحيرة وفي ساحة الحرب ، أو شقاءه على ان يحتجب عن عيني هند ، الى ان تدفنه الحرب في جوفها المضطرم ... ويظهر ان الاقـــدار بدأت تساعده في هواه ، فان ابا زبيد ، عندما رأى ان الامر الذي دعا الامراء من اجله قد انتهى أحب ان يبالغ في تكريمهم فقال : اي شيء احب اليكم في الايام الثلاثة التي تقضونها في طيء ، البقاء في الحي ام الذهاب الى الخلاء حيث يقيم الرعـاة ، مع الخيل والنوق ؟

فقال أنس : الخلاء احب الينا وسنرى النوق التي وهبها النعمان ملك الحيرة ، لجد ابيك ، وقد حدثني عنها منذ عامين ... أباقية هي ؟

ـ اجل ، وقد كثرت حتى اصبحت نوقي كلها منها .

ـ إذن نذهب عند الفجر ، ويتبعنا هؤلاء الفتيان بعد طلوع الشمس ، اسمعت يا زبيد ؟

ـ نعم يا مولاي ؟

ـ ولتذهب هند على ان لا تركض فرسها كما فعلت اليوم .

قالت : سأركب ناقتي « الغفون » يا مولاي .

ـ حسناً تصنعين فانا أخاف ان يثب بك الفرس وثبة تنتهين معها الى عنقه ثم لسقطين على الارض ..

ـ ولكنك علمتني ان اثبت في السرج ..

فاجابها ضاحكاً ، قد ينسى المرء اليوم ما تعلمه امس ..

واقبل القوم يتحدثون ويعدون جنودهم ، والقبائل التي تسير معهم الى القتال حتى انقضى الليل وآووا الى الخيام . ولم يغمض للمنذر وهند جفن ، فقد كانا يحلمان بالمنى ، ويعللان نفسيهما بالامال ..

* * *

١٤

– لقد بزغ الفجر يا سعد ، فقل لضيوفنا ان يتهيأوا للركوب ، وتقدمنا انت الى « الربدة » ولا تنس ان تنحر لنا عند وصولنا ، ناقة من نوق النعمان !

قالها أبو زبيد لعبده،ونهض من فراشه وهو يقول لزوجته سليمى بنت عمرو: خيل اليّ يا سليمى ان الامير النمري الفتى ، ينظر الى هند نظرة غرام .

قالت : ذلك الفتى الحسن الوجه ؟

– أجل ، ويظهر انه قد اعجب هنداً فقد كانت هي ايضاً تنظر اليه بعينين فيهما شعاع غريب ..!

قالت : وهل يخلق الحب في ليلة يا ابا زبيد ؟

– بل يخلق في لحظة وانا لست مخطئاً فيما رأيت ، فاطرقت قليلا ثم قالت : أترى ان هذا الحب ينمو بين الاثنين ؟

– نعم وسيبسط جناحيه فوقهما ، في الايام الثلاثة التي تمرّ على وجود المنذر في طيء ..

– اذن فامنع هنداً من ان تذهب اليوم مع القوم ، فضحك وقال : سأدفعها بيدي الاثنتين الى الذهاب !!

– لماذا ؟

– لأني اريد ان يستقوي هذا الحب ويشتدّ ، ثم ينتهي بالزواج .

– وهل يطيب لك،ان تزف هند الى فتى ، يقيم بالناحية البعيدة من العراق؟

– لو طلب المنذر بن انس هنداً ، وهو مقيم بالشام ، لزففتها اليه ولم ابال .. انه من اولئك الفتيان الذين لا تجدين مثلهم في قومك ، وقد لا تقع العين في هذه الديار على اكرم محتداً وأنبل نفساً منه .

– وتزفها اليوم ؟

– سننظر في ذلك يوم يخرج هـذا الحب من وراء الحجاب ويحدثني انس بن هلال بالأمر .

قالت : اني انظر الى هذا الزواج من ناحية اخرى .

– ما هي ؟ – هي اني لا اطيق ان تبتعد هند عن امها ..

قال : تلك عاطفة بالية يا سليمى .. اجل يعز علي وعليك ان تفارقنا هند ، ولكني أوثر هناءهـــا على كل شيء ، ولا يصفو عيش الفتاة ، الا اذا تزوجت من تحب .

قالت : العربي يزوج بنته من يشاء هو ، لا من تشاء هي .

– ثم يسوّد الشقاء بعد ذلك حياة الزوجين ، وينتهي الامر بينهما الى الجفاء ، او الى الطلاق .. ثم قال : ومع ذلك فقد كانت هند تأبى أن يحدثها احد بشأن الزواج فاذا آنست منها هذه المرة رغبة فيه ، فهذا معناه انها تؤثر المنذر على فتيان قومها مهما يكن شأن هؤلاء الفتيان .

– ومتى تحدثها بذلك ؟

– بعد ان نعود من الربدة ، وانا ارى ان العاشقين سيتشاكيان الهوى في ذلك المكان ، وسيبوح احدهما للآخر بهواه .

– ولكن ارجو ان تقول لي ، في أي شيء تؤثر المنذر على سواه .

– انا ؟

– نعم انت وفي العشيرة فتيان كثار يعرفون قدر هند .

قال: ليس في العشيرة بين الفتيان الذين هم في سن الزواج فتى يصلح لأن يكون زوجاً لها .. ابناء اعمامها الذين هم اكفاء لها في النسب والجاه ، صغار واما اولئك فلم يخطر لي قط ان اختار احدهم لها لأنها خير منهم في كل شيء ..

– وابن النمر ؟

– ولكن ابن النمر ، سيد قومه وقد وفر له المـــال والنفوذ والنسب حتى ليستطيع ان يتزوج من بنات الملوك .. وهذا يكفي .

فطابت نفسها عندئذ وقـــالت له : لقد بدأت الآن انظر الى المنذر كأنه ولد لي .

– وهذا ما سنصل اليه بعد قليل ان شاء الله .

وخرج من خيمته ، فاذا القوم قد تهيأوا وهم ينتظرونه ، ولم يلبثوا حتى ركبوا يريدون الربدة ...

١٥

طلعت الشمس فمشى الفتيان وهند ، يتبعون القوم . وكانوا جميعهم يركبون النوق الا كليباً فقد رأى ان يركب فرساً من افراس زياد وهي من كرائم الخيل. ولعله اراد ان يظهر لرفاقه مهارته في الركوب فجعل يلاعب فرسه ويركضها وهو ينظر الى عطفيه كأنــه ملك على عرش ، والنوق تسير وراءه سيراً فيه شيء من السرعة .

الا الغفون ناقة هند فكانت تسير على مهل وهند فوقها لا تدفعها الى الامام... كأنها كانت تؤثر التأخر على المسير في الطليعة .

فرأى المنذر ان الفرصة قد سنحت له فتراجع الى الوراء بنظام وخفة حتى اصبحت الناقتان متحاذيتين فقال وهـــو يخفض صوته : ماذا اصاب الناقة ايتها الاميرة ?

فاجـابته وهي لا تنظر اليه قائلة : ان الغفون تؤثر الانفراد .. فهي تتأخر عندما تتقدم النوق وتمشي وحدها بعيدة عن القوم .

ـ اذن فنوق الحي تسبقها في المسير ?!

ـ وهل تريد ايها الامير ان تكون السابقة ?

ـ بل اريد ان تكون سيدةالنوق ، كما ان هنداً سيدة الحسان واميرة الجمال!

فرفعت رأسها وجعلت تحدق اليه بفتور ثم قـــالت : لا ادري اي شيء اوحى اليك بهذا الوصف !

ـ أوحاه ما اراه يا سيدتي من فتنة وحسن ..

ـ ولكن في النمر حسناً ...   ـ ومن قال لك ذلك ?

ـ رأيت مظهراً من مظاهره امس واراه الآن ...

فخفق فؤاده قائلاً : غير انه يختفي عندما يبدو حسن طيء .. لقد كان هذا الحسن جانياً ايتها الاميرة وسينصرف ضيوف ابيك وفي نفس احدهم أثر منه ، وفي قلبه جرح لا يبرأ !..

قالت ، اخشى ان يجيء هذا ايضاً ويقول ما تقول !

وأومأت الى ابن عمه ، كليب بن خالد . - ومعنى ذلك ؟

- معناه انكم انتم الفتيان تعبثون بالعذارى ما طاب لكم العبث وتسمعونهن نغمات الثناء والاطراء كلما خطر لكم اللهو !

قال : انك تتهميني يا سيدتي فأنا لم اكن قط من هذا الصف ولم يخطر لي ان الهو كما تقولين .

ـ اذن خطر لك ان تسمعني كلمات الثناء لألمس أدب نفسك ..

ـ وهذا أيضاً لم يخطر لي فقد نشأت صريحاً لا احاول ان اجعل الابيض اسود .. قلت : اني سأحمل جرحاً في هذا القلب ، وانا صادق فيما أقول وأقسم بعينيك الساحرتين !

فضحكت قائلة : وماذا تسمي هذا الجرح ايها الامير ؟

فارتجف صوته وهو يقول : لقد تعود الناس ان يسموه حباً .. وانا لم اعرف هذا الحب من قبل .

فتجاهلت امره لتستدرجه الى الاقرار بكل شيء قبل ان تبوح هي بما في الصدر ، فقالت : اني لأعجب لهذا الحب يشعر به القلب في المساء ثم يشتد عند الصباح فيبوح به صاحبه ..!

- وانا اعجب لهذا الجواب الجاف تقابلين به اعترافي بغرامي واستعدادي لبذل نفسي ، في سبيل هذا الغرام !

فأخفت البهجة التي غمرت نفسها وأجابته قائلة : إذن فأنت تحبني ولم تكن مازحاً ؟

- واي شيء في هذا الموقف يدعو الى المزاح ؟ قولي ، أتريدين ان احمل

جرحي الى بلدي ، ثم احمل خيبة الرجاء الى ساحة الحرب حيث اخسر حياتي .
ام تريدين ان تلمسي بيدك هذا الجرح فيبرأ ، فاخوض المجال والامـل في الصدر وانا واثق بالنصر ؟

وقبل ان تجيب ، أقبل كليب على فرسه فدنا من العاشقين وعلى ثغره ابتسامة صفراء ، وجعل يقول : أرى الاميرة كأنها تريد الرجوع الى الحي !

فقال المنذر : لقد اظهرت ناقتها الغفون شيئاً من الدلال فرأت ان تجاريها في دلالها وتترك لها الزمام لتسير كما تشاء .

– واظن ان الناقة التي تركبها انت لا تريد ان تفارق الغفون ..

قال : كرهت ان تنفرد الاميرة بالمسير فتراجعت .

فضحك بخبث . ثم لوى عنق فرسه والفاظ اللعنة ، على شفتيه الصفراوين ، المرتجفتين .. فقالت هند : هذا ابن عمك ؟

– نعم .

– وهل تأذن لي أن أذكر لك ما أحسست به الآن ؟

– اذكري ما تشائين .

قالت : خير لي ان أرى عيني الذئب ، من ان أرى عيني هذا الفتى .

– لماذا؟

– لأني رأيت المكر والغدر ، في نظراته الآن ، وفي نظراته أمس .

فابتسم قائلاً : ليكن غادراً ، فهو ضيف وسينصرف بعد يومين ..

– ولكني أخافه ..

– أتخافين رجلاً هو في النمر ، وأنت في طيء ؟

فرفعت عينيها الى السماء وتمتمت قائلة : لا أخافه على نفسي بل أخافه ... عليك ...

فاضطرب قائلاً : تخافينه عليّ ؟! وأنت تهزئين بحبي ولا تكترثين بي ؟

فقالت وهي تنظر الى الناقة كأنها تخاطبها : نعم، أخافه عليك ، ولا أطيق ان أسمع أنه ابن عمك .

– ولكن هذا الخوف لا يصدر الا عن الحب ..

فاهتزت على ناقتها قائـلة : وما هي حيلتي يا منذر اذا أحببت ؟ نعم عن الحب ، فأنت في نفسي منذ أمس ، وستبقى فيها حتى يغيبني القبر !

فوضع يده على فؤاده وتنهد قائلاً : أما الآن فقد طابت الحياة ، وقد حدثني هذا القلب بأنك ستكونين لي ..

والتقى النظران مرة اخرى ، وفي العيون جميع المعاني التي يعرفها المحبون . وبعد ذلك السكوت القصير العذب، قالت له : أنسيت يا منذر أنك سترحل عن هذه الديار ، بعد يومين ؟

فأحس الفتى ، أن البكاء يتردد في صدرها ، فقال :

وكيف أنسى ذلك وأنا أفكر فيه .

فهزت رأسها قائلة: وماذا ينفع هذا التفكير، وانت راحل .. وأنا باقية..؟

قال: لقد سمعت أبا زيد يقول أمس انكم سترحلون الى الحيرة بعد بضعة أيام.

– نعم .

– اذن ، فأبي وعبد الله ومن معها ، يرجعون الى بلاد قومهم بعـد يومين وأبقى أنا لأسير الى الحيرة مع أمير طيء وآل بيته .

– وبعد ذلك ؟

– نذهب الى الحرب بعد ذلك وتذهب معنـا اختي الزهراء .. ولكن قولي لي يا هند ، ألم يعد أبوك أحداً من فتيان العشيرة أنه سيزفك اليه ؟

– لا ..   – وأنت واثقة ؟

– أجل ، فقد قال ابي أكثر من مرة ان الفتى التي تحبه هند يكون صهراً له .

قال : لنفترض انه وعد أحدهم دون ان يشاورك في الأمر .

قالت : لا يخطر لأبي زبيد الطـائي ان يقذف بابنته الى بيت لا تريد هي صاحبه ..

– لم يبقَ اذن الا ان أحدث أبي بالأمر اليوم وأسأله ان يخاطب أباك بشأن الخطبة ، ولو استطعت لسألته ان يخاطبه بشأن الزواج ..

فذعرت قائلة : ولماذا لا تستطيع ذلك ؟

– لأني أقسمت أني لا أتزوج ، الا بعد ان تنتهي حرب المسلمين والفرس !!

– وأين كان هذا القسم ؟

– في مجلس أبي ، ورجال النمر في ذلك المجلس ..

قالت : لو لم يكن هنالك حديث زواج لما أقسمت ..

ومسحت دمعها الذي تلألأ في العينين ، فقصّ عليها عندئذ مـــا تحدث به القوم ، في مجلس أبيه ، وروى لها حكاية كليب ابن عمه واخته كبشة ، ثم قال :

لقد جنيت على نفسي بذلك القسم ، وأنا لا ادري ، اجل لم اكن ادري اني سأرى في طيء فتاة يجري حبها مع دمي، ويتغلغل في شعوري واعماق نفسي .. فاعذريني يا هند، واعلمي ان نار الحرب لا تلبث حتى تخمد في العراق ، فتصبحي زوجة لي !

فرأت الفتاة ان القدر الذي ساعدها في حبها ، يخونها في الزواج .. ولكنها لم تشأ الا ان يبرّ حبيبها في قسمه ، لتظل له المنزلة العالية ، بين القوم فقالت : اما وقد أقسمت ، فليس لي ولك الا الصبر ، حتى يمن الله على المسلمين ، بالنصر الاخير ويغمد السيف .. ثم قالت : ولكن ألا تقول لي الآن لماذا لم ترض بكبشة ابنة عمك زوجة لك ، وهي من الحسان ؟

– لم يخفق هذا القلب بحب كبشة ، كما ان قلب اختي الزهراء لم يخفق بحب كليب ..

– وماذا فعل كليب بعد ذلك الرفض ؟

– لم يفعل شيئاً ، وقد بدا لي من جميع مظاهره انه نسي ما جرى وعدل عن الزواج ..

– أما انا فقد بدا لي انه لم ينس شيئاً ، وقـــد رأيت الشر في عينيه كما قلت لك ، وسترى اني لم أكن مخطئة ..

قال : لا تظلمي كليباً فهو سليم القلب .

– بل هو أخبث الناس واكثرهم مكراً فاحذر ان تثق به .

قال : هي انه كما تذكرين ، فماذا يصنع ؟

– لا تقل ماذا يصنع .. ان الخبيث الغدار ، يذبح اخاه ثم يغسل يديه من دمه ، والناس لا يعلمون شيئاً عنه .. قل لي ما هو معنى كلمته : ان الناقة التي يركبها لا تفارق الغفون ..

– تلك كلمة مزاح يا هند .

– قل انها كلمة حقد ، فقد قام في ذهنه انك احببت هنداً ، وفي هذا الحب جرح لكبريائه وكبرياء اخته ..

– وماذا يصنع اذا ُجرح ؟

– يخرج عن حده ، فيعمد الى ما يعمد اليه المجرمون الاشرار ، في كل زمان ومكان ..!

وأخفت وجهها بيديها كأنها ترى شبح الموت ماثلاً امام عينيها ، فوق عنق الناقة التي يركبها ذلك الحبيب ..

فقال وهو يبتسم : انها ظنون غريبة لا أعلم أي شيطان أوحى بها الساعة !

قالت : ابعد عني هذا اللعين فقد خيل الي الان انه يمد يديه الاثنتين ليقذف بك الى الهوة ..

– بل ابعدي عنك هذه الظنون ايتها الحبيبة فكليب ابن عمي اضعف من ان يمد يده الي .

– ومن يضمن لي ذلك ؟

– انا !! ولست خائفاً ..

قالت : عدني انك لا تستسلم الى رأيه .

– اعدك بهذا ، فثقي بما أقول واعلمي ان الفتى من أحسن الناس .

فكرهت هند ان تعكر صفو تلك الساعة العذبة ، بالجدال والاستسلام الى تلك الفكرة الكئيبة ، التي حدثها بها القلب .. أجل ، لقد كرهت ان يقف شبح كليب بن خالد ، بينها وبين المنذر في ساعة غرامها الاولى ، فسكتت ، ولم يكن في سكوتها ما تطمئن اليه النفس. على أن المنذر ، انساها ظنونها بعد لحظة ، بتلك

الأحـاديث الخلابة التي كان يصف بها غرامه ، وبذكر الهناء الذي تعدُّه لهما الاقدار ، وكانت الكآبة قد طلقتها عندما اتم ذلك الحديث ..

١٦

لقد طال حديث هند والمنذر يا زبيد !

– أجل ، وهذا ما أرغب فيه !

– فاستغرب زياد جواب اخيه وجعل ينظر اليه ..

– فقال زبيد : نعم ، اريد ان يطول الحديث بين الاثنين ثم ينتهي بالحب.. !

قال : اراك تهزأ بي .

– أقسم لك ان هذا الامر لم يخطر لي .

– وما معنى كلمتك ؟

– معناها ان ابي يريد ان يربط الاثنين رابط الغرام ، ثم يزف هنداً الى المنذر بعد ان يبوحا بغرامهما .

قال : كنت هممت بأن أدعو هنداً ..

– لولا وصية أبي لوضعت ناقتي بين ناقتيهما ، وقطعت هذا الحديث الطويل الذي يتحادثان به .

– وماذا ترى الآن ؟

أرى ان هذا الزواج سيتم فقد خفق القلبان الآن على الحب !

قال : يظهر ان أبي يطمع بصداقة النمر .

– بل يطمع بهذا الفتى الذي هو من أحسن فتيان العرب . حديث فصيح ، ونسب رفيع ، ومال يلعب به كما يلعب صغـار الحي بالاحجار الصغيرة في الساحات ..

قال : وللمنذر أخت تدعى الزهراء سيزفها أبوها اليك ..

– اذا كانت الزهراء مثل المنذر سألت أبي ان يخطبها لي ويختار لك فتاة من بنات النمر تشبه هنداً .

– قال : سترافق الزهراء قومها الى الحرب ، أليس كذلك ؟

– بلى ، فهكذا قال امس ، انس بن هلال .

فضحك زياد ضحكة سمعتها هند .

فقا له أخوه : ما الذي أضحكك يا زياد ؟

– يضحكني ميدان الحرب ، الذي سيمسي ميداناً للغرام !

فشاركه زبيد في ضحكه ، وأومأ الى كليب بن خالد قائلاً : وقد يكون هذا عاشقاً فتخوض المجال طائفة من العشاق ..

فدفع المنذر وهند ناقتيهما عندئذ ، ورفعت هند صوتها قائلة : أرى اخويّ يضحكان ..

فقال زبيد : اذا لم يضحك الفتى ساعة زواجه طلقه الضحـ وقام مقامه البكاء .. !

– وهل تزوجت الآن يا زبيد ؟

– ولكني اخترت زوجتي ، وكاد زياد يختار زوجته ... وانت .. ماذا فعلت يا هند ؟

فقام في ذهنها ان اخويها كانا يسمعان احاديث الحب .. فعقد لسانها الخجل وتظاهرت بأنها لم تسمع كلمته .

فقال المنذر : لقد ترددت هند في الاختيار ، ولكن رفيقها الذي يخاطبك الآن ، لم يتردد فيه ..

– ومن هي زوجتك ؟

– فتاة من طيء ..

– اما انا فقد اخترت فتاة من النمر لم ارَ لها وجهاً ..

وفهم كل منهما ما يعني الآخر فابتسما وكان ذلك الابتسام اتفاقاً صريحاً على كل ما جرى ..

١٧

نحر القوم ناقة من نوق النعمان وعمدوا الى الشراب .. وأبو زيـــد وأنس بن هلال ، ينظران الى العاشقين المتكلمين بلغة العيون .. لقـد عرف الوالدان ، من نظرات الاثنين أمس ان الفجر لا ينبثق ، حتى ينبثق معه فجر الحب ..

وكان الاثنان راضيين ، كما علمت، أبو زبيد لا يجد صهراً مثل المنذر ، وأنس لا يجد زوجة لولده ، مثل هند ... وفي هـــذا الزواج ، قوة الفريقين ، وعز العشيرتين ...

فلما أكل القوم وشربوا ، سأل المنذر أباه ، أن يأذن له في كلمة يقولها له وراء الخيام . فنهض أنس والابتسامة على شفتيه .. وقبل ان يبـدأ المنذر بالكلام ، فاجأه بقوله :

لقد عرفت يا بني ما تريد أن تقوله لي ، انك أحببت هنداً !

– نعم يا مولاي .

– وأنت تريد الآن أن أخطبها لك ..

– نعم ، على ان تذكر قسمي فلا تعد بالزواج إلا بعد ان تنتهي هذه الحرب، قالها وهمّ بالجلوس .

فقال له أبوه : قم فلم يبق الآن ما تقوله لي .

– بلى ، بقيت كلمة يا مولاي هي ان لا تخطب لي وكليب حاضر !

– وأي شأن لابن عمك في هذا ؟

– سيذكر اخته كبشة وقد تجرحه الذكرى .

– ولكنه سيعلم بعد حين فيذكر ما تقول ..

قال : أخشى ان ينغص علينا هذه الساعة فيتحدث بنا القوم ، وهـذا ما لا أريده أنا ولا تريده أنت ..

قال : الويل له اذا بدرت منه بادرة ، اتبعني .. ومشى امامـه حتى جلس على مقعده ، فقال أبو زبيد : اشرب ايها الأمير .

قال : والله لا أشرب حتى تجيبني الى ما اسألك إياه .
قال : سل ما تشاء . قال : اني اخطب اليك هنداً !
فاصفر وجه كليب ، ومرّت غشاوة سوداء امـــام عينيه ، وحبست هند انفاسها وارخت نظرها الى الأرض ، فقال ابو زبيد وهو هادىء : للمنذر ؟
– اجل ، وارجو ان تجود بالجواب الآن
– ولكني سأسأل هنداً قبل ان اجيب ، ماذا تقولين يا بنية ؟
فرفعت رأسها وتمتمت قائلة :
ليس لأحد من آل زبيد ان يقول كلمة وانت حي ..
قال : اريـــد ان يعلم القوم ، ان الفتى الذي تختاره هند ، يكون هو ، لا سواه صهراً لأبي زبيد .. قولي .. اتريدين ان تزفي الى المنذر ؟
– اريد ما تريده انت يا مولاي ..
– ولكن ، أتحبينه ؟ فسكتت ... فقال عبد الله بن الفهر : ليس في الحب عار ايتها الأميرة ، قولي نعم او لا .
فتنهدت وقالت : نعم
فقال أبو زبيد : لقد اضحت هند خطيبة لابن امير النمر ... قم فصـــافح خطيبتك يا منذر ، فتصافح الخطيبان ، وكليب بن خالد يحس ان الأرض تدور به ، ولكنه تجلد ، واخفى مظـاهر اضطرابه ، وراء ابتسامة رائعـــة ، هي ابتسامة القهر .. بـل ابتسامة الحقد ، وحب الانتقام !.. ونهض القوم يهنئون الخطيبين . اما ابو زبيد فكان يهـامس ولده الاكبر ، ودلائل الفرح والبشر على جبينه .
فلما عاد القوم الى الجلوس ، قال لأنس : وهل تريد ايها الامير ان تجعل موعداً للزواج .
– نعم ، فموعده يوم يظفر المسلمون بالفرس !
قال : انه موعد ليس له زمان . – وكيف ذلك ؟
قال : قد يظفر المسلمون في اول جولة نجولها معهم ويفرّ اهل فارس .

قال : لقد عنيت غير ذلك ايها الامير ، اريد بالظفر أن يستولي المسلمون على دولة كسرى ، ويغمد السيف !!

– اذن فالزواج لا يتم الا بعد اعوام .

– من يعلم ، فقد يدخل المسلمون المدائن في آخر هذا العام فينتهي كل شيء .

قال : اقترح ان يكون الزواج في هذا الشهر قبل ان نزحف الى العراق .

– هذا هو الرأي يا أبا زبيد ، ولكن المنذر لا يقدر على ذلك . – لماذا ؟

– لأن عليه ان يبرّ في يمين حلفها قبل ان نجيء .

وقصّ عليه ما تحدثوا به، يوم وصل رسوله الى ديار بني النمر ، يحمل الكتاب الذي يدعوه به الى طيء .

فقال : لم يبق لي ما أقوله ، بعد هذه اليمين .

وأطرق ملياً ثم قال : يا ابا المنذر لقد جاء دوري الآن في السؤال . إني اريد ان ازوج زبيداً هذا ، وهنداً ، في ساعة واحدة .

– وهذا خير ما تصنع .

– ولكني لم أجد في هذه الديار فتاة تصلح له ، فرأيت ان أرسل نظري الى أعظم امير في النمر واخطب اليه ابنته لزبيد .

قال : اتعني الزهراء . – نعم ولا اعني سواها .

– ولكنك لا تعرفها ولا يعرفها زبيد وانا اخشى ان تندم على طلبك ، بعد حين ..

قال : يكفي ان نعرف اباها واخاها ..

– اما انا فلا استطيع الا ان اردّ هذا الطلب اليوم ، على ان اقبل به في الغد.

– وما هو عذرك في ذلك ؟

– عذري اني سأسأل الزهراء عن رغبتها في الزواج كما سألت أنت هنداً .. ولي هنالك عذر آخر هو ان لا يخطب زبيد الزهراء الا بعد ان يرى وجهها ، ويسمع صوتها ، ويحدثها بأمر الزواج .. – ومتى يكون ذلك ؟

– ستكون الزهراء في الحيرة بعد شهر ..

قال : رضيت بهذا الوعد فخير لزبيد أن يصبر شهراً ..

وجعل أنس ينظر الى ما حوله كمن يبحث عن شيء ثم قال :

– بقي هنا زياد وكليب ابن اخي فلنختر لهما زوجتين ، أليس بين اميرات ... فتاة نزفها الى كليب ؟

قال : نسأل هنداً عن ذلك .

فقال كليب لعمه : من قال لك يا عم ان لي رغبة فيما تقول ؟

فقطب انس حاجبيه وقال : يكفي ان اكون انا راغباً فيه !!

فقال وهو يتكلف الابتسام : ما تعودت ان اخالفك فيما تأمرني به ، ولكني افكر في الزواج ولم يخطر لي انك تريد ان اتزوج اليوم .

قال : تخطب اليوم ، ثم تتزوج يوم يتزوج المنذر والزهراء .

– لست قادراً على ذلك فأرجو ان تعدل عما هممت به .

قال : لقد اردت ان تتزوج منذ عامين ...

– اما الآن فقد اضمحلت تلك الارادة وبت اكره النساء ..

– اذن نخب كبشة لزياد !!

– أتخطبها دون ان تسألها يا عم ؟ انها لا ترضى الا بمن تختاره هي !!

فحاول المنذر ان يتكلم ، فمنعه أبوه قائلاً لكليب : متى كانت لك هذه الجرأة يا كليب ، على عمك ؟

قال : لقد علمني الزمان ان اكون جريئاً ..

واصفرت شفتا الفتى من الغضب وثارت نفسه ، فقال المنذر : يكفي يا كليب ما قلته فاسكت ..

– بل تسكت انت فليس فيكم من يستطيع ان يمنعني من الكلام .. لقد اراد ابوك ان يزوجني اليوم من يشاء ، وقد أبى بالامس ان يزوجني من أشاء .. طلبت الزهراء فردني كما يردّ السائل الوقح ، وسألتك ان تجعل اختي زوجة لك فلم تكن اكثر جوداً من أبيك ..! ثم جئت اليوم ، وجاء أبوك ، تفرضان علي وعلى كبشة الزواج فرضاً كأننا من عبيد النمر ونحن مثلكما بالنسب والمقام ..

فتميز الأمير غيظاً وقال : ما سمعت العمر كله من نمري مثل هذه اللهجة ..!
أمرك المنذر بالسكوت فلم تفعل ، فانا آمرك الآن فاحذر ان تقول كلمة .

فقهقه الفتى كما يقهقه المجنون وأجابه قائلاً : لقد كنت مستبداً بي ، يوم قتل ابي في سبيل الدفاع عن قومه وكنت انا صغيراً !! اما اليوم فقد ذهب ما كان لك من سلطان ولم يبقَ الا ان تعترف امام الناس ، بأن لي من الحق في العشيرة مثلما لك ، وان القوم مكرهون على الخضوع لي ، كما يخضعون لك أو لولدك ..

فقال عبدالله بن الفهر : احترم اميرك يا ابن خالد .

قال : كنت ولم أزل اميراً مثله فلا طاعة له عليّ ..

وكان أبو زبيد وبنوه متحيرين في الأمر .. أيسكتون عن الفتى وهو يهين صهرهم واباه ، ام يطردونه وهو ضيفهم ؟

على ان عمه لم يطق ان يسمع فوق ما سمع ، فأومأ الى ناقته قائلاً : هذه ناقتي فاركبها وارحل عن هذه الارض الساعة ..

فقال هازئاً : لك ان تأمر عبيدك ياعم فأنا لا اسمع لك ..

فنهض انس وهو يقول : اما ترحل الآن واما السيف .. قال : السيف !

فوثب الامير فتناول سيفه ، وانثنى يريد ان يضربه به ، فتصدى له ولده قائلاً : اترك السيف يا أبي وعاقبه بما تشاء ..

ووقفت هند بين الاثنين تسأل الأمير أن يرفق به .. وكان الفتى يتهدد ويتوعد وقد جرّد سيفه فقال ابو زبيد عندئذ: ارحل يا ابن خالداً واكفنا الشر.

فرأى كليب ان القوم كلهم ينتصرون لعمه فقال : وتطردني انت ايضاً يا ابن طيء ؟ .. ان انذال العرب لا يفعلون هذا ..

ومشى يريد فرسه وهو يقول : أجل سأرحل فلا خير في الاقامة عند قوم يطردون الضيف ..

فتمتم ابو زبيد قائلاً : ويلي لقد طردت ضيفي ..

فقال انس : ان الفتى الذي لا شرف له لا يحسب ضيفاً على الاشراف .. وانا ايضاً اطرده من العشيرة ..

فأجابه الفتى وهو يركب فرسه : هي عشيرة ابائي واجدادي .

قال : وحق من رفع هذه السماء لئن رأيتك في العشيرة لأضربن عنقك ولو كنت بين ايدي الجنّ ..

قال : أجل ستضرب يا عم ولكن ان استطعت .. واستوى على ظهر الفرس وقال لزياد : سآخذ ناقتي من الحي وابقي فرسك .

ومرقت الفرس عندئذ من الجانب الآخر كما يمرق السهم ، ولم تلبث حتى حجبها الافق عن العيون .. فابتسم الامير النمري للقوم وقال لولده :

أرأيت كيف يحفظها ابن عمك في صدره ؟

– نعم يا مولاي ولكنها ثورة من ثورات الشباب فلا تعبأ .

– غير ان هذه الثورة ستخلق شراً .

– بل تموت عندما تظهر رضاك عن كليب .

قال : ذهب الرضى فقد أقسمت الآن .

– وستبرّ في قسمك ثم يعود الفتى الى منزلته منك .

فقالت هند : ان هذا الشر الذي تخافه ايها الأمير ذكرته للمنذر في هـــذا الصباح ، وكنت واثقة بان الحقد يغلي في صدر ابن أخيك .

– ومن قصّ عليك خبره .

– قصّه المنذر وذكر لي ان اختي الزهراء هي التي أبت ان تتزوج كليباً لأنها لا تحبه .

وبدت على وجه هند عندئذ دلائل القلق، وقد استيقظت مخاوفها من جديد، وأيقنت بأن تلك الساعة هي ساعة شؤم ، وان ايام خطبتها ستكون ايام شقاء .

ورأى المنذر ذلك فقـــال : تظن هند ان كليباً سيمحو بغضبه عشيرة النمر وقد فاتها انه لا يجسر على رفع رأسه ، بعد ما رأى غضب عمه ..

قالت : ألم تسمع تهديده ووعيده ؟

– بلى ، انه تهديد يشبه صفير الريح الذي تسمعينه في وادي الربدة ، كلما جلست في هذا المكان . وقال زبيد : أتخافين هذا الفتى المجنون ونحن نحن ؟!

ـ لا أخافه في وضح النهار ، بل عندما يجن الليل، فعيناه عينا خبيث غدار يملأ صدره الحسد واللؤم .

فأراد خطيبها ان يثبت خطأها في هذه الظنون . فمنعه ابوه من ذلك قائلاً : أصابت هند ، فالفتى الذي يعقّ عمه ، بمثل هذه الصورة ، فتى لئيم لا شرف عنده ولا وفاء له ، ثم قال لهند : وأما الغدر الذي تذكرينه يا هند فلا سبيل اليه وسترين ، عندما تصبحين في النمر ، ان كليباً اضعف صعلوك بين صعاليك الحي.

وكان ابو زبيد مطرقاً لا يقول كلمة ، فقال له انس : ما بالك يا أبا زبيد ؟

فقال : الويل لأبي زبيد فقد صنع الآن امراً لم تصنع العرب مثله ، منذ وجدت .. أسمعت ايها الأمير ان عربياً طرد ضيفه ...

ـ نعم سمعت ان العرب تطرد الضيف الذي يثير الفتنة في البيت النازل فيه.

ـ واذا تحدث العرب بما فعلت ؟ ـ تعتذر للعرب ونحن نشهد .

قال : يكفي انه رحل ولم اكفّر عما قلته له !! ولم احسن اليه ..! قم يا زبيد ، واركب الغفون ناقة اختك ، والحق به الى الحي وقل له : ان الفرس التي يركبها هي له ..!! قم ولا تتردد لحظة واحدة .

فقال المنذر : ولكن كليباً لا يقبل احساناً .

قال : علي ان ارضي مروءتي وشرفي ، وليفعل هو ما يشاء ... اركب يا زبيد وانخس الغفون فتطير بك !

فقام الفتى فركب ، وركضت الناقة تنهب به ذلك السهل ، فطابت نفس الأمير الطائي ، في تلك الساعة ، وأقبل القوم يشربون ، ثم نسوا ذلك الحادث الغريب ، كأنه لم يكن .

١٨

أقبل زبيد على الحي ، فأتى امه فقال : الم تري ذلك الفتى الأسمر البراق العينين الذي أقبل مع الجماعة امس ؟

ـ بلى رأيته وكان يرغي كما يرغي الجمل ، وفي صدره همهمة يرددها كأن فيه همّاً يكاد يقتله . ـ وأين هو الآن ؟

ـ رحل منذ ساعة وقد سألته عن سبب مجيئه ، فلم يلتفت الي ولم يجب كأنه أخرس أصمّ . ـ وفرس زياد ؟

ـ أخذها عبيد أبيك وأعطوه ناقته وكنت أعرض عليه الفرس وهو لا يقول كلمة ، قال : أفعلت هذا ؟ قالت : نعم .

فأشرق جبينه ثم دعا العبيد فقال : أي عبد أخذ فرس زياد من الفتى الذي رجع من الربدة ؟ فأجابه أحدهم : أنا يا مولاي .

ـ وأنت أعطيته الناقة ؟ ـ نعم يا مولاي .

ـ وماذا كان يقول ؟

ـ سمعته يخاطب ناقته قائلاً : لا خير فيك ان لم تبلغي النمر بعد خمسة ايام .

ـ ثم ماذا ؟ ـ ثم ركبها فصارت به وهو لا يلوي على شيء .

فقال : أيستطيع أحدكم ان يدركه ؟

قال : لو ركب أحدنا ظهر طائر لما استطاع ان يلحق به ..

فصرفهم وقال لأمه : لقد طرد الرجل من طيء كما يطرد الأجرب !

قالت : ويلك انه من أمراء قومه ! ـ ولكن هذه الامارة هي التي جنت عليه .

ـ وهو ابن أخي انس ! ـ وانس نفسه أراد ذلك .

وجعل يقص عليها حكاية الخطبـــة حتى انتهى الى حديث انس عن كبشة وكليب ، فقال : وهنا اشتعلت النار ..

فنسيت عندئذ كليباً وثورته وأقبلت تسأله عن المنذر وهند ..

فقال لهـا : اما المنذر فمن أشراف العرب وأبطالهم ، كما قال لي عبد الله بن الفهر ، وأخوه وخاله . ـ وكيف عرفت ان هنداً تحبه ؟

ـ لقد رافقها المنذر الى الربدة ، فلما نزلا كان الواحد منهما يعشق الآخر .

ـ ولكنك تقول ان الزواج سيطول أمره .

ـ أجل فقد أقسم المنذر انه لا يتزوج الا بعد حرب العراق .

قالت : وما هو رأيك في الزهراء ؟ ان أبا زيد تعجل في خطبتها وكان عليه ان يصبر ريثما تقع عليها العين .

قال : ان هذه الخطبة لم تتم واما الزهراء فقد قال لي عبد الله ان العين لا تقع على أكرم خلقاً منها وأحسن وجهاً فهي مثل هند .

ـ وأنت واثق بانك ستراها في الحيرة ؟

ـ نعم فستكون مع هند وراء صفوف الجيش .

قالت : أتمنى ان تكون كما وصفت وأسأل الله ان يرشد أخاك زياداً إلى فتاة مثلها تقرُّ بها العيون . ثم قالت : ولكن لم تقل لي لماذا تريد اللحاق بابن خالد ؟

ـ لأن ابي أراد ان يستر عمله بشيء يجود به عليه خوفاً من ان يفضحه بين قبائل العرب . قالت : ولكني أعطيته فأبى .

قال : وأمراء تغلب والنمر يشهدون لنا .

ونهض وهو يقول : انا راجع الآن الى الربدة وسنعود جميعاً عند المساء .

قالت : يجب ان ترجع مع هند قبل القوم فأنا أريد ان أخاطبها بأمر هذه الخطبة ، قبل ان يعودوا . قال : سأفعل .

وغادرها وهو يفكر في الزهراء وفي ذلك الجمال الذي وصف له ، وكان القوم ينتظرون رجوعه ، فلما أقبل فاجأه ابوه بقوله: هل سترت نذالة ابيك يا بني؟؟..

ـ ان ابي لم يكن قط من الانذال .. لقد رحل الرجل ، ولم أجد سبيلاً الى اللحاق به .. فأخفى وجهه بيديه وهو يقول: لقد خاب الرجاء واكتنفني الذل.

فقال : ارفع رأسك يامولاي ، فالامر الذي اردت ان تفعله انت فعلته امي وهي لا تعلم ماذا جرى بيننا وبين كليب .

فظهر الفرح في عينيه وقال : وماذا فعلت امك ؟

ـ عرضت الفرس على الرجل فأبى اخذها ولم يجب !

ـ أتقسم لي انها فعلت ذلك ؟ ـ اقسم بشرف العشيرة !

فوثب ذلك الامير النبيل من مكانه وجعل يقول : اشربوا الآن فقد امحى ذلك العار ..

فكبرت سليمى بنت عمرو ، زوجة أبي زبيد في عيون القوم وشربوا حتى سكروا والفرح يملأ القلوب . .

١٩

عانقت سليمى ابنتها ، وهي لا تكفكف الدموع .. وكانت تقول لها : خطبة مباركة يا بنية ان شاء الله ، خبريني الآن ماذا تحسين .

قالت : اجس بالحب يتمشى في عروقي وتهتز له جوانحي ، ولكني خفت ذلك الفتى الثائر الذي اغضبوه .

فقبلتها قائلة : أتخافينه وانت ستكونين في ظل انس بن هلال المنذر .

قالت : انما اخافه على انس والمنذر ولا ادري لماذا .

قالت : انه وهم يا بنية صوّره لك الحادث ، فلا تشوهي الخطبة بالاوهام ، ولا تستسلمي الى الاحلام .. قالت : كان هذا الخوف قبل الحادث ..

– اذن فهي ساعة من تلك الساعات المشؤومة التي تعرض للمرء في حياته دون ان يكون هنالك سبب يعرفه .. وما هي قيمة كليب ابن خالد حتى تخافيه ؟؟ انه مثل كل نمري يخضع لعمه ، ولا يجسر على الخروج عن الطاعة لأن الموت يكون جزاء خروجه .

– اعرف هذا يا أم كما اني اعلم ان العبد يستطيع ان يطعن سيده من الوراء عندما يخطر له ان يطعنه ..

قالت : لم يكن هذا تشاؤماً ، بل هو الجنون .. وهل تفكرين في القتل في اليوم الذي يبسم لك فيه الحظ !!

– لو كان الأمر في يدي لما فعلت . أجل اني احاول ان انسى هذه الفكرة وأتجاهل الحادث الذي جرى في الربدة ولكني لا استطيع حتى اني جربت ان اطرد صورة الغدار الرهيبة الماثلة امام عيني فلم أقدر !!

فجعلت امها تضاحكها حتى أقبل القوم ودخل المنذر يريد ان يرى سليمى ليسمع من فمها كلمة الرضى به زوجاً لهند .

فابتسمت له قائلة : اهلاً بك يا ولدي ان الساعة التي قدمت فيها طيئاً كانت ساعة خير وعندما قصَّ عليَّ زبيد خبر الخطبة تساقطت دموع الفرح من عيني..

فقبل يدها وقال : ولكن هنداً ليست راضية على ما ارى ..

وهو يريد بذلك ان يمازح خطيبته ..

فشاركته سليمى في مراحه قائلة : هذا ما ظهر لي ، وقد كانت تقول ذلك قبل وصولك ..

ـ ومن هو العربي الذي تريد ان يكون خطيباً لها ؟

ـ انه ذلك الفتى الذي خرج غاضباً في هذا اليوم .

ـ ولكنها كرهت ان تجالسه ولم تكن تجرؤ على النظر اليه ..

ـ لقد انقلب البغض فصار حباً . !

فقالت هند : دعوني فلا أطيق ان تذكروه لي .

قال : لقد قضت يومهـــا وهي ترى في عيني كليب شبح الموت وأنا أرى في عينيها صورة الحياة .

ثم جلس وهو يقول : لنترك الآن كليباً ولننظر في أمر آخر ، لقد قلت أنك راضية بالخطبة يا ام زبيد ، أليس كذلك ؟

ـ أجل وأسأل الله ان يقرب يوم الزواج .

ـ ولكن بقي ان ترضي بأمر آخر أسألك إياه . ـ ما هو ؟

ـ هو اني أفكر في الذهاب معكم الى الحيرة وأرجو ان تأذني لي في ذلك ؟

ـ أهلاً بك يا بني فبنو طيء عشيرتك، وأبو زبيد أبوك وأولادي اخوة لك . وهل يأذن لك أبوك في الذهاب ؟

ـ نعم ، فأبي يطيب له مـــا يطيب لي ، وسيقود هو جيوش النمر الى الحرب فنلتقي في الحيرة ..

قالت : كان ابو زبيد يقول انه لا يشترك في القتال الا اذا ندبوه له .

قال : ألم يقص عليك ما دار بيننا وبينه أمس ؟ ـ لا .

ـ لقد أجمع القوم على ان يصبروا شهراً ، فاذا دعاهم قائد المسلمين ، كما دعا غيرهم كان ذلك اعترافاً منه بمنزلتهم بين العرب ، والا كان له عذر ، ان النظر في شؤون الجيش الذي معه ، يمنعه من ارسال نظره الى البوادي والشواطىء التي تقيم بها بعض العشائر ، من أبناء جنسه .

ـ ومن اقترح ذلك ؟ ـ أنا .

وكانت سليمى ذات رأي ، فقالت : اما أنا فلي اقتراح آخر سأذكره لأبي زبيد الساعة . قال : ولا تذكرينه لي ؟

ـ بلى ، ان الانتظار شهراً لا تحفظ معه كرامة العشائر ، فقد يمر الشهر وانتم لا ترون أحداً من المسلمين ..

ـ ولكننا نخوض المجال عندئذ كما ذكرت .

ـ وأين هي الكرامة يا بني ؟ ـ وماذا نفعل اذن ؟

ـ يذهب ابو زبيد الى الحيرة ، على عادته في كل عام . ـ نعم .

ـ ثم يسير أبوك وعبد الله بن الفهر الى عشيرتها ، ويأخذان الى ساحة القتال طوائف من الخيل يظهران للمسلمين أنهما قدما ليبيعاها للجيش الفاتح .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تقع العين على العين بعد ذلك ، فيعمد القائد الاكبر الى شراء الخيل ، ثم يدعو أصحابها الى الحرب . ـ وان لم يفعل ؟

ـ لا بد له من ان يفعل فهو يحتاج الى جميع العربان القادرين على حمل السيف .

قال : لقد رأيت الآن ما لم نره نحن امس وهذا خير ما نلجأ اليه ..

وزاد قائلاً : واذا غفل القائد عن الدعوة امتشقنا الحسام ..

قالت : يظهر انك راغب في الحرب يا بني .

ـ ليست الرغبة وحدها هي التي تملي عليّ ذلك ، ولكن ليس من الرأي ان نبيع خيلنا ونعود من الساحة اذا لم يندبنا المسلمون الى الاشتراك معهم في حرب الفرس . قالت : أصبت ، فليكن هذا وليفعل الله ما يشاء .

ثم قالت : على اني أسألك ان تسهر على هند وتمنعها من ركوب الخيل عندما تتلاحم السيوف . قال : لا أحارب الا على هذا الشرط .

فقالت هند : وماذا أصنع في الميدان ان لم أركب فرساً ؟

ـ تنظرين في أمر الجرحى كما تصنع نساء العرب ، وتشاركينهن في اعداد السهام والطعام وقد تحملين الماء للجيش .

قالت : اما الماء فاحمله ولكن أحمل معه السيف ..!

قال : خير لي ان تبقي في طيء ويحرمني الأقدار من النظر اليك ، من ان تخوضي ذلك البحر العجاج الذي يقذف الدماء ..

ـ ولكنك ستخوضه انت مع ابي وأخوي ..

قال : لقد خلقنا نحن الرجال للحرب ..

قالت : لقد رأيت ان المرأة العربية تريد ان تكون عوناً لرجلها في ساحة القتال وقد تفعل ما يفعل . ـ أما نحن فنريد ان تبقى نساؤنا في مضاربهن ..

فقالت سليمى : ستنظر في هذا يوم نصبح في العراق .. قم يا بني واذكر للقوم ما تحدثنا به الآن . قال : أرجو ان تعدني هند بانها لا تحمل السيف .

قالت : أعدك بهذا على ان أمشي وراء الصف الذي تكون فيه مع زبيد وزياد ..

ـ بل تقيمين بالموضع الذي تقيم به النساء وتمشين الى الناحية التي يمشين اليها .

فترددت قليلاً ثم قالت : واذا ركبت احداهن فرساً واقتحمت الصفوف ؟

ـ نسأل القائد عندئذ ان يأذن لك في ذلك .

قالت : لقد رضيت فليحرس الله النمر وطيئاً .

فابتسم قائلاً : وليقصر أيام الحرب ..

وخرج الى حيث يقيم القوم ، وذكر لهم اقتراح ام زبيد ، فاستحسنوه ، وأجمعوا عليه وباتوا ليلتهم وكل واحد منهم يغني على ليلاه ...

* * *

٢٠

تهيئي للرحيل يا كبشة بعد يومين .

قالهـا كليب لأخته ، والحقد يجيش في صدره ، ودموع القهر في عينيه ؛ فنظرت الفتاة بهدوء قائلة : الى أين يا كليب ؟

ـ الى الحيرة اولاً ثم الى الميادين التي تجول فيها خيول المسلمين .

ـ اذن فقد عولتم على الحرب .

فتمتم يقول : نعم ، لقد عولنا على الحرب ... على الحرب !

ـ وأين عمك والمنذر ؟

فبدت على شفتيه تلك الابتسامة الهـائلة وقال : عمي وابن عمي .. في ديار بني طيء . ـ وما هذا الذي أراه في عينيك ؟

فخفض صوته قائلاً : في عيني أثر ذل لا يزول .. وعار حملني إياه عمك انس ابن هلال ، وابو زبيد الطائي .. بل ترين في عيني ناراً لا يخمد لظاهـا حتى أضع خنجري هذا في صدر المنذر اللعين ، وأجعل عمي وأبا زبيـد جثتين مضرجتين بالدماء ..

وكانت كبشة تعرف أخاهـا .. وكثيراً ما كانت تنهاه عن الاستسلام الى عواطف ضغينته وحقده ، فقالت له وصوتها يرتجف ، وقد ملأ فؤادها الخوف : وماذا جرى لك في طيء ؟

فقال وهو يمضغ الألفاظ : لقد طردنا عمك من النمر كما تطرد الصعاليك !

فأيقنت عندئذ بان عمه لم يعمد الى طرده، الا لأنه أخرجه عن حده فقالت: أفعلها أمام القوم ؟ ـ نعم وقد أقسم أنه سيضرب عنقي اذا بقيت في عشيرته !

ـ وكيف كان ذلك ؟ ـ بدأ هو وولده بالاستخفاف بي وباختي ..

وسكت ، ثم جعل يتنهد تنهد الجريح .. فقالت : خبرني يا اخي كل مـا جرى لك ؟

قال : لقد خطب عمنا هنداً بنت ابي زبيد لولده المنـذر ، فكانت هذه

الخطبة اول خطوة الى الاستخفاف بابنة اخيه ..

فأحست كبشة ان سهماً اصابها في قلبها ، ولكنها تجلدت خوفاً من ان تنكأ الجرح ، ثم قالت : وهل ابصر المنذر هنداً قبل الخطبة ؟

ـ لقد رافقها من مضارب طيء الى مكان يدعى الربـدة ، ونشأ الغرام في تلك الساعة القصيرة بين الاثنين .

فقالت : لم يشأ المنذر إلا ان يمشي وراء عاطفته .. انه حرٌ في اختيار زوجته .

ـ ولكن عمي لم يكن حراً في اختيار الزوجات للآخرين .. خطب للمنذر ثم قام ابو زبيد يخطب الزهراء لابنه الأكبر ، فلم يتردد عمي في القبول وقد وعده بأن الخطبة ستتم بعد شهر ، يوم يجتمع القوم في الحيرة قبل ان يسيروا الى الميادين . ـ وهذا ايضاً من حقه يا كليب فلا تغضب ..

ـ اردت ان اقول ان خطبة الزهراء كانت الخطوة الثانية . ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم اراد بعد ذلك ان يبحث بين مضارب طيء ، عن فتاة يخطبها لي وانا في القوم وليس لي رأي في ذلك !! ـ اي أنه اراد ان يجعل فرح العشيرة كاملاً.

ـ اجل ، وكأنه كان يقول لي: لم تكن صالحاً يا ابن اخي للزهراء، فاخترت لك فتاة من طيء .. وكأنه كان يقول لك : وانت يا كبشة لا تصلحين للمنذر فاخترت لك زياداً الطائي .. ـ ومن هو زياد هذا ؟

ـ ابن ابي‌زبيد الأصغر . ـ وماذا صنعت عندئذ حتى انتهى الأمر بطردك؟

ـ طلبت اليه عندئذ ان يهتم بأمر ولديه ، ويترك ولديّ اخيه ، فلم يرض وغضب من هذا الجواب اقوله له على مسمع من القوم .

وجعل يروي لها الرواية كما جرت ، وهي مطرقة تصغي اليه ، وقلبها يضطرب ، وقد جالت الدموع في عينيها الصافيتين ، ثم قالت : وعلى أي شيء عوّلت الآن ؟ ـ على الأمر الذي يعوّل عليه كل رجل شريف يُستخف به .

ـ اذن فأنت تفكر في الانتقام .

ـ نعم ولا تصفو لي الأيام حتى يتم ما افكر فيه .

فرأت تلك الفتاة العاقلة ان تصور له فظاعة فكرته ، فقالت له : أتقتل عمك يا كليب ؟

ـ اقتل عمي وابن عمي ، وابا زبيد النذل الذي يستهين بضيوفه !!

ـ وكيف تفعل ذلك وانت وحدك وهم كثار ؟

ـ اقتلهم واحداً بعد واحد في ساحة القتال .

ـ ولكن العشيرتين تعلمان عندئذ انك الفتى الغدار الذي يطعن الأمراء الأبرياء ، من الوراء ، ويقطع بيده صلة الرحم !

ـ اما انا فلا ابالي بالعشيرتين ولا انظر إلا الى هذه النفس الثائرة ، اغذيها بالدماء ... فقالت : وهل تعلم يا اخي انك تموت بعد ذلك ؟

ـ بل اعيش ، فأنا سأترك العشيرة بعد يومين على ان لا اعود اليها العمر كله.

ـ واكون انا معك . ـ أجل .

ـ وأين نقيم؟ ـ نرحل بعد القتل الى الشام فنبقى فيها ما طاب لنا البقاء.

قالت : لقد نسيت ان النمر وطيئا ستحاربان تحت لواء المسلمين ..

ـ واذا كان هذا ؟

فقالت وهي تتظاهر بانها لم تسمع : ونسيت أن الشام قد أصبحت في ايدي هؤلاء الفاتحين ، وان النمر وطيئاً سيطلبونك بقوة عمر بن الخطاب الذي هو اعدل اهل هذا الزمان ، ولو كنت فوق السحاب ...

قال : ان عمر في المدينة !! ـ ولكن قواده وعماله في الشام .

ـ وماذا يصنع بي اذا فعل ؟

ـ يضرب عنقك في احدى الساحات ويقول للناس : هذا جزاء الغادرين ...

ـ اذن نرحل الى تلك البلاد التي ولد فيها المسيح بن مريم ـ الى فلسطين ؟

ـ نعم . ـ ولكني ارى ان لواء الاسلام ، سيخفق في تلك الديار ، في هذا العام أو العام الذي بعده .

ـ اذن نجعل بلاد فارس مقراً لنا ...

قالت : تحارب القوم وتقيم بديارهم؟؟ ومع ذلك فستكون البلاد التي ذكرت

ملكاً للفاتح ، وستخسر فارس عرش الاكاسرة .

فسكت قليلاً ثم قال : اذن اقتل نفسي ، وحسبي اني ارحل عن هذا العالم وقد قتلت اعدائي المستخفين بي .. !

فحاولت ان تخمد نار حقده ، من ناحية اخرى ، فقالت : وتترك اختك ؟؟

ـ ولماذا تطمع اختي في حياة ، أولها ذل ، وآخرها شقاء ؟ أتؤثرين الحياة يا كبشة مع العار ، على الموت الذي لا عار فيه ؟

ـ واين هو هذا العار الذي ذكرت ؟

ـ ألم يكن ابن عمك المنذر ، ارفع منك مقاماً ، في نظر نفسه ، وأشرف نسباً وهو ابن انس ، وانت ابنة خالد ، وخالد وانس ابنا هلال النمري ؟!

فتجاهلت الأمر قائلة : وأي شأن للنسب والمقام فيما تقول ؟

قال : لقد رضي المنذر بتلك الفتاة الطائية ، التي لا يعرف عنها شيئاً ، خطيبة له ، ولم يرضَ بابنة عمه التي نشأت معه في بيت واحد ..

قالت انها قضية عاطفة وحب ، وانا لا الوم المنذر .

ـ وهل كانت قضية الزهراء وزبيد ، عاطفة وحباً ، وهي لم تره ، ولم يخطر لها من قبل ، ان في قبيلة طيء ، فتىً يدعى زبيداً ؟

ـ ولكن الزهراء لم تعلم بعد بهذه الخطبة ...

ـ غير ان اباها يعلم ... والذنب ذنبه لا ذنب الزهراء .

قالت : لننظر في الأمر من جميع نواحيه ، كما يفعل القوم العقلاء .

ـ قولي ما تشائين . ـ ألا تجد لعمك عذراً فيما فعل ، يا كليب ؟

ـ بلى .. أجد له عذراً واحداً هو انه يبغض ولدي اخيه ، ولا يطيق ان يرتفع لهما صوت ...؟

ـ اما انا فقد وجدت له عذراً آخر هو انه اراد ان يصاهر طيئاً ، ويصاهروه ليجعلهم حلفاء للنمر ، في الخير والشر .

قال : كان عليه ان يقول لذلك الطائي : ان الزهراء ستزّف الى ابن عمها الذي طلبها قبل زبيد .

ـ ألم تقل لي الآن ، ان الغرام نشأ في ساعةٍ قصيرة ، بين المنذر وهند ؟
ـ بلى ، وكنت اقرأ غرامها في العيون .
ـ اذن فانا اصف لك الموقفَ ، كأني أراه .. لقد سأل المنذر أباه ان يخطب له هنداً ، بعد ان اعترف له بغرامه ، فكانت الخطبة .. ثم قام أبو زبيد يخطب الزهراء لولده ، فلم يشأ عمك ان يردّ طلبه ، خوفاً من ان يبخل الأمير الطـائي بهند ، بعد ذلك الردّ .
قال : لقد بدا لي الآن انك تريدين ان تخلقي له العذر ..
ـ بل اريد ان آظن خيراً وتنسى ما جرى ...
قال : لا انسى حتى أرى هذا الخنجر ملوثاً بدماء الثلاثة ...
قالت : لقد غضبت لكرامة اختك وكرهت ان يتزوج المنذر فتاة غـيرها أليس كذلك ؟
ـ نعم . ـ ولكنك كنت مخطئاً في غضبك فانا لا أريد المنذر زوجاً لي ولو جعلني ملكة على عرش . قال : تقولين هذا لتخمدي النار ..
ـ بل أقسم لك أني لا أتزوجه ولو سجد بين يديّ كل يوم كما يسجد لله !!
فظهر الاستغراب على وجهه وقال : وهل تحبين فتىً آخر من فتيان العشيرة؟
ـ لم يبزغ بعد فجر هذا الحب .. ـ وماذا إذن ؟
ـ اذا أكرهتني الأقدار على الزواج فتشت عن رجل كريم المحتـــد ، كريم الخلق ، يغمرني بعاطفته ، ويفاخر قومه بي .
قال : ليس في العشيرة فتىً أكرم محتداً ، وأعرض جاهاً ، من ابن عمك ..
ـ ولكنه لا يحبني ، وانا بحاجة الى حبه ، اكثر من حاجتي الى الجـاه الذي يتمتع به .
ـ أي انك تؤثرين الفتى الذي لا ينظر ، في زواجه ، الا الى عاطفـة قلبه .
ـ أجل ، وما هي قيمة المرأة اذا كانت سلعة تبـــاع وتشرى ، على قدر المصلحة والغاية .. لقد أبى المنذر ان يتزوج ابنة عمه ، ومعنى ذلك انه لا يحبها فانا اذن أرفع صوتي في أحيـــاء العشيرة وأقول للقوم : اذا مدّ المنذر يده إليّ

حولت وجهي عنه .

ثم قالت : افعل هذا يا أخي، وأنا واثقة بأن ابن عمي لم يتعمد الاساءة إليّ ، ولكنه أراد ان يتزوج الفتاة التي تحسن في عينيه !..

وكان الصواب فيما تقول. فحنى كليب رأسه وقال : ليحب اللعين من يشاء ، وليتزوج بمن يشاء ..!

قالت : ولكن لم يبق لك الآن إلا ان تغفر للمنذر عمله ، الذي تعدّه ذنباً .

قال : لك ان تغفري له انت هذا الذنب ، أما انا فلا أعرف ما هو الغفران واذا نسيت المنذر وغرامه ، فلا أستطيع ان أنسى أباه الذي آثر الغريب على ابن أخيه .. قلت ان المنذر أحب ، ولكن الزهراء لم تحب ، وقد خطبتها الى أبيها قبل ان يخطبها اليه ذلك الرجل ، فكان عليه ان يرضى بي ، وانا من لحمه ودمه .

فهمت بالجواب فأسكتها قائلاً : أقسم بالله اني سأثأر بالكرامة الجريحة ولو كان القدر نفسه ، عدواً لي .

فلجأت كبشة ، بعد ذلك القسم الى الحيلة قائلة :

ـ اذا كان لا بد لك من الثأر ، فانا لا أخالفك فيه .. ولكن لي شرطاً .

ـ ما هو ؟ ـ هو ان تخرج من المعركة ظافراً برغبتك .

وجعلت تبتسم له وهي تقول : أريد ان أعلم الساعة ما يخطر لك ..

قال : يخطر لي ان أغادر الحي بعد يومين كما ذكرت قبل ان يجيء المنذر وأبوه ، وسآخذ معي الى الحيرة كل ما تملكه يداي . ـ وبعد ذلك ؟

ـ أمكث بها شهراً حتى تقدمها النمر وطيء فأجثو عند قدمي عمي ، واستغفره من ذنبي قائلاً له أمام القوم : لقد خرجت من العشيرة كما أمرتني ، وها أنا نادم على ما فعلت .!

قالت : أراك تهزأ بي . ـ اقسم لك ان الهزء لم يخطر لي .

ـ وكيف تستغفره وانت تقول الآن انك ستطعنه في هذا الخنجر ؟!

ـ أفعل ذلك متظاهراً بالندم ، لأحمله مع ولده المنذر على الوثوق بي ، كما كانا

يفعلان من قبل ..   ـ ثم تغدر بالاثنين عندما يجن الظلام ..
فقهقه ضاحكاً ثم قال: أتظنين اني أقدم على القتل وهما في العشيرة ، وحولهما الرجال والحراس ؟   ـ ومتى تفعل ذلك إذن ؟
أفعله في الميدان يوم تتلاحم السيوف وتسقط الأجساد جثثاً تحت حوافر الخيل .! أجل ، في تلك الساعة الرهيبة التي تباع فيها الأرواح ، وينسى المرء فيه أباه وأخاه وولده ، بل ينسى نفسه .. أعمد الى هذا الخنجر فأضعه في ظهر عمي اللعين ، ثم أنتزعه واركض فرسي حتى أعثر على المنذر ، فاصف له الدواء نفسه وأغوص في الصفوف محتجباً عن العيون ..!!
ـ أي انك تستريح من الاثنين في يوم واحد .
ـ نعم ، وعندما يبسط الليل ظله فوق معسكر المسلمين ، أعود الى مضارب طيء حاملاً بيدي الموت لأبي زبيد ، ثم انثني الى موضع عبيدي ونوقي كما ينثني الفارس الظافر من الساحة ، وأطبق جفني مطمئناً هادئاً وانا أهضم ذلك الانتقام.
وضحك ضحك الثائر المجنون ، الذي يخرجه حقده عن الرشد فضحكت كبشة مثله وهي تقول : تنام يا أخي مطمئناً هادئاً والقوم يطلبون بدم الامراء الثلاثة الذين كانوا ضحية غدرك ؟
قال : اذا عرف القوم القاتل، أطلقت العنان لفرسي وجعلت الفضاء الرحب ملجألي .   ـ وأبقى انا وحدي ولا معين لي ؟
ـ بل تلحقين بي في اليوم الثاني الى الموضع الذي اذكره لك قبل الفرار .
فأخفت وجهها بيديها وتظاهرت بالبكاء .
فقال : أتبكين يا كبشة وانا أحاول ان أثأر للشرف الذي أهين ؟
ـ وكيف لا ابكي وانت لا تبالي بي ، وستتركني بين صفوف الفرس والعرب، فريسة لكل نذل وعرضة لكل نهّاب ..!؟
ـ وهل ترين اني استطيع ، وانا وحدي ان أرد القوم الأنذال الذين يعرضون لك بسوء ، قالت : يكفي انك تدافع عن اختك حتى تخور القوى .
قال : سأعمد إذن الى تدبير آخر ترضين به .   ـ ماذا ؟

ـ أختار لك ولعبيدي موضعاً في بادية الجزيرة تقيمون به ، ثم أعود الى الساحة وحدي لأغمس خنجري بدماء الذين أساؤوا اليّ !

ـ ولكن قبائل كثيرة تقيم بطرف البادية .

ـ أجعلك جارة لأحد الأمراء فينتهي الأمر .

فأطرقت ملياً ثم قالت : خير لي ولك أن تحارب مع القوم ، كما يحارب الفتى المخلص لعشيرته ، ثم تنظر في أمر انتقامك بعد ان يغمد السيف .

قال : أخشى ان اقتل في الحرب قبل أن ادرك ثاري ، وانا قد أقسمت الآن

قالت : أعاهدك يا أخي على ان أبر في قسمك اذا قتلت !!

ـ انك لعاجزة ، فلا تحاولي ان تقتلي عاطفتي المتأججة في هذا الصدر .

ـ إذن اسألك ان تبقيني مع نساء قومي وليفعل الله ما يشاء .

ـ بل تبقين خارج المعسكر .

ـ ان بقائي حيث تقول يفسد عليك امرك . ـ وكيف ذلك .

ـ أتظهر لعمك الطاعة والندم ، وتضرب خيامك خارج العشيرة ؟

قال : أصبت فليس من الرأي ان ألفت الأنظار ، ونهض قائلاً : قومي الآن وأعدي معدات الرحيل .

قالت : بقيت لي كلمتان أقولها لك . قال : هاتي الأولى .

قالت : ألم يجعل القوم موعداً للزواج ؟

ـ بلى ، فموعده بعد ان تنتهي حرب الفرس .. وكلمتك الثانية ؟

ـ أتريد ان أقص ما جرى لك ، على الزهراء ؟

فهزّ رأسه قائلاً : وماذا تصنع الزهراء ؟ انها ستبتسم للحكاية كما يبتسم الغريب الذي لا شأن له ، ثم لا تلبث حتى تقول : الأمر في يد ابي وانا خاضعة له .. لا ، لا اريد ان تقولي لها شيئاً فقد أنفت من الاستخفاف وجاء دوري في الكبرياء .

ودخل الى مضربه واستلقى على فراشه نائماً ملء جفنيه . فاغتنمت كبشة الفرصة السانحة ، ومشت الى خيمة الزهراء فخبرتها كل شيء دون ان تذكر

لها كلمة عن فكرة الانتقام ، ولكنها لم تتردد في القول ان اخاها ثائر ومجنون ، ثم دار بين الاثنتين ، على ذكر جنونه ، حديث طويل ، انصرفتا بعده وهمـــا تبتسمان ..

٢١

مرت الايام الثلاثـة على ضيوف بني طيء ، فرحلوا الى بلاد قومهم ، يحملون في الصدور عواطف الشكر ، لذلك الأمير الطائي الذي أحاطهم بجميع مظاهر التكريم والفضل .. إلا المنذر فقد بقي في طيء ، والقوم يتهيـأون للرحيل الى الحيرة ؛ وكان الحب قد نما بين العاشقين، ثم اشتد فاصبح هياماً مبرحاً . ولم تطل إقامة المنذر بديار طيء ، فان أبا زبيد أمر عشيرته بالمسير ، بعد بضعـــة أيام وتقدمها هو وبنوه واهل بيته ، الى عاصمة الملوك اللخميين .

وكان كليب بن خـــالد واخته كبشة ، يقيمان بتلك العاصمة ، وراء القصب النابت على شاطىء الفرات ، ومعهما العبيد والنوق .

وقد عرف النمري الثائر ، ان ابن عمه قدم الحيرة مع الطـائيين ، ولكنه لم يشأ ان يطوف في الأسواق ، خوفاً من ان تقع عليـه العين ، قبل ان يجيء عمه انس بن هلال .

كان يريد ، كما قرأت ، ان يفاجىء عمه بمظاهر توبته، ويخدع القوم باستغفاره الكاذب ، ليستعيد الثقة الضـائعة ، والمنزلة التي كانت له . على ان كبشة لم تكن بلهاء ، فقد كانت كلها عيوناً تتبع كليباً ، في رواحه ومجيئه ، في ليله ونهـاره ، لتمنع يد الموت من ان تمتد الى عمها انس ، وابن عمها المنذر الذي كانت تطمع في زواجه فخانها الحظ .

وهي عاطفة عالية ، لا تنطبق الصدور ، على اشرف منها ، وأبعد أثراً .. كانت ترى ، ان في موت عمها وولده ، موتاً لذلك العز الذي تتمتع به العشيرة ،

بين قبائل العربان ، بل كانت ترى ، ان اخاها الثائر ، الذي لا يفكر الا في نفسه ، فتى مجنون ، يريد ان يقضي على قومه القضاء الأبدي ، ويجعلهم مضغة في الأفواه !

يفعل كل ذلك من اجل فتاة تدعى الزهراء .. أحبها فلم تبال بحبه ! بل لم تبال بالحب نفسه الذي لم تكن تعرف ما هو . أجل ، لقد جرح المنذر كبرياء كبشة ، في رفضه الزواج ، ولكنها كانت تعلم ان ذلك الرفض لم يكن استخفافاً كما يقول كليب ، بل كان سببه القلب الخلي .

وهب ان رفض المنذر كان كما يظنه كليب ، فهو لا يصلح ، في نظر كبشة لأن يكون سبباً لذلك الانتقام الرهيب الذي يفكر فيه . وكان عيشها في الحيرة ، في ذينك اليومين ، عيش شقاء وتعب .. تنام عندما ينام كليب ، وتنهض من فراشها عندما يستيقظ ، وتخرج وراءه ، يستر وجهها حجاب ، كلما خطر له ان يمتع نفسه ، بالنظر الى صفوف الجيش العربي ، النازل على الفرات ، حتى أقبلت النمر وبنو تغلب ، ومعهم الخيل ..

فاستقبلهم ابو زبيد وولداه والمنذر ، ولم يلبثوا حتى ضربوا خيامهم في طرف البلد الغربي . وكان جيش المسلمين وقواده في الحيرة ، وقد نزلوا فيها ، بعد ان ظفروا بالفرس ، في « كسكر » وضواحيها ، وهزموا قائدهم جالينوس ، كما قرأت .

وكان ابو عبيد ، عندما قدم الحيرة ، قد ذكر وصية امير المؤمنين عمر بن الخطاب التي أوصاه بها يوم زحف الى العراق .

لقد قال له : « انك تقدم على ارض المكر والخديعة والخيانة ، تقدم على قوم تجرأوا على الشر ففعلوه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واحذر لسانك ولا تفشين سرّك » ، الى آخر ما هنالك من النصائح الغالية .

نعم ، كان ابو عبيد وهو في العراق ، يذكر وصية مولاه ، فكان شديد الحذر ، حسن التدبير ، ينصت الى كل كلمة تقال له ، ويأمر قواده بالسهر على الجيش وقضاء الحاجات .

وكثيراً ما كان يراه الناس ، مع سعد بن عبيدة ، وسليط بن قيس ، والمثنى ابن حارثة ، يطوفون بين الصفوف ، لينظروا في شؤون الجند الواثق بنفسه ، ويلمسوابأيديهم ، ذلك الشعورالصادق ،المتغلغل فيالصدور ، والجيش كله ، في يقظة دائمة ، لا تدخل او تخرج من الحيرة ، ناقة او فرس ، الا باذن القواد . فلما وصل انس بن هلال ، وعبدالله بن الفهر ، بلغ أبا عبيدة خبر وصولهما ، فقال لأركان حربه : انظروا من وراء الستار ، في الأمر الذي قدما لأجله ، ولا تتعرضوا لهما . فقيل له : ان معهما خيلاً ستعرض على الجيش. قال: ونحن سنشتري ما يعرضان .

وهكذا فعل ابو عبيد ، يوم قدم ابو زبيد الطائي ، سأل عنه ، فلما عرف من هو ، اكتفى ببث العيون حوله وحول عشيرته ، وكان جواسيس المسلمين ، قد نقلوا الى ابي عبيد ، انالفرس يتهيأون للزحف من جديد بقوة جبارة تتقدمها الفيلة ، فأقام ينتظر وصول تلك القوة وهو على تحفظه وهدوئه .

٢٢

رأت الزهراء زبيد ، ورأى زبيد الزهراء ... فتخاطبا أولاً بلغة العيون ، ثم انتقلا الى تلك اللغة الفصحى ... التي يصف بها الحبيب لحبيبه ، شوقه وهواه ...

وانتهى الأمر بأن أمسيا خطيبين ، وعين كليب ، ترى كل ذلك من وراء الجدر ... فبينا القوم في احدى الليالي يتحدثون بامر الحرب ، دخل زياد قائلاً لأنس : سمعتك تقول ان ابن اخيك ترك العشيرة مع عبيده واخته ، وانت لا تعلم الى اي بلد كان رحيله .

فمدّ القوم أعناقهم ليسمعوا حديث الفتى ، أما انس فقال : وما هي الغاية من سؤالك يا زياد ؟

ــ لقد رأيت كليباً ..! ــ في الحيرة ؟

ـ نعم في الحيرة وقد مررت به اكثر من مرة دون ان أعرفه .
ـ وكيف استطعت بعد ذلك ان تعرف من هو ؟
ـ تصدى لي ، ثم رفع عباءته وعرّفني بنفسه .

فاستيقظت في صدر الأمير عاطفتان ، عاطفة الغضب على الفتى الوقح الذي تجرأ عليه ، وعاطفة الحنان ، على الطريد الذي ليس له موضع يلجأ اليه .

وكان المنذر يصغي الى ما يقوله زياد ، وبريق الاشفاق في عينيه .

اما هند ، فقد دب الخوف في فوأدها من جديد ، واحست ان ذلك النبأ ، اول دليل من دلائل الشقاء ...

على ان الزهراء كانت تبتسم ولكنها لم تقل كلمة .

ثم قال انس لزياد : متى كان ذلك ؟
ـ منذ لحظة ، وهو الان ينتظرني في كوخ له عند الجسر .
ـ اذن فأنت تريد الرجوع اليه ..
ـ اجل ، ولكني لا ارجع الا اذا نقلت اليه انك راض عنه .

قال : اعد عليّ ما قاله لك .
ـ لقد لعن تلك الساعة التي خرج فيها عن الطاعة ، وهو نادم اشد الندم على ما كان ، ويطلب اليك ان تأذن له في المثول بين يديك ليعترف بذنبه ..

فجالت الدموع في عيني الأمير وقال للقوم : بماذا تشيرون ؟
فقال ابو زبيد : مر باحضاره لأسأله ان يغفر لي ما فعلت !
وقال المنذر : ادعه الساعة يا ابي ..
وكانت هند تتمتم الفاظاً لا يفهمها احد .
فقال ابن هلال عندئذ : ليحضر زياد ولتحضر اخته .

فخرج الفتى الطائي وهو لا يصدق متى يرى كبشة التي اراد عمها ان يخطبها له ، يوم خطبت هند ، في الربدة ، فلما انتهى الى الجسر ، رأى رجـــلا واقفاً بالقرب منه ، وسمع ذلك الرجل يناديه ، واذا هو كليب ، فقال : لقد اذن لك أنس في الذهاب وهو راض .

قال : اشكرك وارجو ان يكافئك الله .. أنذهب الآن ؟

ـ نعم ، على ان تذهب معك اختك فعمك يريد ان يراها .

فعرف اللعين عندئذ ، ان عمه يريد من وراء هذه الدعوة ان يخطبها لزياد ، ليستوثق في تلك الخطبة ، من الندم الذي سيظهره هو له ، فقال : ليكن ما يريد عمنا ولندعُ كبشة .

ثم تقدمه وراء القصب على الضفة الثانية حتى وصلا الى الخيمة فدخل كليب اولاً ثم دخل زياد ، ولكنهما لم يريا أحداً ..

فجعل كليب ينادي اخته فأقبلت وهي هادئة وكانت تقول : اطوف كل ليلة حول خيام العبيد في مثل هذه الساعة لأرى النوق ..

مع انها كانت تتبع اخاها وقد سمعت حديثه مع زياد ، وايقنت بانه سيعمد الى تنفيذ الخطة التي ذكرها لها قبل ان يتركا العشيرة .

وكان قلبها يخفق كما يخفق قلب الفتى الواقف الى جانب كليب ..

لقد كانت تعلم عندئذ ان في خيمتها ذلك « الخطيب » الذي لم يساعده الحظ كما ساعد زبيداً والمنذر ..

وكان في الخيمة سراج يبعث نوراً ضعيفاً مضطرباً ، فقال كليب : لقد ارسل عمنا يدعونا اليه ..

وكانت كبشة تنظر الى الأرض ، فأجابته قائلة : لقد قلت لي ان عمنا غير راض عنك وقد طردك من النمر .

ـ اما الآن فقد رضي بفضل الأمير زياد الطائي الذي حدثتك بأمره .

فخطا زياد خطوتين ومد يده مسلماً .

فصافحته وهي تنظر اليه وقد تلألأ نور السراج في عينيها السوداوين ..

فرأى زياد فتاة سمراء ، ذات صوت عذب وحياء ، ولكنه لم يستطع ان يتبين ، على ذلك النور الضعيف تلك الملامح الجذابة وذلك الجمال البدوي الفياض بالسحر .

ومع ذلك فقد أحس بالحب يلمس روحه وبذلك الخفقان يزيد ويشتد ..

ثم تراجع قائلاً: لم يكن ما جرى في الربدة غير حادث يجري في كل عشيرة، وكل بيت في كل يوم . فتجاهلت الأمر وهي تقول : لم أعلم مما جرى ، غير بضع كلمات قالها اخي لعمنا فانتهت بطرده .

فظن زياد في تلك الساعة ان كليباً أمسى صديقاً له ، وانه يستطيع ان يقول كل شيء فقال : لو اذن لي كليب ان اقص عليك ما جرى لفعلت .

فبدت على شفتي ابن خالد ابتسامة هائلة اخفاها الظلام .. ولكنه لم يتردد في جوابه فقال : لك ان تقول يا زياد ما تشاء فأنا قد نسيت الماضي وكنت مخطئاً .. اجلس وخبّر كبشة ما تعلم . وهمَّ بالخروج من الخيمة .

فاستوقفته كبشة قائلة : الى اين يا كليب ؟

ـ اوصي عبيدي بالسهر ثم أعود .

ولعله اراد ان يمهد للاثنين سبيل التعارف فيقعا في شرك الحب ويصبح زياد عوناً له على بلوغ غايته ؛ او لعله اراد ان يظهر انه يثق به كما يثق بنفسه .. ولم يلبث حتى خرج . فقالت الفتاة : قصّ عليَّ الآن حكاية الربدة .

قال : لقد خانني الحظ في الربدة وبسم لسواي . ـ انت ؟

ـ نعم انا فأخوك كليب لم يغضب لكرامته إلا عندما ذكروا له كبشة وزياداً . ـ ولكني لم أفهم شيئاً ..

قال : أراد انس امير النمر ان يجعلك خطيبة لي ، كما جعل الزهراء خطيبة لزبيد، فتصدى كليب لعمه قائلاً له : ان كبشة لا تزف الا الى الفتى الذي تهواه.

وسكت قليلاً وهو ينظر اليها نظرات الاعجاب .

فقالت : اذن كانت كبشة سبباً لذلك الجفاء بين العم وابن اخيه .

ـ بل كنت انا السبب ، فلو لم يخطر للقوم ان يختاروا لي زوجة لما كان هذا الجفاء الذي تذكرين .

ثم قال : ولم أكن اعلم من قبل انك تحبين المنذر وتؤثرينه على جميع الفتيان .

فقاطعته قائلة : من قال لك اني احبه ؟

ـ سمعت كليباً يذكر ذلك لعمه ، في ساعة غضبها !

قالت : لم يكن هنـــالك حب كما تظن ، بل كان ما يشبه الحب ، لقد أراد كليب ابنـة عمه لنفسه ، وأراد ابن عمه لأخته ، فلم تساعده الأقدار ، وهذا هو الحب الذي تصفه الآن .

ـ وكيف يقول كليب أنك لا تتزوجين غير الرجل الذي تحبين ؟

ـ يقول هذا وهو لا يعني المنذر ، فكأنه كان يقول ان كبشة لا تطيق ان تزف الى فتىً لا تعرفه وليس لها رأي فيه .

فتمادى الفتى في صراحته قائلاً : والآن ؟ ـ والآن ماذا ؟

ـ أليس لك رأي في هذا الفتى الذي يخاطبك الساعة ؟

قالت : انـّا في زمن الرأي فيه للرجل لا للمرأة ، يأمرون الفتاة بان تتزوج فتتزوج ، ويأمرونها بان تشقى الى الأبد فتشقى الى الأبد ، والذنب في ذلك ذنب التقاليد القاسية التي تتمشى عليها قبائل العرب في هذا الزمان !

– ولكن في صدر المرأة عاطفة .

– أجل ، غير انهم يكرهونها على خنقها اذا كانت لهم بذلك غاية .. الارادة للرجل،والرأي رأيه، وامره هو القضاء الذي لا يرد. والمرأة آلة صامتة يدفعونها بالأيدي الى حيث يشاءون والويل لهـا اذا ارتفع لها رأس او صوت . فكبرت كبشة في عيني الفتى وجعل يقول : هنيئاً للرجل الذي يخفق هذا القلب بحبه .

– بل هنيئاً للمرأة التي تجد في العرب رجلاً يصغي الى ما تقول .

وسمع الاثنـان في تلك اللحظة وقع أقدام ، فخفض زياد صوته قائلاً : هذا كليب قد عاد .

– بل هو عبد لنـا يملأ القرب من الفرات ويضعها عند الباب .. وخرجت لترى ثم عادت وهي تقول : انه العبد كما قلت .

قال : أسألك سؤالاً قبل ان يرجع كليب ، أتريدين ان يفعـل ابي في مجلس القوم بعد ساعة ، ما أراد ان يفعله انس بن هلال في الربدة ويخطبك لي ؟

فعقدت المفاجأة لسانها ولم تجب . فقال : كلمة واحدة فكليب سيعود . ولكن كبشة المسكينة لم تكن تعلم مـــا هي الكلمة التي تقولها له ، أتقول

نعم ، ثم يقوم اخوها بعد ذلك ، فيقتل ابا زبيد ، فتأبى عشيرة طيء عندئذ ان تضم اليها اخت القاتل؟ ام تقول: لا ، وفي هذه الكلمة خيانة للقلب الذي أحب؟!

خير لها ان تبوح بالهوى الذي أحست به ، وتستمهله في الجواب عن الخطبة ريثما تظهر ثورة أخيها او تهدأ العاصفة . وكان زياد يردد كلمته : سيعود كليب .

فقالت له ، والحياء على خديها ، وهي مطرقة : أكتفي الآن بان أعترف لك، بأني .. احب . فاضطرب قائلاً : تحبينني ، أنا ، ام تحبين سواي ؟

قالت : لقد أحببت الآن ، في هذه اللحظة .

فأشرق جبينه وجعل يقول : إذن هنيئاً لي فقد بسم لي الحظ من جديد ، وستكون الخطبة التي خلقت ذلك الجفاء ، سبباً لزواله .

قالت : أرجو ان لا تذكر هذه الخطبة الليلة .

- بل أذكرها الآن لكليب قبل ان يخاطبه ابي بهذا الشأن .

قالت : أستحلفك بهذا الحب الذي بسط جناحيه فوقنا ألاّ تفعل .

فخفق فؤاده قائلاً : أتصحو السماء ويكفهر وجهها في ساعة واحدة ؟

قالت : تستطيع ان تفعل في الغد ما تريد ان تفعله اليوم .

- ولكن يجب ان أعلم ، لماذا أترك ذلك الى الغد ؟

قالت : لا تظن ان كبشة ابنة خالد النمري ، تحاول ان تخدع زياداً الطائي بقولها انها تحبه . قلت اني أحسست بالحب في هذه اللحظة ، وأزيد الآن ان حبي لا يشتد ولا تزداد لواعجه ، لأن النار التي تحرق فؤادي الساعة هي أبعد غايات الغرام . واما ان تخطبني الليلة الى كليب ، فهذا ما لا استطيعه ولا أريد ان تفكر فيه . فتمتم يقول : يخيل الي اني عرفت ما أريد ان أعرفه .

- ماذا عرفت ؟ - تخافين ان يردني كليب كما ردّني بالامس .

- لا أخاف شيئاً ولكن لي غرضاً . قال : اذكريه لي .

- ستعرفه يوم يأذن الله في ذلك .

قال : ولكن الحرب التي سنخوض غمارها ستمنعنا من النظر في أمر الخطبة.

قالت : سيكون لك بعد الحرب ما ترغب فيه . فكاد الفتى يسقط على الارض

لشدة الصدمة، رأى عينين فاترتين تبعثان أشعة الحب الى قلبه، وشفتين ساحرتين ترددان الفاظ الهوى، بل رأى، في تلك الخيمة السوداء، التي يهتز نورهـــا، سطوراً من نور الأمل كتبتها آلهة الغرام في الفضاء، ثم رأى في الوقت نفسه، يداً حديدية قاسية، تمحو تلك السطور، هي يد الفشل وخيبة الرجاء. وما هي ثمرة ذلك الحين الذي تغلغل فجأة، في فؤاده، كما يتغلغل تأثير السحر اذا كانت كبشة لا تمهد سبيل الهناء به؟! بل اي أمل لزياد بحبه، اذا لم ينته هذا الحب، بما ينتهي اليه كل حب طاهر؟ ان الحب الذي يبدأ بمثل ما رأى، ينتهي بالموت!.. يريد ان يخطب الفتاة التي أحب، فتأبى!! ثم تسأله ان يصبر الى ان يشاء الله!! انها اذن سخرية القضـــاء ومهزلة من مهازل الأقدار!.. خطرت لزياد، وهو في ذلك الموقف، هذه الفكرة الرائعة التي تدفعه الى اليـــأس من غرامه الجديد، وقام في ذهنه، ان الفتاة النمرية السمراء التي تعجل في الاعتراف لهـــا بهواه، أرادت ان تعبث بجنونه، وتهزأ به!!.. وإلا، فاي شيطان أوحى اليها بان تتهرب من الفتى الذي أراد ان يحيطها بفيض من عنايته وعاطفته؟.. وكان يهم بالكلام فتخونه الألفاظ!.. فكادت كبشة تلمس بيدها ذلك الألم الذي يعـانيه فقالت له: سيعود كليب..

قال أؤثر ان يعود الآن فنسكت، على ان أبوح بغرامي فتهزئي بي.

قالت: مشيت انت الى الغرام ذراعاً فمشيت انا فرسخاً وتقول اني هازئة؟

– وما معنى ما سمعت؟ – معناه اني عاجزة عن الرضى بمـــا طلبت لسر لي. – وهذا السر يتعلق بحب فتىً آخر.

– بل يتعلق بي فليس في هذا القلب طائفة من الفتيان.

– اذن سأسأل ابي ان يخطب لي.

قالت: اذا فعلت الليلة خسرت كبشة. – وان لم أفعل خسرتِ زياداً!!

فقالت: أقسم لك بالله الذي جمعنا الآن اني لا أحب سواك، واني أخشى ان تخطبني الليلة فيضيع هذا الحب. ثم ذكرت حديثه عن المنذر فقالت: واما اذا كنت تظن ان للمنذر ابن عمي شأناً بما أقوله الآن، فارجو ان تحسن ظنك وتثق

بان العاطفة التي احفظها للمنذر لا يسمونها حباً ..

وسمع عندئذ صوت كليب يدنو من الخيمة ، فقالت له : اكتف الآن بما سمعت وستعرف بعدئذ كل شيء . ودخل كليب فقال وهو يبتسم : أخبّرتها يا زياد ؟

قال : أعدت عليها الحكاية كما جرت .

– وعرفت يا كبشة من هو الفتى الذي أراد عمك ان يخطبك له ؟ انه زياد نفسه الذي جاء يدعونا الى مجلس التوبة والندم !! أتذهبين الآن ؟

– أفعل ما تأمرني به .

قال : اخرجي اذن فليس لنا إلا ان نستغفر عمنا ، الذي هو أميرنا ، وسيد العشيرة ، واخرج انت يا زياد .. فمشى الثلاثة يريدون مضارب القوم ، وكبشة وزياد يفكران في ذلك الحب الذي أبصر النور ، في الخيمة المظلمة ، والهم يملأ قلب الفتى ، الذي لم يفهم شيئاً من ألغاز الفتاة ، غير انه كان قد وثق ، بتلك اليمين التي حلفتها له ، ولم يبق الا ان يساعده القدر الى النهاية ، فيطلع على الاسرار ، وكانت كبشة مضطربة البال ، لا تعرف الى اي موقف تنتهي بها هذه العاطفة التي اختلجت في الصدر ، اما كليب ، فلم تكن له غير فكرة واحدة ، هي فكرة الخداع ، الذي يعقبه الانتقام .

٢٣

كانت خيمة انس بن هلال ، تغص بالقوم . وكان الجميع قد عولوا على ان يعرضوا خيلهم على جيش المسلمين في اليوم الثاني وتبينوا استعداد ذلك الجيش .

وهند والزهراء ، في تلك الخيمة ، وهما تنظران الى قدوم الفتى الطريد الثائر ، واخته البريئة ، ولم يلبث العبيد القائمون بالباب حتى استأذنوا لزياد ورفيقيه ، ثم دخلوا ، وكبشة لا تعلم لشدة الحياء في اي موضع تضع قدمها ؛ فبدت عاطفة انس على وجهه وأمرها بالدنو منه ، ثم جعل يستدنيها حتى امست

بالقرب منها فقال : اجلسي يابنية فانت اخت الزهراء ..

وعين زياد تتبعها والغرام في نظراته ، وقامت هند والزهراء فجلستا الى جانبها وهما تبتسمان ، وقد هامست هند الزهراء قائلة لها : انها ذات جمال رائع يجذب القلوب .

ولم تستطع هند ان ترسل نظرها الى كليب ، فقد جعل الخوف النفسي حجاباً بينها وبينه . وكان كليب مطرقاً والسكوت يسود الجماعة ، فقال انس : ادنُ يا كليب . فخطا خطوتين ثم قال : ليس لي ان ادنو منك ياعم قبل ان تغفر لي .

فرفعت هند نظرها عندئذ فأبصرت ذلك الوجه ، فقالت للزهراء : انا لا أرى وراء هذا الوجه نفساً تطلب الغفران ، ولم يسمع أحد هذه الكلمة .

وكان انس يقول وقد تلجلج صوته : أتعترف الآن بذنبك يابني ؟

– أجل ، ولم أمثل بين يديك الا لأجل هذا الاعتراف .

قال : لقد بررت في قسمي ولم يبق في الصدر غير الذكرى المؤلمة ، ذكرى فراقك شهراً .. ادنُ مني يا ولدي لأضمك الى الصدر !

وفتح الامير النمري النبيل ذراعيه لأبن اخيه ، فمشى كليب ، ثم جثا على ركبتيه وجعل يقبل ثوب عمه وعيناه مغمضتان !

أجل ، لم يكن يجسر في تلك الساعة على فتح تينك العينين اللتين كانت أشعة البغض تنبعث منهما !!!

فانهضه الأمير وأمره بالجلوس بين زبيد والمنذر ثم قال : لقد انتهى الآن كل شيء يا كليب ، أليس كذلك ؟ – بلى يا عم .

– وهل تذكر تلك الكلمة التي أخرجتك في الربدة عن هداك ؟

لمَ أنس شيئاً مما قيل في الربدة ..!

– اذن نعيدها الآن ونحن واثقون بأن الأمر سيتم على ما نحب .

والتفت الى ابي زبيد قائلاً : لقد رضيت بخطبة هند ، وخطبت لزبيد ، فلم يبق الا ان تخطب لزياد ، فقد رضي كليب وانا اضمن رضى كبشة ! فلم تخفِ كبشة وجهها خجلا كما كان يظن ، بل استطاعت ان ترسل نظرة خفية الى زياد ،

تسأله بها أن ينقذها من الموقف ، فاستأذن الفتى اباه عندئذ في الكلام وقال : لي كلمة أرجو ان تصغي اليها يا مولاي .

فقال ابو زبيد : قل يا بني ، قال : استمهلك في امر هـذه الخطبة الى موعد آخر . – لماذا ؟ – لأن المنذروزبيداً سيتزوجان بعد ان تنتهي الحرب، وسأخطب ، ثم أتزوج في ذلك الحين ، ان بقيت .

– وما يمنعك من ان تخطب الليلة ثم تتزوج يوم يريد الله ؟

– يمنعني من ذلك اني سأشهر السيف على عدو العرب ، فلا اريد ان يذهب غرامي بعقلي ويشلّ يديّ ! فأخفت كبشة عندئذ وجهها بكمها لتتقي نظرات القوم . فقال انس : وهل يشلّ الغرام ايدي زبيد والمنذر ؟

– قد لا يفعل الغرام شيئاًمن هذا ايها الأمير، ولكني أعرف نفسي فلا أطيق أن أخوض المجال الا وانا طليق من كل قيد .

فرأى كليب ان الأقدار تماشيه ، غير انه لم يشأ الا ان يظهر امتعاضه ويتألم مما سمع فقال : يظهر ان زياداً لا يريد كبشة .

فقال ابو زبيد : بل يريدها لأن اباه يأمره بذلك !

فخاف الفتى ان يغضب اباه فقـال : وانا سأفعل ما يأمرني به ابي وسأتزوج الفتاة التي يختارها لي ، قال : لقد اخترت اخت كليب .

قال : اشهدوا ايهـا القوم ، ان اخت كليب ستصبح زوجة لي ، اذا رضيت بي ، يوم يتزوج المنذر وزبيد ، على ان لا اشغل قلبي وعقلي اليوم بغير السيف .. وقال لأنس : سل ابنة أخيك ايها الأمير .

– بل اسأل اخاها : ماذا تقول يا كليب ؟

– أقول ما تقول ، وافعل ما تفعل . – وانت يا كبشة ؟

فقالت وهي تنظر الى الأرض : ان الفتاة التي لا تخرج من خبائها ، لا تحسن الاختيار كما يحسنه عمها وأخوها . فقالت الزهراء : انها راضية ..

قال : والخطبة يا بنية ؟ قالت : ليس لي فيها رأي .

قال : لقد انتهى أمر أولادك الثلاثة يا أبا زبيد ولم ينته أمرنا ، فقـد بقي ان

نختار زوجة لكليب !.. فأجابه كليب قائلاً : سيختارها لي أبو زبيد من حسان طيء .

ـ وتعاهدني على الرضى بذلك ؟ ـ أجل ، ولن أقول كلمة بعد الآن .

فقبل رأسه وقال : قم فاجلس ، ولنتحدث الان بشأن الحرب .

وجعلوا يتحادثون ، ويبدي كل من الرجال رأيه ، الا زياداً فقد كان ساكتاً يستعيد في ذهنه ، ذلك الكلام الذي أكرهته كبشة على قوله .

وكانت هند والزهراء تظنان ، ان وراء ذلك القول غاية من الغايات ..

٢٤

ملأت خيل النمر وتغلب ، في اليوم الثاني سوق الحيرة .

وكان المسلمون بحاجة الى الخيل ، فأمر أبو عبيد ، القائد الاكبر اركان حربه بان يشتروا منها ما يطيب لهم . وأوعز الى القائد الجبار ، المثنى بن حارثة بان يندب أصحاب الخيل للقتال .

فلما فتحت السوق، وبدأ الناس يشترون ويبيعون، سمع القوم مناديا ينادي: لقد أقبل الأمير المثنى .

وكان انس بن هلال ، وعبد الله بن الفهر وابو زبيد الطائي وجميع رؤساء عشائرهم داخل نطاق من الخيل ، فقال انس : أيعرف احدكم المثنى بن حارثة ؟

قالوا : لا . ـ اذن يجب ان نراه ، وقد يخطر لنا ان نحدثه .

ثم قال للعربي الذي ينادي : اين هو الأمير ؟ ـ هو على فرسه وامامه عبدٌ له .

وأومأ الى الموضع الذي أوقف المثنى فرسه فيه ، وكان الناس حوله يحيونه ويهتفون له ، وبينهم بعض الأعراب يتظلمون اليه .

فوقف اصحاب الخيل ينظرون اليه من بعيد ، حتى أقبل وهو يبتسم للناس

القائمين على جانبي السوق ، فرأى في ذلك المكان ، طوائف الخيل ، فقال وهو يتجاهل امرها : لمن هذه ؟

فأجابه انس قائلاً : لقوم من النمر وتغلب ايها الأمير .

فأبصر المثنى رجلاً ترسل عيناه الجلال والهيبة فقال : اين هم هؤلاء القوم ، ومن انت ؟

قال : انا احدهم انس بن هلال النمري ، وأومأ الى الأمراء الآخرين يذكر اسماءهم .

فوثب المثنى الى الأرض وفرسه يمشي وراءه ، وهو يقول : جئتم تبيعون المسلمين الخيل ؟ ـ اجل ، الا ابا زبيد فلا خيل عنده .

ـ إذن قدم الحيرة ليكون عوناً لجيش الاسلام على عدوه ...

فقال أبو زبيد لعبد الله بن الفهر : والله لقد ندبنا الرجل للحرب ، ثم قال للمثنى :

نعم ايها الأمير ، جئت مع رجالي لأحمل السيف مع أبناء قومي العرب .

قال : حياك الله يا ابن طيء ، ومن معك من قومك ؟

ـ معي جميع رجال العشيرة الذين يصلحون لحمل السيف .

قال انكم يا معاشر طيء ، اهل المفاخر والجود وقد عرفت لكم البلاد هذا المقام الذي تحسدكم عليه العرب .. أتعرف أبا عبيد قائد المسلمين في العراق ؟

ـ لم ارَ له وجهاً من قبل .

ـ اذن تسير معي اليه ليتم التعارف قبل ان تزحف الفرس .

قال: أتدعوني وحدي ايها الأمير ومعي الرفاق الذين تخضع لهم قبائل الفرات ؟

فرأى المثنى ان يغتنم الفرصة ، فقال : خفت ان يكونوا انصاراً للفرس فكرهت ان ادعوهم الى مصافحة قائد الجيش ..

فقال انس : لو كنا انصاراً لهم لبعناهم خيلنا ولم نجيء الى الحيرة .

وقال المنذر : اما عرفت ايها الأمير اننا رفاق ابي زبيد ؟

ـ عرفت ذلك الآن ..

– وكيف يقوم في ذهنك اننا أعوان للفرس ، وأبو زبيد عون للمسلمين ؟

قال : من هو هذا الفتى ؟.. فأجابه انس : هو ابني ، ولا اظن ان في جيش المسلمين رجلاً يبغض الفرس كما يُبغضهم هو . – وما اسمه ؟

ـ المنذر ،وقد سماه لك ابو زبيد الآن .

قال : انه سمي الملوك الذين كانت لهم هذه القصور .. ثم قال له : واي رأي لك في هذا الجيش النازل في العراق .

– الرأي في ذلك يعود الى القواد ، قال : أليس لك رغبة في الحرب .

– ارغب فيها كل حين ، وقد ألفتها وانا ابن عشر !!

– ولكنني لم أشهد شيئاً من حربك وانا احب الفتيان الابطال الذين يبرون رقاب الرجال ..

قال : لم يكن المسلمون بحاجة الى سيوفنا . – ومن قال لك ذلك ؟

– لم يقله احد ، ولكني عرفت انكم ندبتم للقتال من تحتاجون الى سيفه .

– بل ندبنا كل عربي يضن بشرف قومه ان تستبيحه الفرس !

قال : ألم ترَ ايها القائد اننا نحن أيضاً من العرب ؟

فقال لمن حوله : يريد الفتى ان نندبه كما ندبنا سواه .

فابتسم قائلاً : اذا أذن لي ابي ذكرت لك ما أشعر به .

فضحك انس وقال : قل يا بني باسم أبيك ما تشاء ، وقال عبدالله بن الفهر : وباسم تغلب ..

فقال : اذن فاعلم ايها الامير اننا سنشارك الجيش الفاتح، في فتح بلاد فارس، دون ان يندبنا أحد للقتال ، فنحن عرب قبل كل شيء .

فأشرق جبينه قائلاً : بارك الله فيك وفي قوم انت منهم ..

والتفت الى مواضع الخيل قائلاً : لقد اشترينا هذه الخيل فقولوا للعبيد ان يأخذوها الى مقر القيادة واركبوا انتم افراسكم لتروا أبا عبيد .

فوثبوا الى افراسهم ، فركبوها ، وكليب معهم وهو يقول في نفسه : حاربوا ما طابت لكم الحرب ايها الانذال ! ..

وتقدمهم المثنى في السوق التي تغصّ بالناس ، من جميع الاجناس ، حتى قاربوا مضرب القائد الاكبر ، على الشاطىء الآخر ، فتركوا أفراسهم، واستأذنوا في الدخول ، وكان أبو عبيد الثقفي ، جالساً على مقعده وهو حامل سلاحه ، فأذن لهم في الدخول ، وأرسل من يدعو ابن عبيدة ، وسليطاً وجميع القواد ، وقد عرف ان المثنى ، قد بلغ الغاية ، من القوم ..

٢٥

نهض القائد الاكبر يستقبل القوم وهو يقول : أهلاً بسادات العرب .

ثم جعل يصافحهم واحداً واحداً، ويستعيد اسماءهم التي كان المثنى بن حارثة يذكرها له ، ثم جلس ودعاهم الى الجلوس على بساط له في آخر عمره ..

ولم يكن في تلك الخيمة الواسعة وهي خيمة القائد الاكبر، مقعد غيره يصلح للجلوس ، فجعل بعضهم ينظر الى البعض الآخر ، والاستغراب يملأ النفوس .

وكان أبو عبيد قد ادرك معنى هذه النظرات ، فقال وهو يبتسم : اراكم تقولون الآن في انفسكم : ان قائد المسلمين لا يملك بساطاً يجلس عليه ضيوفه .

فساد السكوت لحظةً ثم قال أبو زبيد : لم يخطر لنا قط ان نجلس على الديباج في ساحة الحرب .

قال : نملك الحرير والخز والديباج ، ولكننا لانجعله لباساً ومقعداً لنا كما يفعل هؤلاء الفرس الذين سنسلبهم ملكهم ... ان امير المؤمنين ينهانا عن ذلك وحسبنا اننا نحفظ وصية امير المؤمنين . فقال انس : ايأذن لي الامير في كلمة ؟

– قل .. – أليس في قصر امير المؤمنين ما في قصور الملوك ؟

فضحك قائلاً : ان عمر بن الخطاب ، سيد المسلمين ، لا يملك قصراً ..!

– وأين يقيم ؟

– في منزل له يشبه منازل المدينة ، الا أنه أرحب جانباً ، وأوسع فناء !

- ولكنكم تفتحون الأقاليم وتغلبون الأمم ، وتستولون على ذهبها ومالها ، وكل ما فيها فاين يذهب كل ذلك ؟

- يأخذ الجيش حصته ، ثم يرسل ما يبقى الى المدينة فيجعله امير المؤمنين في بيت المال . - وماذا يأخذ هو منه ؟

- ما يأخذه كل مسلم وقد يجود بنصيبه على الفقير ولا يميل في القسمة عن الحق . - واذا مال احد عماله ؟

- الويل لمن يفعل ذلك فابن الخطاب لا يرحم أحداً ولا يغفل عن شيء . وقد عرف كيف يصون أموال المسلمين فدرهم واحد لا يضيع، ثم قال : أتعرفون الأحنف بن قيس ؟ - ومن لا يعرف الأحنف وهو من أعز العرب ؟

قال : قدم الأحنف على ابن الخطاب ، في وفد من العراق ، قبل ان تنتهي اليّ القيادة ، في يوم شديد الحر ، وكانوا يظنون انهم سيرون امير المؤمنين على عرش مثل عرش كسرى، أتعلمون ماذا كان يصنع عمر عندما قدموا عليه ؟

فقال عبد الله بن الفهر : كان جالساً للناس في فناء منزله .

وقال انس : كان يصلي .

قال : بل كان محتجزاً بعباءته في ذلك الحر المذيب ، وهو يهنأ بعيراً من إبل الصدقة « اي يطليه بالقطران » فلما رأى الوفد قال : « يا أحنف ، ضع ثيابك، وهلمّ فاعن امير المؤمنين على هذا البعير فانه لمن إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة » .

فقال رجل من رجال الوفد : يغفر الله لك يا امير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيقوم مقامك فيا تصنع ، ويكفيك هذا ؟

فقال له : « واي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف ، ان من ولي امر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ، مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة واداء الأمانة » .

فملأ الخشوع والاعجاب نفوس القوم ، ثم قال ابو عبيد : فاذا كان امير المؤمنين لا يغفل عن البعير الأجرب الذي فيه حصة لليتيم فكيف يغفل عن عماله

وقواده ، الذين سلم اليهم امور امته ؟

قال انس : لو أراد القوم ان يخالفوه في وصيته لقدروا على ذلك .

قال : يعفّ الخليفة فيعفّ القواد ، ويزهد فيزهدون ، وينهاهم عن الأمر فيتجنبونه وهم راضون ، وهب انهم يفعلون ذلك مكرهين ، فانما يكرههم عليه ، صلابة عمر في دينه ، وشدته وحزمه اللذان لا تؤثر فيهما الشفاعات ، وتسليمه اياهم الى القصاص ولو كانوا من اهل بيته ..

وجعل ابو عبيد يصف اخلاق عمر ثم أومأ الى صدره قائلاً : انظروا الى هذا الثوب الذي البسه ، ان امير المؤمنين لا يملك مثله. — وماذا يلبس إذن ؟

— يخطب بالناس ، وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة لا تشبه الواحدة منها الاخرى ، وعلى قميصه بضع رقاع يراها الناظرون اليه !!

— واذا نزل عليه ضيف من وجوه الناس ؟

— ينزل عليه الملوك والامراء ولا يبالي .

فقال المثنى بن حارثة : بل هو يذكر لهم فقره ليعلمهم الزهد ، ولقد قيل لي انه أبطأ على الناس في يوم جمعة ولم يخرج للصلاة ثم خرج بعد ذلك فاعتذر اليهم قائلاً : انما حبسني ثوبي هذا ، وكان يغسل ، ولم يكن لي ثوب سواه !

قال انس : وهكذا يفعل الولاة في الأقطار الخاضعة للاسلام ؟

— اجل ، والوالي الذي تبطره النعمة يكون جزاؤه العزل .. على ان معظم الولاة يحفظون وصيته كما يحفظها قواده ،فهي لا تتغير ،وقد يكتبها بعضهم ويضعها في كمه على ان يحفظها بعد ذلك في صدره حتى يموت ، واخذ المثنى يلفظ الوصية قال : « بسم الله ، وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر، وقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين.

« ثم لا تجنبوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تنكلوا عند الجهاد ، ولا تقتلوا امرأةً ولا هرماً ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند هجمة النهات وفي شن الغارات ..

« ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وابشروا بالارباح

في البيع الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

فقال أبو زبيد : ان سلطاناً يقول مثل هذا ويفعل مثلماذكرتم ، لهو السلطان الذي يدين له العالم كله في بضعة اعوام .

قـــال : يدين العالم لنا ، اذا ذكرت العرب عزها ومشت الى الأقاليم بقوة وايمان ، تنشر هيبتها في كل دولة وكل قطر .

قال : ان العرب لا تنسى هذا العز ايها الأمير ، والعربي يذكر دائماً انه عربي وان الدم الذي يجول في عروقه ، دم المروءة والشرف ، الذي يأبى ان يذل ..!

فقال ابو عبيد : سيخيب إذن امل الفرس عندما يحاربون الرجـــال الذين يصونون كرامة قومهم .. ان منكم عدي بن حاتم يا أبا زبيد ، أليس كذلك .

ـ بلى ـ وقد دخل عدي في الاسلام وله مع رسول الله حكاية ، أتعرفها ؟

ـ نعم ، وان عدياً من أشرف الناس .

فرأى القائد عندئذ ان يختبر القوم ويستطلع أفكارهم ، ولم يشأ إلا ان يبدأ بالتجاهل كما فعل المثنى في السوق ، فقال : ابدأ بسؤالك يا أخا طيء .. متى قدمت الحيرة ؟ ـ منذ بضعة عشر يوماً ولي في الحيرة منزل واصدقاء .

ـ إذن تقيم بها بضعة أشهر في العام .

ـ نعم ، ولطيء منازل كثيرة فيها وضياع على الشاطىء .

ـ ولأي سبب اختار بعضكم الحيرة مقاماً له ؟

ـ كان لآبائنا مقام عالٍ في هذا البلد حسدتهم عليه العرب والفرس ..

ـ وما الذي جعل لهم هذا المقام ؟

ـ النعمان الثالث فقد تزوج من طيء وقرّب أشرافهم وجعل نبلاءهم في قصره.

قال : أصبت ، قد قيل لي وانا في هذه الديار ، ان بني تميم كانوا ايضاً أنصاراً للملك الذي ذكرت وخداماً لعرشه .. ومن قدم معك من قومك ؟

ـ الفان من الرجال ايها الأمير . ـ ولهؤلاء جميعهم منازل وضياع ؟

ـ ليس لهم شيء من هذا وانما قدموا معي لأمر سيعرفه الأمير بعد ايام ..

ـ بل اريد ان اعرفه الساعة اذا شئت .

فهزّ المنذر رأسه وابتسم ابتسامة قصيرة رآها زياد ، فقال له هامساً : لماذا تبتسم ؟

ـ ابتسم لهذا الدهاء أراه من امير الجيوش النازل في الحيرة .. أتراه يجهل قدوم طي وجنوده يملأون الشواطيء والساحات وهو يعد جيشه في كل اسبوع ثلاث مرات . قال : وهل تظن انه يتظاهر بهذا ليقرأ الأسرار ؟

ـ اجل ، تلك هي غايته ، فاسمع يتضح لك ما أقول ..

وكان ابو زبيد يقول : قدموا ليشاركوا قومهم العرب ، في هذه الحرب .

قال : سترى الفرس من حرب طيء ، ما لم تره من قبل .. لقد اصبحتم من جيشنا الآن وسيكون لكم من الغنائم مثل ما هو لنا !.. ونظر الى سليط بن قيس قـائلاً له : ستنظر الى طيء من الآن ، كما تنظر الى جميع فرق الجيش .. انهم عون للاسلام ، فاوصِ القواد بان يصونوا لهم حقهم ، ويرعوا حرمتهم .

ثم قال : والآن ، ألك حاجة ؟ .. ـ لي حاجة واحدة هي ان يظفر الله قومنا بهؤلاء الاعاجم الذين استغلوا العرب اجيالاً طويلة كانوا فيها أسياد هذه البلاد !

قال : ولكنهم سيمسون غرباء في أرضهم وسيعلم الناس ان العروش ستسقط تحت سيف الاسلام كما سقطت في ايدينا عروش الروم ، في الشام .

قال : وما هي الاخبار التي ترد من الجيش الشامي ؟

ـ أخبار الظفر والفوز كيفما اتجه الجيش ، يفتحون هذا البلد ، ثم يثبون ، من فوق الاسوار ، الى بلد آخر ، كأن لهم أجنحة الطير ، وجنود القيصر تتراجع مذعورة لتحتمي في الابراج ، وتدافع عن الملك ، من وراء الجدار ، ثم وجه كلامه الى امير النمر قال : بأي موضع تقيم العشيرة يا ابن هلال ؟

ـ بين بادية الجزيرة وقبائل عنزة ، وبين عين اباغ .

ـ إذن انتم جيران الحيرة . ـ أجل ايها الامير .

ـ وأية عشيرة أقرب اليكم ؟ ـ بنو شيبان .

فجعل يقول : بنو شيبان .. بنو شيبان .. ثم ذكر ما يريد ان يذكره فقال :

ألم يكن سيد هؤلاء ، هاني بن مسعود ، في واقعة ذي قار ، التي خسر فيها كسرى شرفه وجيشه ؟

– بلى ، وشيبان فخذ من بكر بن وائل . – ومكانكم انتم يا ابن الفهر ؟

فقال عبد الله : بين بكر وشيبان ، وراء بادية العراق .

– انكم أبعد عن هذه المدينة من النمر .

– لتغلب مكان آخر ايها الامير تقيم به الجماعات منا ، في الصيف والشتاء .

– وأين هو هذا المكان ؟

– بالقرب من كربلاء ، وهو اقرب الى الحيرة من البادية . – ومتى قدمتم ؟

فقال المنذر بن انس : استأذن الامير في الجواب عن سوأله ..

فأومأ اليه بأن يفعل ، فقال : ألا تسألنا عن عددنا وعدد تغلب ايها الامير .

– ما هو عددكم ؟

– ثلاثة آلاف ينزلون جميعهم وراء هذه المضارب ، في الناحية الأخرى من الشاطيء . قال : بارك الله في عددكم .. قل الآن متى قدمتم ؟

– ان الامير اعلم الناس باليوم الذي قدمنا فيه . – ولكننا لم نرَ لكم وجهاً الا في هذا اليوم .

– أجل ، غير ان حراس الجيش وعيونه ، ينقلون اليكم في كل ساعة اخبار القادمين والراحلين ، من أبناء العرب وغيرهم . – وأي مسلم قال لك ذلك ؟

– لم احدث احداً بعد من رجال جيشك ليقول ذلك لي ، ولكني اعلم ان الجند الظافر في جميع الميادين ، لا يغفل اميره عن أمر مثل هذا : واذا غفل كان الفشل في الحرب جزءاً له !.. فابتسم ابتسامة رضى وقال لأنس : ان ابنك هذا يصلح للقيادة .

قال : انه من القواد فهو يقوم مقام ابيه في الغزو . قال : هب اني اعلم يا منذر عددكم واليوم الذي قدمتم فيه ، أفأستطيع ان اعلم الغاية من مجيئكم الى الحيرة دون ان اسألكم عنها ؟

– نعم تستطيع ان تعلم ذلك دون أن تسأل أحداً .. لقد قدمنا لنبيع خيلاً.

قال : كان يكفي ان يجيء منكم خمسون رجلا لأجل بيع الخيل ..
ـ ولكن جاء منا ثلاثة آلاف .. وليس معنا غير مائتي فرس ..!!
ـ إذن لم تكن غايتكم ان تبيعوا خيلكم كما تقولون بل هنالك غاية اخرى.
قال : اذكر انت ايها القائد هذه الغاية فانت تعرفها كما نعرفها نحن ..
قال : هي ان تحاربوا معنا ..
فضحك قائلاً : لقد ثبت الآن ان الامير يعرف كل شيء ، فليأمر بما يشاء ..
قال : أعد علي أسماء رفاقك الفتيان .
فذكر المنذر اسماءهم ، فقال ابو عبيد : نأمر اذن بان يحارب انس بن هلال وولده المنذر ، في صف المثنى بن حارثة الذي هو صف الجناح الأيمن .
ـ وعبد الله بن الفهر ومن معه ؟
ـ في الجناح الأيسر الذي يقوده سعد بن عبيدة ، وأشار الى سعد .
ـ وابو زبيد وولداه؟ ـ فيالقلب، مع ابي عبيد بن مسعود الذي يخاطبكم.
ـ بقي ابن عمي كليب بن خالد ... فحدق اليه ملياً ثم قال : هذا يكون مع سليط بن قيس ، في الجانب الأيمن ، والجانب الأيسر ، والقلب ، والمقدمة ، وفي كل ناحية من نواحي الساحة .. ان ابن قس لا يهدأ في مكان ، ويخيل الي ان كليباً مثله لا يعرف الهدوء ...
ـ ونساؤنا ايها الامير ؟ ـ سنجعلهن مع نساء المسلمين .
قال : وهل تريد ان تسألنا بعد عن شيء آخر ؟
ـ اوصيكم بان تأمروا رجال العشائر بالطاعة للقواد ولو كان وراء طاعتهم الموت ... فقال الأمراء الثلاثة ، ابو زبيد وانس وعبد الله : نضمن رجالنا .
ـ وأوصوا نساءكم ان يساعدن نساءنا في حمل الماء ، والعناية بالجرحى .
ـ لقد قدمت نساؤنا معنا لأجل هذه الغاية .. فقال عندئذ للمثنى : ألم تشتر خيلهم ؟
ـ بلى ، وهي الآن مع خيل المسلمين . ـ ودفعت ثمنها يا سليط ؟
ـ افعل عندما تأمرني بذلك .

قال : آمرك ان تعطي القوم ما يطلبون وتعدّ لهم اسباب الراحة في الجيش، وتطلعهم على جميع اسراره ، قبل مجيء الفرس . فقال ابو زبيد : ومتى يجيء هؤلاء ؟

ـ سنرى طلائعهم بعد بضعة ايام ونرى هذه المرة فتيانهم وصبيانهم وشيوخهم حاملين السيف .. ونهض قائلاً : اخرجوا معي لنطوف بين المضارب فيراكم الجيش مع قواده .

فخرجوا جميعهم ، وكانوا يرون معظم الجيش ، على نظام العشائر ، فلكل عشيرة ساحة ولها رئيس او بضعة رؤساء ، يخضعون جميعهم للقواد . وكان ابو عبيد ، يمر بين الخيام ويرسل نظره الى ما حوله كأنه يبحث عن شيء ، ثم قال لسليط بن قيس : متى أكل الجيش اللحم ؟ قال : امس ..

قال : انظر اذا كان أحدهم يأكل لحماً .. فقال المنذر لكبير القواد : أيمنع الجيش من أكله ؟

ـ لا ، ولكن ليس من المروءة ان يأكل المرء اللحم يومين متتابعين !!

ـ وأي شأن للمروءة في هذا ؟. فبدت على جبينه مظاهر الرحمة وقال : قد يكون ابن عمه جائعاً فخير له ان يطعمه في المرة الثانية ، ما يريد ان يأكله هو . ! فضحك المثنى وقال : وهذا ايضاً ما يعلمنا إياه امير المؤمنين ، قصّ يا سليط حكاية اللحم .. قال : يأتي امير المؤمنين مجزرة الزبير بن العوام، وليس في المدينة مجزرة غيرها ويحمل سوطه بيده ، فاذا رأى رجلاً اشترى لحماً يومين متتابعين ضربه بالسوط وقال له : ألا طويت بطنك لجارك وابن عمك... فقال ابو عبيد: أما انت فكل من اللحم ما تشاء ..

قال: والله لن آكل منه ايها الامير وجاري يشتهيه .. ان حكاية امير المؤمنين درس لكل عربي !. وداروا حول المضارب واصوات الجنود ترتفع بالدعاء للاسلام والهتاف لأمراء الجيش حتى تعبوا من الطواف ، فرجعوا الى مقر القيادة وبدأ ابو عبيد ينظر في شؤون الناس الوافدين اليه ، وتفرق القواد كل الى عمله .

فقبض انس وعبد الله ثمن الخيل وانصرف الجميع الى مضاربهم وهم يعجبون لما سمعوه .. وبدأ كليب يتبع قائده سليط بن قيس كأنه لا يريد ان يفارقه ..

٢٦

استيقظ انس بن هلال وولده المنذر ، على صوت عبيده ، يخاطبون رجلاً ، وكان ذلك في الهزيع الأخير من الليل ، فناداهم المنذر قائلاً : من هو هذا الذي تخاطبونه ؟.. فأجابه أحدهم من الخارج : هو حاطب بن جرير ، فوثب الوالد وولده الى الباب وهما يقولان : حاطب بن جرير ، أين هو ؟

وكان حاطب من فتيان النمر الذين أبقاهم انس في الحي ، ليحموا النساء والأنعام .

فتقدم حاطب وقال لسيديه : هاأ نذا .. فقال انس : وأي حادث قذف بك الى الحيرة ؟

قال : غزانا قوم من عنزه !.. فتمتم يقول : لقد خطر لي هذا الخاطر يوم رحلت .. من هو سيد القوم ؟

ـ كانوا ينتسبون الى القبيلة ولا يذكرون اسماً . ـ وماذا فعلوا ؟

ـ ساقوا النوق كلها ولم يتركوا شيئاً !.. ـ والنساء ؟

ـ اما النساء فقد استطعنا ان نحميهن بالالتجاء الى أطراف عين أباغ ..

فأطرق قليلاً ثم قال : اركب ويلك وارجع فقل لقومنا اني وراءك .

قال : ماتت فرسي يا مولاي !. قال : اعطه ايها العبد فرسين وليرجع الساعة .

ثم أومأ الى المنذر بأن يلبس ثيابه ، والتف هو بعباءته ، وتقلد سيفه ، وتناول رمحه وقال لولده : تهيأ ريثما أعود اليك !.. وخرج يريد أبا زبيد وعبد الله بن الفهر ، فلما رآهما قال : لقد غزتنا عنزة وانا راجع الى بلاد النمر .

والغزو عند العرب ، أمر طبيعي مألوف ، يسمعون أخباره كل يوم . لأجل ذلك لم يعجب الاميران ، ولم يستغربا قوله ، بل عمد عبد الله الى ثيابه وسلاحه كما فعل انس نفسه وقال لمن حوله من رجال عشيرته : ليركب كل تغلبي الآن ، فحلفاؤنا بنو النمر غزاهم العدو في أرضهم !..

فجعل انس يسأله البقاء في الحيرة وهو لا يجيب ، حتى ركب القوم جميعهم ، وابو زبيد يحـــاول ان يفعل مثل ذلك وابن هلال يمنعه وكان يقول : ليس من الرأي ان نترك جميعنا الحيرة فقد يظن بنا السوء قواد المسلمين ، ويقوم في أذهانهم اننا جئنـا لنقبض ثمن الخيل !.. فوافقه عبدالله في رأيه وقال : وخير لنا ان يذهب ابو زبيد الى مقر القيادة ، ويستأذن لنا في الرحيل .

ـ اذن يذهب معكم زبيد وزياد .

فقال انس : لقد تعودنا ان نهـاجم عنزة كلها ولا نبالي . ليبق زبيد وزياد هنا ، واذهب انت فاستأذن لنا ان شئت.. فلم يرَ الأمير الطائي بداً من الذهاب.

وكان أبو عبيد قد استيقظ وهو يصلي ، فلمـــا ذكروا له أبا زبيد أذن له ثم قال : لم تقدم في مثل هذه الساعة الا لأمر . قل ماذا جرى لك ؟

قال : قدم رجل نمري ، ينقل الى رئيس عشيرته ، خبر حادث نزل بقومه .

قال : غزو ؟ ـ نعم ايها الأمير . ـ ومن الغازي ؟

ـ قوم من عنزة أخذوا كل شيء إلا النساء .

ـ ويطلب ابن هلال أن نمده بالرجال ؟

ـ لا ، بل هو يستأذن الأمير في الرجوع الى بلاده ليستعيد نوقه وشرفه .

قال : ليذهب ، واذا رأى انه بحاجة الى سيوفنا فنحن نبعث معه قطعة من الجيش ، وينصرنا الله بمن يبقى معنا على الفرس .

فشكره قائلاً : ان النمر قوم أبطال لا يهـــابون الموت ، وهم قادرون على استرجاع النوق . ـ وهل تذهب معهم طيء ؟

ـ تذهب تغلب على ان يعودوا جميعهم عندما يتم لهم النصر .

قال : انهم لمنتصرون باذن الله .. عنزة عشائر كثيرة ورجالهـــا أشداء .. أجل ، وسندعوهم الى الحرب بعد حين فقد يؤثرونها ، بما فيها من الغنـائم ، على غزو الجيران .

ثم قال : أما أنت فأحب ان أراك في كل يوم فلا تتردد في المجيء .

فأعاد ابو زبيد كلمات الشكر ، وخرج ، واذا كليب بن خـــالد بالباب ،

فقال له : ما وراءك يا كليب ؟

ـ جئت أستعجلك فعمي قد ركب والقوم يهمون بالرحيل .

ـ وهل أنت باق في الحيرة ؟ فقال : أأبقى وعنزة تغزو قومنا . اما والله لو قيل لي ان الجنة في الحيرة ، لما بقيت فيها ساعة ..

وكان يبتسم ابتسامة الخداع !.. أما القوم فكانوا قد تهيأوا كما قال ، فمشوا وجعلت خيلهم تنهب الأرض . ولم تستطع كبشة والزهراء إلا ان تذهبا مع عشيرتها ، وأصيب العشاق جميعهم بالفراق ..

٢٧

رجع الجالينوس الى بلاد فارس يجر أذيال العار ، وجعل يقص على القوم أخبار العرب الذين هزموه .

فتميز رستم القائم بأمر الملك ، من الغيظ ، ووبخ القائد الفار ، على مرأى ومسمع من الناس ، توبيخاً شديداً ، صغرت له نفسه .. ثم دعا وجوه الدولة ، يسألهم رأيهم في أمر هؤلاء العرب الذين أرسلتهم الأقدار الى بلاده . فأجمعوا على ارسال جيش آخر يضرب الجيش العربي ضربة قاضية ، ويقذف به الى الفرات .

فقال لهم : ومن نختار للقيادة ؟ فسموا له قائداً من قوادهم جباراً ، يدعى بهمن جاذويه ، ويعرف بذي الحاجب .

قال : وهذا أشد العجم على العرب ؟ قالوا : نعم فليس فينا مثله .

فأمر بإحضاره وأشار الى الجالينوس قائلا : لقد فرّ هذا الجبان من وجه العرب ، فأذلّ قومه ، فهل تستطيع انت ، اذا وجهناك الى قتالهم ان تمحو هذا الذل ؟ فقال : سأحمل الى مولاي رؤوس قوادهم ليطأها بنعليه !

وكان الجالينوس يهزأ به في سره . فقال رستم : اريد ان تكون هذه المرة آخر واقعة بيننا وبين هؤلاء الأجلاف . ـ سيكون ذلك يا مولاي .

ـ وتأخذ معك الفيلة المجربة وعلى رأسها الفيل الأبيض البطاش !
ـ وهذا هو رأيي يا مولاي. ـ ولكن احذر ان تعود كما عاد هذا الرجل..
قال : أضمن لك النصر وسأعود وقد شرفت الفرس .. فقال للجالينوس :
أما أنت فتسير مع بهمن وتمحو عارك .. ـ سأفعل ما تأمرني به .
ـ وقد أمرت بهمن ان يضرب عنقك اذا فررت .. اجعله في المقدمة يا بهمن فان عاد الى مثلها فاضرب عنقه كما قلت .. ثم أومأ اليهم بالانصراف ليعدّوا العدّة وخرج هو لينظر في أمر الفيلة التي ألفت الميادين . وبعد بضعة أيام تهيأ الجيش وزحف ، ودعاء الفرس وهتافهم يملآن الفضاء ..

وبلغ ابا عبيد بن مسعود خبر زحفه ، فجمع صفوفه ، وجعل يخطب فيهم كل صباح قائلاً لهم : ان الموت والله لخير لكم من الفرار، فاحذروا عدوكم ولكن لا تخافوه .. وهكذا كان يفعل جميع قواد المسلمين ؛ حتى انتهى بهمن ومن معه الى موضع على ضفة الفرات الأخرى يقال له « قس الناطف » ، فأقبل ابو عبيد فنزل بمكان يدعى « المروحة » والفرات بين الجيشين . ولم يبق إلا ان يعبر احدهما لتتلاحم السيوف . ففي تلك الليلة ، رأت دومة ، زوجة ابي عبيد في منامها ان رجلاً نزل من السماء باناء فيه شراب ، فشرب ابو عبيدة منه وشرب معه نفر من قومه .

فخبرت زوجها عند الصباح ، بما رأت ، فقال : هذه هي الشهادة ان شاء الله .

ثم أمر غلمانه بان يدعوا القواد ، وامراء الجند ، ففعلوا ، فعهد اليهم فقال : اذا قتلت في الميدان فأميركم بعدي هو جبر الثقفي فان قتل جبر فأميركم فلان ، فان قتل فالأمير فلان ، حتى سمى سبعة امراء آخرهم رجل يدعى ابا القاسم ، كلهم من قومه بني ثقيف.. ثم قال : فان قتل ابو القاسم فأميركم المثنى بن حارثة.

وقام يعرض جنوده قبل المباشرة بالقتال . فأرسل بهمن احد خصيانه يقول له : اما ان تعبروا الينا أو نعبر اليكم .

فكره ابو عبيد ان يظهر بمظهر الخائف ، فحلف ليقطعن الفرات اليهم .

ثم شاور اركان حربه بعد ذلك ، فناشدوه ان يرجع عن قسمه ، وقال سليط : ان العرب لم تلقَ مثل جنود فارس مذ كانوا ، وانهم قد تهيأوا لنا واستقبلونا من العدة بما لم يلقنا به احد منهم من قبل ، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجع . من فرّة الى كرّة ، فلا تعبر .

وكان رسول بهمن يشعل النار فيقول : ان اهل فارس قد عيّروا العرب .

فازداد ابو عبيد صلابة في امره ، وردّ على اصحابه الرأي وقال لسليط: لقد جبنت يا ابن قيس ! فقال : انا والله أجرأ منك نفساً وقد أشرنا عليك بالرأي ، فستعلم ...

فقال لرسول بهمن وهو لا يعبأ : قل لمرسليك اننا سنزحف اليهم ، ولو كانوا في حصونهم وراء أسوار لهم !.. ونهض رافعاً يده وهو يقول : الى قس الناطف .. الى الشاطىء الآخر ايها المسلمون .. وقام رجل يدعى ابن صلوبا يعقد الجسر للجيشين . ثم عبر المسلمون بما معهم من المؤونة والسلاح والخيل .

وكان الفرس قد وقفوا في صفوفهم ، وقدّموا أفيالهم ، وأمامها جميعها ذلك الفيل الأبيض ، الذي يفعل في الحرب ، أعظم مما يفعل القائد المجرّب .

فصدرت الأوامر الى الجيش العربي ، بأن يلجأ الى نظام يعرفه كل جندي ، وفي المقدمة فرسان الاسلام الأشداء ، بينهم ابو عبيد .

ثم نادى المنادي : سيوفكم أيها المسلمون ..

فهمز الفرسان خيلهم ، ولكن الخيل تراجعت الى الوراء ، بدلاً من ان تثب الى الامام .. لقد رأت أفيال الفرس عليها النخيل ، ورأت خيلهم عليها التجافيف التي تشبه الدروع ، والفرسان عليهم لباس الحرب ، فرأت شيئاً منكراً لم تكن ترى مثله . فصاح ابو عبيد : احملوا على عدوكم .. احملوا على عدوكم .. فيحملون ، والخيل لا تتقدم ..

ثم حملت الفرس بالفيلة عليها الاجراس ففرقت جموع المسلمين ونفرت خيلهم ، ومرقت سهام الاعجام بين الصفوف تخترق الأجساد وتمزق الصدور ..! والعرب لا تستطيع الوصول الى الفرس .

فصاح أبو عبيدة ثانية : ترجلوا .. ترجلوا .. ولترجع الخيـل ، ووثب الى الارض ، وترجل الناس ، ثم مشوا الى عدوهم ، فصافحوا الرجـال بالسيوف ، فجعلت الفيلة لا تحمل على جمـاعة الا دفعتها ومزقت شملها ، فمضّ ابا عبيد الالم ورفع صوته قائلاً : احتوشوا الافيال ، وقطعوا حُزمها ، واقلبوا عنها اهلها ولا تتراجعوا !.. وواثب هو الفيل الابيض وتعلق ببطانة « حزامه » فقطعه ، ووقع الذين على ظهره وعمدوا الى السيوف .. وفعل المسلمون مثل ذلك ، فما تركوا فيلاً الا حطوا رحله وقتلوا اصحابه ...

غير ان ابا عبيد ، لم يكتف بقطع البطان ، بل كان يريد ان ينجو من الافيال، ليسلم الجيش .

فضرب مشفر الفيل الابيض بسيفه فاتقاه الفيل بيده ، وضربه بها ضربـة سقط بعدها ابو عبيد ، ثم احسّ ان جبلاً سقط على صدره ..! أجل لقد صرع الفيل قائد المسلمين الاكبر ، ثم وطئه وقام عليه ، فلما بصر المسلمين بأبي عبيد ، تحت الفيل ، خشعت انفس بعضهم وملأتها الكآبة .

ثم أقبل جبر الثقفي ، الذي جعلت له الامارة بعـد ابي عبيد فأخذ اللواء وجعل يقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد ، فأخذ المسلمون جثته وقد اهتزوا للخطب .

وراح جبر يفعل كما فعـل أبو عبيد .. يصارع الفيل بسيفه ، والفيل يتـّقيه بيده حتى سقط المنكود الحظ ، عند رجلي الفيل ، كما سقط اميره ، ووطئته تلك اليد الهائلة ففاضت روحه، وهو يناشد اخوانه ، ان يثأروا به ... وتتابع بعده الامراء الستة ، من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ..

فلم يبق الا ان يأخذ اللواء ، المثنى بن حارثة ، فلمـا تناوله بيده هرب عنه الناس .

ورأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي ابو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس ، فمشى الى الجسر فقطعه وقال :

يا ايها الناس : موتوا على ما مات عليه أمراؤكم او تظفروا ، غير ان الفرس

كانوا في تلك الساعة اسوداً ، فقد لحقوا بالمسلمين الى الجسر ، وسالت الدماء على ذلك الشاطىء فصبغت مياه الفرات .. ثم تواثب بعض الرجال الى النهر ، فراراً من السيف ، فغرقوا وقلّ الصبر ، وخان القوم الجلد ... وكان المثنى قد شق له مجالاً بين الصفوف حتى انتهى الى الجسر ، فرأى ابازبيد الطائي وولديهقد سبقوه اليه ومعهم عروة بن زيد الخيل ، وأبو محجن الثقفي يحمون الناس في عبورهم ، ويقاتلون قتال الأبطال .. وعبد الله بن مرثد ، قائم على الجسر ، يمنع الناس من العبور ، فابتسم المثنى لاولئك الابطال ، الغائصين في ذلك البحر العجاج الذي تثور امواجه .. وأومأ اليهم بيده يحييهم تحية الاعجاب ، ثم رفع صوته وجعل ينادي :

انا دونكم ايها الناس ، فاعبروا في مهل ، ولا تدهشوا ، ولا تغرقوا انفسكم فاني لا ازايل موقفي حتى اراكم في الجانب الآخر .. فقال الناس : يمنعنا عبدالله ابن مرثد .. فقال احضروه اليّ !.. فأتوه بـــه ، فقال له : ما حملك على الذي صنعت ؟ فأجابه قائلاً : فعلت هذا ليقــاتل الناس ، ويستبسلوا في الدفاع !.. فضربه وقال : اعبروا الآن فمن عبر نجا ، وأمر بعقد الجسر ، فضموا الى السفينة التي قطعت سفينة اخرى ، وعبر الناس ..

وكثر القتل في تلك الساعة .. الناس يعبرون .. والمثنى ومن معه يقاتلون ويدفعون الفرق الهاجمة بسيوف تبري الرقاب ، غير ان ذلك الصراع الرهيب لم يسلم ، فقد قتل به سليط بن قيس ولم يترك سيفه كما يقتل الجبار الذي يؤثر الموت على الفرار ، وعبر ابو زبيد وعروة ، وأبو محجن ، ثم عبر المثنى والدماء تسيل من جراحه ، وقد غاصت في صدره حلق من درعه هتكتها الرماح ..

وبينا بهمن يطوف بين جنوده ويزيّن لهم العبور وراء المسلمين ليقضوا القضاء الاخير على من بقي منهم ، وبينا الخيل تثب نحو الجسر وقد همّ الفرس باللحاق بعدوّهم ، انتشر بين الصفوف خبر اضطرب له الجيش ، قواده وافراده ، وعبيده وغلمانه ..

ثم قيل لبهمن : هذا رسول من المدائن يسأل عنك ! .. فدعاه فقال : ماذا تحمل من الأخبار ؟

ـ أخبار السوء يا مولاي !. ـ انزل بالفرس عدو آخر ؟

ـ لقد كان العدو فارسياً فقد ثار القوم برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه واصبحوا فريقين: هذا لرستم والآخر للفيرزان ..

فاستند الى رمحه يفكر ثم قال : لقد امست دولة الفرس دولتين .. وهذا هو الشر !.. وأومأ الى جنوده قائلاً: ارجعوا عن القوم فخير لنا ان نعود الى المدائن من ان نعبر الى المروحة فنضيع الزمان ، ولم يتردد في الذهابَ الى عاصمة الاكاسرة لينظر في أمر امته الثائرة .

وبلغ عدد الذين قتلوا من الفرس ستة آلاف والذين هلكوا من المسلمين بين قتيل وغريق اربعة آلاف ؛ اما المثنى الجريح ، فقد تركه اهل المدينة ولحقوا بها ، ونزل بعضهم البوادي استحياء من الهزيمة والعار ، فأمسى القائد البطل في قلة وهو معتصم بجلده وصبره واثق بقوته وقوي الايمان بعقيدته لا يتألم ولا يشكو . وقد بعث بعبدالله بن زيد بن الحصين ، رسولا الى امير المؤمنين ينقل اليه اخبار قس الناطف ، او واقعة الجسر كما جرت ، وعبد الله هذا أول من قدم على عمر بن الخطاب .

وكان عمر عند وصوله ، يهم بالدخول الى المسجد وهو عند حجرة عائشة ، زوج النبي ، فلما أبصر عبدالله قال : ما عندك يا عبدالله بن زيد ؟ .. قال : اتاك الخبر اليقين يا امير المؤمنين .

وجعل يخبره ويصف له جزع القوم وفرار البعض من المهاجرين والانصار الى البوادي ستراً لهزيمتهم .. فاشتد ذلك على الخليفة العظيم ثم رأى بعينيه ذلك الجزع الذي وصفه عبدالله ، بادياً على وجوه الناس الذين لحقوا بالمدينة ، فرحمهم وقال : « لا تجزعوا يا معشر المسلمين فانا فئتكم .. كل مسلم في حلٍّ مني : انا ملجأ كل مسلم .. من لقي العدو ففظع بشيء من امره فانا له ملجأ .. »

ثم قال : « يرحم الله أبا عبيد بن مسعود لو كان انحاز اليّ لكنت له فئة » .

وكان معاذ القارىء من بني النجار ممن شهد واقعة الجسر ففر ، وكان يبكي كلما ذكر فراره ، وهو يقرأ القرآن ، فيقول له عمر : « لا تبك يا معاذ ، انا

فتنك ، وانما انحزت اليّ » .

وانتشر خبر الهزيمة في كل بلد وكل بادية ، بين قبائل العرب وأحيائها ، فغضب القوم للعز العربي ينال منه الفرس وبدأوا يتهيأون للحرب من جديد .. ولم يتردد عمر بن الخطاب في ارسال الرسل الى جميع الاقطار ، يدعو العربان الى حمل السيف ليتم له فتح العراق ·

٢٨

كان سيد القوم الذين غزوا بني النمر يدعى هياب بن جوثق ، وكان فارساً غازياً مغواراً ، وبينه وبين النمر ثأر ، يعود عهده الى زمان الآباء والاجداد ، غير انه لم يكن ميمون الطالع في غزوه فرجال النمر اشد عزيمةً من رجاله واكثر احتمالاً وصبراً في ساحات القتال ، وقد خانه الحظ غير مرة في حروبه مع هؤلاء وخسر نخبةً من رجال عشيرته وكاد يخسر حياته في المرة الاخيرة ، لو لم يعمد الى الفرار ، فحفظها في صدره، واقام يغتنم الفرص ويرقب غفلة الدهر ... أجل كانت عنزة اكثر عدداً من جيرانها واكثر مالاً غير انها لم تشترك في غزوهم ، بل كان بعض بطونها ينفرد بهذا الغزو دون ان يكون لها ، اي للقبيلة رأي فيه . وكثيراً ما كان عقلاؤها ينصحون لهياب ، بترك الثأر والكف عن القتال ولكنه لم يكن يسمع لهم ولا يبالي بنصح ، ولم يكن انس بن هلال ، يجهل اغراض هياب ، وتحفزه للوثوب ، بل لم يكن يجهل ان النار تتقد في صدره ، وصدور رجاله ، غير انه كان مستخفاً بقوة خصمه ، وواثقاً بانه اعجز عن ان يلحق الاذى ، ببني النمر ، وهو حي ، حتى انه كان يأمر ولده المنذر بان يغزو هياباً في عقر داره وكان المنذر يعود كل مرة والغنائم بين يديه ، وكان في الوقت نفسه يحفظ الولاء لقبيلة عنزة، الا لعشيرتين منها ، عشيرة هياب ، وعشيرة رجل آخر لا يعرف السلم ولا يطيب له الهدوء ، وهو الربيع بن حنظلة .

فلما همّ بالرحيل الى الحيرة ترك في الحي فريقاً كبيراً من الفتيان وسلم اليهم امور العشيرة وأوصاهم بان يبذلوا الارواح قبل ان تؤخذ ناقة من نوق النمر او تسبى واحدة من النساء ، على ان اولئك الفتيان الذين وفرت لهم الشجاعة والقوة لم يستطيعوا ان يخرجوا من الساحة خروج الظافر كما قرأت ، لقد كانت النوق في المرعى ، والنساء في الحي ، فلما انتهى اليهم خبر هياب ، عمدوا الى نسائهم يجعلونهن في موضع حصين يجاور عين أباغ ، ثم رجعوا لينقذوا نوقهم من يد الغازي ، فلم يجدوا في المرعى رعاة ونوقاً .. بل وجدوا اولئك الرعاة ، جثثاً خرساء ... وكان الليل قد سدل ستاره الرهيب . فاقتفوا اثر الغزاة بقلوب لا تعرف الخوف ، واستطاعوا ان يلحقوا بهم ، في طريق يق ، رأوا فيه اشباح الموت ، فتراجعوا مكرهين ، وسمعوا القوم ينتسبون الى عنزة ، ولكنهم لم يعرفوا سيدهم ، اهو هياب بن جوثق ام الربيع بن حنظلة ، الا بعد ثلاثة ايام ، وكان رسولهم الى انس سيد العشيرة ، قد ذهب الى الحيرة ، بعد ان عرفوا اسم الغازي .

أقبل انس وعبد الله بن الفهر وقومها ، فقال انس لأبناء عمه : من هو عدوكم قالوا : هياب ، قال : لقد أيقنت والله بانه هياب ، كما أيقنت بانكم من ابطال العرب ، الذين يحمون حيّهم اذا غاب سيده ... فقال احدهم : لو لم تشغلنا النساء لحمينا النوق !.. فانتهره قائلا : ولو لم تكونوا من حكماء هذا الزمان لما فعلتم هذا .. ويلك ألم يخطر لأحدكم ان يرسل فريقاً الى عين أباغ وفريقاً الى المرعى ؟ خبروني ماذا جرى ؟ فخبره ذلك الفتى ثم ختم حكايته بقوله : كان القوم كثاراً يا مولاي .

قال : والله لم تعرفوا ذلك لأنكم لم تجسروا على الدنو منهم .. وهل كان الربيع معهم؟ ـ لا. قال ابقوا اذن في الحي وسأعلم هياباً كيف تسلب النوق..

ولم يسترح في ارضه غير بضع ساعات ، فقد أراد ان يتعجل في أمره ليعود الى تلك السوق الكبرى ، التي تباع فيها الأرواح .

وعرف هياب ان ابن هلال جاء يسترجع نوقه ، ويطلب بدم رعاته .

فتهيأ له واستغـاث بالربيـع بن حنظلة ، فقدم عليه يقود الرجال الأشداء ، فلما التقى الجيشان قال انس لقومه : دعوني أحدّث هياباً .

ودنا منه قائـلاً : لقد فعلت ما فعلت ، وانا في الجيرة ، وانت تظن ان نوق النمر أصبحت لك .. أفتريد الآن ان تعيدها اليّ وتحقن الدماء ؟

قال : لا والله الا ان تستعيدها بالسيف !.

ـ بل آخذ ما عندك من النوق أيها اللعين .. اعمد الى سيفك .

قال : سيفي في يدي .

قال : ادنُ فان قتلتني تركت لك النمر نوقها ، وان قتلتك سلبت قومك كل شيء الا النساء .. قال : ما كنت لأرضى الا بان أقتلك وولدك والف رجل من قومك وقوم تغلب الذين يحمون رجالك الجبناء .. قال : لقد تعودت ان أغزوك وحدي يا ابن جوثق .

ـ أجل ، وكنت تفعل ذلك في ظلام الليل ونحن نيـــام .. أثبت الآن .. وأومأ الى قومه بالهجوم وهو يقول : لقد خاب ظنكم ، فانتم لا تستطيعون ان تغدروا بنا ، على نور الشمس ..

واصطدمت الخيل بالخيل . فركض المنذر فرسه ، يريد الربيع ، وقام انس كالجبل الراسخ يمنع هياباً من ان يجول على فرسه ، وقد تلاحم السيفان ، وارتفعت أصوات نساء الحي يحرضن القوم على الدفاع وردّ العدو .

غير أن قوم الربيـع وجوثق ، كانوا أضعف من ان يثبتوا أمام فرسان النمر المغـاوير الذين يثبون كما تثب الأسود ، بل كانوا أضعف من ان يجولوا معهم اكثر من جولة واحدة .

لقد كانت تغلب والنمر ، صواعق تنقض على رؤوس عنزة ، فما هي الا ساعة حتى سقط هياب قتيلاً تحت أرجل الخيل ، وفرّ الربيع مذعوراً من وجه ذلك الفتى النمري الذي يقطع سيفه الفولاذ ، وتضعضع القوم . فصاح انس برجاله قائلاً : لقد علمنا الآن آل جوثق والربيع ألاّ يعودوا الى مثلهـــا .. ابحثوا عن النوق واحذروا ان تعتدوا على النساء .

فتفرق الفرسان في كل ناحية يطلبون النوق حتى عثروا عليهـا في واد رحب بعيد عن الحي ، ومعها نوق هياب ؛ فأحاطوها بنطاق من الرماح وأقبلوا بها وهم يحدون وينشدون أناشيد النصر .

وفعلوا ما أمرهم به انس ، فلم يسبوا فتـاة ولم يعتدوا على امرأة ، ثم رجعوا وكأنهم راجعون من صيد .. وقد أبلى كليب في تلك الواقعة أحسن البلاء .

٢٩

كتب عمر بن الخطاب الى جميع من حوله من المسلمين يسألهم ان يجمعوا قومهم ويقدموا إلى المدينة، وكان يريد ان يجعل جيش العراق اعظم الجيوش التي ترسل الى الفتح ، ليخضع بذلك الجيش العراق كله ويمحو دولة الفرس من الوجود .

وكان يقول كلما جلس في مجلسه : رحم الله أبا عبيد ومن قتـل معه يوم الجسر .

أجل ، لقد حزنت نفس امير المؤمنين ، بعد واقعة الجسر ، وملأت الكآبة قلبه ، غير انه لم يستسلم الى كآبته ، فهو من اولئك الرجال المخلدين الذين تعودوا ان يحتملوا الصدمة القاسية بصبر دون ان يضيعوا الرجاء ..

أرسل رسله الى جميع القبائل التي لم تخض المجـال ، وأمر كل مسلم قادر على حمل السيف بأن يلبي النداء الى الحرب ، وكان متعجلاً في دعوته ، فقد كان يعلم ان المثنى لا يستطيع بالجيش القليل الباقي معه ان يشهر سيفاً ، كما انه كان يعلم ، ان ذلك القائد البطل يعاني ما يعانيه من آلام الجراح . ولم يقصر دعوتـه على اولئـك الذين رافقوا الاسلام ، وثبتوا فيه ، بل جعل يدعو اهـل الردّة ، ويستعجلهم في المجيء .. وأول من قدم المدينة ملبياً دعوة عمر، جرير بن عبدالله البجلي ، ومعه طوائف كثيرة من قومه بني بجيلة .

فقال له عمر : الى العراق يا جرير .. قال : بل الى الشام يا امير المؤمنين..

قال : ان جيش الشام قد ظفر بعدوه فهو لا يحتاج الى نصير .

ـ ولكن الحرب في العراق لا تطيب لي . قال : ليس عليك إلا ان تفعل ما آمرك به . فأبى ابن عبدالله ان يسير الى العراق ! فأكرهه عمر على ذلك ، ثم رأى ان يعوضه من ذلك الاكراه ويصلح حاله ، فجعل له ربع الخمس من الغنائم يقسمه بين قومه .

فرضي الرجل بهذه الصفقة ، وزحف ببجيلة الى العراق حاملاً كتاب امير المؤمنين في ذلك الى المثنى بن حارثة . وكان اهل الردّة يفدون الى المدينة من كل قطر ، فيسيرهم عمر الى المثنى ، الجيش وراء الجيش ، على ان المثنى لم يكن مكتوف اليدين ، بل كان يعد العدة ، ويتهيأ لواقعة اخرى أبعد أثراً وأعظم شأناً . لقد تفرق القوم عنه ، وكان آخر من هرب من العراق ، ابو محجن الثقفي ، فرّ ولم يرجع .. ثم رأى انه لم يبقَ حوله من الأمراء والرؤساء غير بضعة رجال ، بينهم ابو زبيد الطائي ، فلم يستطع عندئذ الا ان يعمد الى ما عمد اليه امير المؤمنين ، من إرسال الرسل الى من يليه من قبائل العربان ، وأوصاهم بأن لا يتركوا قبيلةً او حياً ، الا ندبوه للقتال . وكان عنده بعض الاسرى الذين حاولوا ان يخدعوا جيشه ويقذفوا به الى الهوة .

فضرب أعناقهم ، وأقام ينتظر القبائل بمكان يقال له مرج السباخ ، بين القادسية وخفان وعيونه يملأون الطرق التي تؤدي الى بلاد الفرس . وهو وأبو زبيد واثقان ، بان العرب النازلة تحت ذلك الفضاء الواسع ستلبي النداء عندما تبلغها الدعوة .. وكانا يفكـّران في انس بن هلال ، وعبدالله بن الفهر وهما لا يعلمان الحال التي انتهيا اليها ، بعد تركهما الحيرة . على ان الاثنين : انس وعبدالله ، كانا يفكران بدورهما ، في الرجوع الى ساحة الحرب ، بعد ان يحملا اهل الحيّين ، في أمنٍ من غزو الغزاة . فبينما هما في النمر ، في احدى الليالي المقمرة ، والمنذر يلجّ في طلب العودة الى الحيرة ، أقبل فتى من العرب غريب يقول لأهل الحي : دلـّوني على سيد النمر فانا أحمل اليه كتاباً .

فدلـّوه على انس ، فقال له : كتاب من المثنى بن حارثة ، فتناوله المنذر

وجعل يقرأ ، ثم قال للقوم : ان المثنى يستعجلنـا ويستعجل الامير عبدالله في الرجوع . فقال انس للرسول : وهل تحمل كتاباً آخر ؟

– أحمل كتابين الى بني شيبان وسائر بكر بن وائل وهنالك رسل آخرون يحملون الكتب الى الناحية الاخرى .

– وجميعها من المثنى ؟ – نعم فهو الذي يندب الناس .

– ولمـاذا لا يكتب اليهم ابو عبيد بن مسعود ؟

– لقد قتل ابو عبيد ايها الامير . – ويلك ، ومن قتله ؟

– قتله الفيل في واقعة الجسر وقتل بعده معظم امراء بني ثقيف ، فذعر القوم للنبأ المروع وأقبلوا يصغون الى الفتى ، فقال المنذر وهو يريـد ان يسمع أخبار هند : وأين حدثت هذه الواقعة ؟

– في الجانب الآخر ، من الموضع الذي كان فيه جيش الاسلام .

– ومن كان قائد الفرس ؟ – علج يدعى بهمن ويقال له ذو الحاجب .

قال : وقتل من المسلمين خلق كثير ؟ – اجل ، ولولا المثنى ، وعروة بن زيـد الخيل ، وابو زبيد الطائي ، لخسر المسلمون في العراق ، كل شيء ، ولم يبق منهم جندي . – وماذا فعل هؤلاء ؟

– حمو النـاس عند الفرار ، وقاموا على الجسر يمنعون الجنود من ان يقذفوا بأنفسهم الى الفرات ، وجعـل يصف لهم الواقعة ويقص عليهم خبر عبد الله بن مرثد الثقفي .

فسأله كليب قائلاً : وسليط بن قيس ؟ – كان آخر من قتل من القواد .

ولكليب غاية من سؤاله ، فقد كان يريد ان يخدع سليطاً ، ويحمله على الوثوق بان عمه والمنذر ، وابا زبيد وولديه ، لا يطمعون الا في الغنائم ، ولا ينظرون الى المسلمين ، الا كما ينظر الخائن اللئيم الى القوم المحسنين اليه .

ولكن الحظ لم يخدم كليباً ، فقد قتل سليط ، قبل ان يسعى هو بعمه ، وينفث سمه ... ثم قال المنذر : وتعرف زبيداً وزيادا ولدي الأمير الطائي ؟

– أجل ، وأعرف هنداً اختهما . – وجميعهم احياء ؟

ـ كانوا أحياء عندما تركت المعسكر .

فتنهد العشاق الثلاثة ، المنذر ، وكبشة والزهراء ، وتلألأ الحب في العيون . وكان هنالك عينان اخريان يلمع فيهما الحقد ..

ويظهر ان المنذر اكتفى بما سمع ، فحوّل وجهه الى ابيه وقال : متى نرحل يا ابي ؟

ـ بعد ان نعد للعشيرة كل شيء .. ألم يقل لك ابو زبيد ايها الفتى كلمة ، تقولها لي ؟ فأجابه : بلى، ايها الامير ، لقد طلب اليّ ان ادعوك باسمه الى التعجل في الرجوع وأوصاني زبيد بان اقول مثل هذا لولدك المنذر ، قال : ومن بقي مع المثنى من القوم ؟

ـ لم يبق غير طيء وطائفة قليلة من الرجال ، الذين آثروا الموت بين خيام الجيش ، على الفرار الذي هو العار ، قال ، وهل تعلم ماذا صنع امير المؤمنين ؟

ـ لقد كتب اليه المثنى يصف له حال المسلمين ، وانا اظن ان امير المؤمنين سيبعث اليه باهل الشدة والبأس .

ـ ولكنك لم تقل لنا لماذا يلحق الفرس بالجيش العربي عندما فرّ من الساحة .

ـ لان رسل الفرس اقبلوا في تلك الساعة ، يحملون الى بهمن ، نبأ ثورة اشتعلت نارها ، بين انصار رستم القائم بامر الملك ، وانصار رجل آخر يدعى الفيرزان ، فأكره بهمن على الرجوع الى المدائن !.. فهزّ رأسه قائلاً : ثورة بين رجلين طامعين بالملك .. ونزاع سببه السلطان .. لقد ظهر اذن قضاء الله .

فقال سيد تغلب : ماذا تعني بهذا ؟

ـ اعني ان دولة الاعجام اصبحت على شفير الهاوية ، وسيسلم الله تاجها وعرشها الى المسلمين ، وقال للفتى : امكث هنا الليلة ليس غير ، وانصرف عند الفجر حاملاً كتابي المثنى الى بني شيبان ، وسائر بكر ، وقد تعود انت الى الحيرة ونعود نحن في وقت واحد .

ثم جعل يقول لمن حوله : قتل الله الفرس ، فقد علموا افيالهم ان تخطف الارواح .

فقال عبدالله : وقد أخطأ ابو عبيد في العبور الى قس الناطف وكان عليه ان يبقى بالمروحة ، فالمجال في ذلك المكان يتسع لجيشه .

قال : وهل تظن ان هذا الفشل يضيع رجاء المسلمين ؟

– بل اظن انه سيزيدهم قوة، ويحمل عمر بن الخطاب على بذل المال وارسال الرجال الى مواقف الدفاع عن عز الاسلام .

ثم انتقلو الى التحدث بأمر حماية العشيرة من غزو الاعداء ، فقال انس : لقد خطر لي ان اجعل في الحي الف رجل على رأسهم كليب..ماذا تقول يا ابن اخي؟

فأجابه وهو يبتسم .. : ان نفسي تتوق الى خوض الميادين يا عم ، فلا تقتل فيَّ هذه الرغبة ، ومر من تشاء من الرجال بحماية الحي ..

قال : اخشى ان يستعين الربيع بن حنظلة ، ببعض بطون عنزة فيغزو النمر وينتهي الغزو الى ما لا نحب ..

قال : ابطال النمر كثار فاجعل الامر الى احدهم ..

– ولكني واثق بأنك أقدرهم على ذلك .

قال : استحلفك بتربة جدي هلال ان تأذن لي في الذهاب الى الحرب وتختار غيري للشأن الذي اردت .

فقال المنذر : ليبق عمير بن زياد فهو اهل .. فقال أبوه : أحببت ان يكون عمير معي . – اذن فليبق سلمة بن اسحق ..

قال : أتبقى يا سلمة ؟ .. قال اذا أراد الامير بقيت .

– وتحمي قومك ؟؟ .. – لا خير في ان لم أحمهم ، واذا قتلت فلا تطلبوا بدمي ، ولا تجعلوا لأهلي حرمة ..!

قال : ابقَ ، فمثلك من يحمي قومه .. وكان كليب يقول في نفسه :

لقد أردت ياعم ان تبقيني في حيّك لأحمي نساءك ، وأنا اريد ان لا يبقى في هذا الحي ، واحدة من النساء ..

وعوّل القوم ، قبل انصرافهم الى الخيام ، ان يسيروا بعد ثلاثة أيام .

٣٠

قالوا للمثنى : لقد أقبلت جنود أمير المؤمنين ..

قال : وأين ينزل هؤلاء الجنود ؟ ـ في ذي قار .

قال : اذهبوا وانظروا من حضر منهم وعودوا اليّ بالخبر اليقين .

فخرج بعضهم حتى أتوا ذلك الموضع الذي ذكروه واختلطوا بالقوم فعرفوا ما أرادوا ان يعرفوه ، ثم رجعوا ليقصوا على المثنى ما رأوا ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ ..

قالوا : وراءنا امراء وقواد هم ابطال العرب . ـ وجيش كثير ؟

ـ اكثر مما يظن الامير . ـ وعرفتم اسماء هؤلاء الامراء ؟

ـ بل حدثناهم وطلبنا اليهم ان يبقوا في مواضعهم حتى ينتهي اليهم امرك .

قال : من هم ؟.. فجعل احد الجواسيس يعدّهم قائلا : جرير بن عبد الله سيد بجيلة ومعه كتاب من امير المؤمنين يهب له فيه ربع الخمس من الغنائم . وناوله ذلك الكتاب ، فقرأه وقال : سنفعل ما يأمرنا به امير المؤمنين .. ومن عرفت غيره ؟ ـ عصمة بن عبد الله بن الحارث الضبيّ في قومه .

قال : لا أعرف الرجل ، فبنو ضبّه يقيمون بأرض بعيدة .. ثم من ؟

ـ قوم من بني كنانة عليهم غالب بن عبد الله ، وطائفة من الأزد ، اميرهم عرفجة بن هرثمة والاثنان يقودان سبعمائة رجل .

قال : هؤلاء اهل مروءة ونجدة ، وامير المؤمنين يثق بهم كما يثق بالمهاجرين والأنصار ، قال : وفي القوم هلال بن علفة فيمن اجتمع اليه من الرباب ، وابن المثنى الجشمي جشم سعد في فريق من عشيرته ، وعبد الله بن ذي السهمين في ناس من خثعم ، وشبث بن ربعي في ناس من بني حنظلة ، وربعي بن عامر في بني عمر ، وقرط بن جماح في عبد القيس ، وطوائف كثيرة من اهل الردّة ...

فأشرق جبين المثنى وقال : لقد أعز الله الاسلام بعمر بن الخطاب ، كما كان يقول رسول الله ، ثم قال : ومن في القوم من نصارى العرب ؟

– سمعت ان النمر وبني تغلب سيعودون في هذين اليومين .
– ولماذا اختارت العرب ذا قار طريقاً لها ؟ فقال : لان امير المؤمنين عهد الى القواد والأمراء جميعاً الا يعبروا بحراً ولا جسراً الا بعد ظفر !
– ومن أخبرك هذا ؟ – عصمة بن عبد الله ..
قال : الا ترون ان امير المؤمنين ، ينهانا في عهده الى العرب ، عن العبور مرة ثانية الى معسكر الفرس .. فقال من حضر : لقد اراد ذلك امير المؤمنين .
فقال لأبي زبيد : انك خبير بهذه الارض فأي موضع تراه يصلح للجيش ؟
قال : الشاطىء الشرقي .. – وفي أي مكان ؟.. – في البويب .
قال احسنت ففي البويب المجال الرحب وسندعو جيوشنا اليه يوم يصل الينا نبأ الاعجام . – بل خير لك ان تدعوها اليوم قبل مجيء اهل فارس .
وبينا هو يهم بان يفعل ، بلغه خبر وصول انس وعبد الله ، وجاء على الأثر من يقول له : لقد خرجت الفرس من المدائن بجيش عظيم ، فكتب الى القوم جميعاً:
« لقد جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب » . فسلك القوم القادسية والجوف ، وسلك بعضهم النجف ، وسار المثنى في وسط السواد حتى طلع على النهرين ثم على الخورنق حتى امسوا جميعهم في البويب ، الذي تقدم ذكره ، واجتمع شمل المسلمين من جديد ، كما اجتمع شمل العشاق ...

٣١

انتهى أمر الثورة في فارس ، بزعامة الفيرزان ورستم في وقت واحد .
رستم على ناحية ، والفيرزان على ناحية ، ومرجعها بوران ، ملكة الفرس بالاسم .
فلما بلغها قدوم جيش المسلمين ، استأذنا عليها ، وكانت تخاطب اهل الدولة،

من وراء حجاب ، يجعل لها في قاعة العرش . فقال رستم : بلغنا أيتها الملكة ان طوائف المسلمين تملأ العراق ، وان ملكهم يبعث بالجيش وراء الجيش ليثـأر بالرجال الذين قتلوا في واقعة الجسر .

وكانت فارس لا تكثر البعوث قبل وقائعها مع العرب ، فقـالت : وما بال اهل فارس لا يخرجون الى الحرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم ؟

قال : ان الهيبة يومئذ كانت مع العدو .

– ولكن جيش العرب كثير كما تقولان فلا سبيل الى النجاة منه الا بالحرب، وتلك الهيبة التي أثرت في نفوس المسلمين يوم الجسر ، قد زالت الآن .

فقال الفيزران : وأي قائد نرسله هذه المرة ؟

– اختارا لكما رجلاً لا يحمل العار لقومه .

فقال الاثنان : لقد اخترنا مهران الهمداني الذي تعرفه الملكة وهو من أشهر القواد . – وابعثا معه الأفيال التي تفتك بقواد الأعداء .

– سنفعل ، وسيكون جيشنا هذه المرة ، اكثر عدداً منه ، في المرة الاولى.

قالت : أسألكما سؤالاً آخر : لماذا لا تجعلان بهمن قائداً لهذا البعث ؟

وكان الاثنان قد بدآ يخافان ذلك الرجل ، الذي تمشى الغرور في بردتيه ، بعد تلك الواقعة التي خدمه بها الحظ، فقال رستم : سنبعثه على رأس جيش آخر، في حرب أخرى !

– لماذا ؟؟. – لأننا نخشى ان يدفعه الظفر الى الغرور ..

فقالت في نفسها : انهما يخافانه على نفسيهما ، ثم قالت لهما : اجل فقد يكون الغرور سبباً لنزول المرء عن مقامه .. أرسلا مهران .

فخرجـا ليعدّا الجيش والواحد منهما يطمع بالسيادة دون الآخر وبوران من الناحية الاخرى تريد ان تستأثر بالملك. وكان مهران في احد أروقة القصر الملكي، ينتظر الرجلين فلما أبصراه قال الفيرزان : لقد انتهى الأمر اليك فتهيأ للزحف .

قال : أليس من الرأي ان أرى الملكة ؟

– ليس عند الملكة ما تأمرك به ، اذهب وانظر في أمرك ومر الفيالة بان

يستعدوا للسير بعد عشرة أيام .

قال : ارجو ان تأمروا رؤساء الجيش بالطاعة لأستطيع ان أجمع الصفوف .

– سنفعل ، فلا تنسَ أحداً من رجال السيف .

– وما هو عدد الجيش الذي تريد ان أزحف به ؟

فتشاوروا ، ثم قال رستم : مئة الف !. فقال مهران : هذا كثير يا مولاي .

فهامسه قائلاً : لا تستخف بالمسلمين فهم رجال الحرب وقد رأينا من قبل ان الواحد منهم ينازل ثلاثة . فهز القائد رأسه وقال : نعم لقد كان ذلك من قبل .

قال : لقد استخف الجالينوس بالقوم قبلك فكان الفرار نتيجة ذلك الاستخفاف فاحذر ان تفعل كما فعل . قال : سترى يا مولاي من مهران غير ما رأيت من الجالينوس .

– لولا وثوقنا بك لما جعلناك أميراً لجيش العراق ، أتعرف ماذا تعطيك الملكة اذا انت ظفرت بعدو قومك ؟

– تعطيني مثل ما أعطت بهمن .. لقد وهبت له قصراً من قصور الأمراء يعيش فيه .

– بل تهب لك غير ذلك . – ماذا يا مولاي ؟

– قصراً من قصور كسرى .. – ان لي قصراً ..

– وتعطيك عشرة الاف دينار من دنانير كسرى وتملأ هذه القلنسوة التي تلبسها من جواهر العرش ..! – ومن يطلب اليها ان تصنع كل هذا ؟

ـ لقد سألناها نحن الاثنين فوعدتنا به وانت تعلم انها تفي بما تعد .

ـ وهل تضمن لي ذلك يا مولاي ؟ ـ اجل .

فقال الفيرزان : وانا اضمن هذا كما اضمن لك شيئاً آخر هو اعظم مما ذكره رستم ، ـ ما هو ؟ ـ منصب القيادة في دولة الفرس .

فبرقت عينا القائدالزاحف الى القتال وقام في ذهنه انه سيعود منالمعركة وهو يجر أذيال النصر .

ثم خرج من القصر يحمل اوامر الملكة وتائبها باعداد الجيش والمدائن كلها ، لشدة فرحه ، لا تتسع لاحلامه ...

٣٢

بدأ المثنى ينظم صفوفه ، قبل ان يقدم جيش الفرس وجعل لكل امــير من امراء الجند ، طائفةً من اركان الحرب ... ذلك ما فعله أبو عبيد بن مسعود ، قبل واقعة الجسر وانها لحكمة يلجأ اليها القواد قبل كل قتال ..

وكان المثنى يخاف ان تنتقض جراحه بعد برئها فتمنعه من الضرب والطعن كما يشاء ، فاختار له رفاقاً في الميدان هم نخبة الابطال .

جعل أبا زبيد الطــائي وولديه ، رفاقاً لجرير بن عبد الله سيد بجيلة ، وسيد النمر وولده وعبد الله التغلبي رفاقاً له ، وجعل كليباً وبعض امراء تغلب ، اركاناً لحرب عبد الله بن ذي السهمين .

فاجتمعت طيء وبجيلة تحت لواء ، وانضمت تغلب والنمر الى الرجال الذين يحاربون بقيادة المثنى نفسه ، وكان بنو خثعم ، الذين يرأسهم ابن ذي السهمين ، نصيب كليب بن خالد ، ومن معه من الامراء التغلبيين .

على ان نظام العشائر ، في الحرب ، لم يتغير الا فيما يعني الخضوع المطلق للقائد العام ، والاسترشاد برأيه ، الذي هو فوق جميـع الآراء .

وكان كليب ، اكثر الناس فرحاً بهذه القسمة ، فمجال الغدر يتسع له مع بني خثعم الذين لا يعرفونه ، والعيون لا تتجه اليه وهو بعيد عن عمه ، في الميدان .

وقد استطاع ان يتقرب الى عبد الله بن ذي السهمين ، ويجعله في بضعة ايام ، من اخلص الناس له ، وعبد الله لا يعلم شيئاً عن ماضيه ، وعما يفكر فيه .

وكانت كبشة ترى في عيني أخيها آثار الشرّ ، وهي هادئة ساكتة ، يخفق قلبها على حب زياد ، ويضطرب ذعراً عندما تذكر الثــأر الذي يردّده كليب ،

ولكنها كانت كثيرة الحذر ، لا يفوتها شيء ، ولا تغفل عن شيء .

واذا نامت ، كان نومها غراراً ، كثير الاحلام .

وكانت قد رأت ، ان عرى الولاء ، بين أخيها وعبد الله ، قد وثقتها الأيام ، فحسبت للأمر حسابه ، وايقنت بأن هذا الولاء سيخلق العجائب .

ولم تكن مخطئة في ذلك ، فقد سمعت، في احدى الليالي ، في مضرب اخيها، همس رجلين .. وليس بين خبائها ، وذلك المضرب ، غير جدار ، او ستار من الصوف فأحست بأن الشر قد بدأ بالظهور، وكان الليل قد مضى نصفه، وكليب يظن انها نائمة ولكن فاته انها كانت تسمع حديثه وحديث صاحبه ، كلمة فكلمة .

ـ ما هي الحكاية التي تريد ان تقصها عليّ .

ـ حكاية ثلاثة رجال ، من أركان هذا الجيش .   ـ جيش الاسلام ؟

ـ نعم .   ـ ومن هم ؟

ـ ابو زيد الطائي ، وانس بن هلال وولده المنذر .

وكان عبدالله بن ذي السهمين ، يجهل ان كليباً ، ابن اخي انس ، فقال : ابو زبيد الذي سيحارب مع بجيلة ؟

ـ اجل .   ـ وماذا صنع هؤلاء الثلاثة ؟

لم يصنعوا شيئاً ولكنهم سيدفعون المسلمين الى هوّة الموت ..

فتراجع الرجل مذعوراً وقال : انظر فيما تقول يا كليب .

قال : ان الكلمة التي أقولها لك الآن اثبتها بعد أيام ..

ـ ولماذا يفعلون ذلك ؟   ـ لأنهم من انصارالفرس ..!!

فارتفع صوته قائلاً : كليب ! انك من النمر ..

ـ نعم من النمر ، وابن أخي انس بن هلال الذي ذكرت ، ولكني لا أستطيع الا ان أبوح بما أعلم ، للرجل الذي اختارني القائد العام لأحارب الى جانبه ..

قال : وكيف عرفت هذا ؟   ـ لقد أرادوا أن يجعلوني من صفّهم فأبيت.

فظهر الغضب على وجه ابن ذي السهمين ، ثم خطر له خاطر خمدت معه نار

ثورته فقال : ولكن ذلك لا يكفي فأنا اريد ان أعلم الساعة اسم الرجل الذي عاهد الفرس على خيانة جيش الاسلام .

فتردد الفتى قليلاً ثم قال ، لا أستطيع ان أعلم من هو الرجل الذي فعل هذا ، ولكني واثق بما قلت ..

– اي انهم جميعهم متآمرون ؟. – اجل وهذا ما ثبت لي .

فأسندت كبشة رأسها بيديها ، وكادت تصيح صيحة ذعر تفضح بها نفسها .. وكانت تقول في سرها : ويل لك ايها الاخ الغادر الذي لا يخاف الله .

اما عبدالله ، فكان الشك عندئذ قد دبّ في صدره ، وكان يقول : لقد ذكرت الآن امراً يا ابن خالد .

– ما هو ؟ – ألم تقل ان ابا زبيد الطائي شريك لقومك في المؤآمرة ؟

فأدرك اللعين معنى سؤاله فقال : بلى .

– ولكن الرجل كان آخر من خرج من الميدان ، في واقعة الجسر ، ولولا دفاعه ، مع المثنى وابي محجن وعروة بن زيد الخيل ، عن المسلمين ، ساعة فرارهم ، لما عبر النهر مسلم . فابتسم قائلاً : وهل كنت حاضراً ايها الامير ؟

ـ لا ، غير ان المثنى الذي حمى الجيش في تلك الواقعة ، قصّ عليّ ذلك ، وابو زبيد اليوم أقرب المقربين اليه كما رأيت . قال : لم يكن هذا الطائي متآمراً ، في ذلك الحين .

ـ اذن ماذا ؟ قال : قدم القوم جميعهم قبل واقعة الجسر ، ليشاركوا امير المؤمنين ، في الغنيمة . – وبعد ذلك ؟

– وقبل ان ينفخ في بوق الحرب ، غزت احدى عشائر عنزة بلادنا ، فرجع انس وابن الفهر ونحن معها ، لنسترجع ما سلبنا إياه الغازي ، ولم نشهد الواقعة التي ذكرت .

ومتى تمت المؤامرة ؟ – بعد ان أمسينا في البويب !

– منذ يومين ؟ – او ثلاثة ايام .

قال : ان ابا زبيد لم يفارق المثنى يوماً واحداً فليس لنا ان نظن انه هو الذي

عاهد الفرس على خيانة قومه .

قال : ان في الحيرة طائفة كبيرة من جواسيس فارس وقد كان قادراً على ان يعاهد أحدهم ، والمثنى لا يدري !

قال : لننظر في الامر من الناحية الاخرى ، ألم يرَ انس وعبدالله بن الفهر ، في سفرهما الى بلاد النمر ، أحداً من رجال العدو ؟

– لا . – وهل كنت معهما في النهار والليل ؟

– نعم . – اذا كان هذا فالامير الطائي هو البادىء .

– هذا ما أراه . – وفي أي شيء يطمع الرجل والغنائم بين يديه ؟

– اما انه يطمع بالمال الكثير .. أو بالسلطان .. – وأي سلطان هذا ؟

– لعله يريد ان يستولي على الارض التي تجاور بلاد قومه ، ولا يتمّ له هذا الاستيلاء الا اذا تمّ النصر لهؤلاء الأعجام .

– ولكن المثنى لا يصدق كلمة تقال عن الرجل ، أتشهد أنت ؟

– وأي شأن للمثنى فيما نقول ؟

– انه قائد المسلمين والأمر في يده .

قال : نستطيع نحن ان نفعل ما لا يستطيعه هو .

قال : الجندي لا يفعل شيئاً الا اذا أمره به قائده .

قال : ليس من الرأي ان تنتشر في الجيش أخبار المؤامرات .

– بل يجب ان يعلم الجيش ان بين صفوفه قوماً يخونونه ، وان جزاء الخائن الموت .

– خير للمسلمين ان يموت الخائن في ساحة القتال وهم لا يعلمون من هو !!

ـ واذا ظهرت خيانته ولم يمت ؟ ـ أنا أضمن موته ..!

ـ أنت ؟ ـ نعم أنا ؟

ـ وتستعين بسيفك ؟ ـ اي والله ولا أبالي بالنسب وصلة الرحم !

ـ ولكن الخونة ثلاثة ووراءهم عشيرتان .

قال : نقتل هؤلاء الثلاثة والقوم يظنون انهم ضحية الحرب !

ـ أي أنك تريد ان تغدر بهم واحداً بعد واحد .

ـ أجل ، وهذا ما أردت ان أشاورك فيه ، على ان لا تذكر للمثنى شيئاً مما قلت فأنا أكره ان أفضح قومي !! ـ ومع ذلك فانت لا تكره ان تقتل عمك !

ـ ليمت الخائن وليسلم الشرف .. ـ وما الذي يدعوك الى ذلك ؟

ـ اخلاص أحفظه للمسلمين الذين يحاربون في سبيل الله .

ـ وهل فكرت في عاقبة عملك ؟

ـ فكرت في كل شيء ولم يبقَ الا ان تأذن لي في إظهار ما فكرت فيه ، يوم تصطدم الخيل في البويب . قال : صف لي ما يخطر لك .

ـ أترك صفّي ساعة في كل يوم ، لأقتل رجلاً ، ثم أعود اليك ، وعلى سيفي بقية من دمه . ـ واذا رآك قومه ؟

ـ يحسبونني عدواً فسألبس ثوب فارسي !

قال : أتعلمني الغدر يا كليب وأنا ابن ذي السهمين ؟

ـ بل أسألك أيها الأمير أن تنقذ قومك .

قال : سأخبر المثنى بكل شيء فقد تعوّد ان يضع العدل في موضعه .

قال : ارفق بالنمر ولا تفعل .

قال : تسألني رأس عمك ، ثم تسألني الرفق بقومه ؟

ـ نعم ، فاذا كان عمي مذنباً فالقوم أبرياء وشرفهم يجب أن يصان بين قبائل العرب .. قال : لم أكن أعلم من قبل ان للخائن شرفاً ..

قال : أستحلفك بالله والرسول أن تكتم المثنى ما ذكرته لك وأنا أكفيك شرّ الخونة ، وأخنق أصواتهم الى الأبد ..

فهزّ رأسه قائلاً : ان المسلمين لا يخافون من ذكرت ، ولكنهم لا يطيقون ان يحارب تحت لوائهم ، رجل يضمر لهم الشرّ .. سأرى المثنى بعد ساعة ..

وقد وثق عبدالله عندئذ بان الفتى كاذب ، وان له غاية يريد ان تتم له من وراء هذه الأكاذيب .. وجعل يحدق اليه ، والابتسامة على شفتيه .

فقال : وماذا يفعل المثنى اذا اخبرته ؟

ـ يختار له واحداً من أمرين ، إما أن يطردهم من الجيش قبل ان يفضحوا أنفسهم ، وإما أن يجعلهم داخل نطاق من العيون ..

ثم قال : هذا اذا رأى انك صادق فيما تقول .

ـ وهل تجد من الحكمة أن يتفرق القوم عن المسلمين قبل ان يحملوا السيف ؟

ـ أؤثر أن يتفرقوا اليوم ، على أن يخونوا غداً .

قال : اذا فعلتم ذلك انضمت العشائر الى الجيش الفارسي واختلّ نظام الصفوف التي تحارب مع الاسلام . وفي كلمة كليب شيء من الرأي .

فقال : أصبت ، غير اني لا أستطيع السكوت عن هذا ..

قال : هب انك لم تسمع شيئاً .

ـ وكيف تخشى ان تفضح قومك وأنت تفضحهم الآن ؟

ـ لأني وثقت بك الوثوق كله ولم يقم في ذهني انك ستنقل ما تسمعه الى قائد الجيش . ـ ولكن ألا ترى ان في السكوت نفعا للفرس .

ـ لا ، فأنا أتولى الأمر عن المثنى وأنقذ الجيش من المتآمرين كما قلت .

قال : اذا أردت ان أكتم سرّك ، طلبت اليك ان تعدل أنت عما تهمّ به .

ـ أعدل عن القتل ؟ ـ أجل ، وتنسى ما حدثتني به ، وعليّ الباقي .

ـ ومن يمنع شر الجماعة؟ ـ أنا، فلا أريد ان تمتد يدٌ الى الخونة غير يدي.

ـ ولكنك من القواد ، وستنسى ، عندما تقتحم الصفوف ، ان هنالك أنذالاً يريدون ان يقذفوا بالمسلمين ، الى لجة العار !

قال : لا تخف يا ابن خالد فقد تعوّدنا ، ونحن في ساحات الشرف أن نرى كل شيء . قال : وهل انتهت مهمّتي الآن !

ـ وما هي مهمتك يا بني ؟ لقد نقلت إليّ الآن ان في الجيش رجالاً يشتغلون لحساب الفرس ، أليس كذلك ؟ ـ نعم .

ـ وأنت تسأل قائدك أن يأذن لك في القضاء على هؤلاء .. ـ نعم .

ـ غير ان هذا القائد لا يرى ما تراه، وهو يمنعك من ان تفعل ذلك ولا يأذن لك ان تشهر السيف الا على الاعجام .. افهمت الآن ؟

فسكت اللعين ملياً وهو يقول في نفسه : قتلني الله ان حاربت تحت لوائك يا عبد الله ... ثم قال له : أجل فهمت وسأفعل ما تأمرني به .

فهمّ عبد الله بالخروج من الخيمة، فقال : اتعدني أيها الأمير انك لا تبوح للمثنى بما سمعت ؟

– بل ابوح له بكل شيء وانا اعدك بان هذا السر لا يفـــارق صدره ...

– ولا يعرفه عمي وابو زبيد ؟ – لا .. ولكن احذر ان تمد يدك اليهما.

وانصرف وهو يفكر في هذا الفتى الذي يريد ان يجعله مطيةً لغرضه .. وندم على ذلك الاخلاص الذي أظهره له ، ولم يرَ الان الا ان يبتعد عنه ، ويجعله في الحرب ، رفيقاً لسواه، وكان يخاطب نفسه قائلاً : لو كان الفتى صادقاً فيما يقول، لروى للمثنّىَ حكايته ولم يبالِ .. ان له غايةً وسأعرف غايته .

أما كليب فقد رأى انه أخطأ بوثوقه بابن ذي السهمين .. فملأ الخوف فؤاده. ثم جعل يلوم نفسه على هذا الخوف ، وعمد الى الاستقلال برأيه ، وانكار ما قاله للرجل اذا سئل عنه .. وقد ارتاح الى فكرته ، فاستلقى على فراشه لينام ملء جفنيه .

٣٣

أحسّ عبد الله بأن الكرى طلّق جفنيه ، فلم يأوِ الى خيمته ، بل انصرف يريد المثنى ، وهو يظن انــه سيراه في فراشه ولكن المثنى الجريح الذي تهدده جراحه بالموت ، كان يطوف بعد نصف الليل بين صفوف جيشه ، ليلمس بيديه ايمان ذلك الجيش ، ويتبين استعداده للقتال الرائع ، الذي ستشتعل ناره بعـــد بضعة ايام !

وكان الهدوء يشمل المعسكر ، وليس بين المضارب غير الحراس الذين يروحون ويجيئون ، بحذر ، واطمئنان وصبر ، وقد عرفوا قائدهم ، فمشى بعضهم وراءه

معع بأيديهم الرماح .

وبينا هو يسأل حراسه عن أحوال رجاله أقبل عبد الله يمشي في مهل وهو يقول : عبد الله بن ذي السهمين !

فرفع المثنى صوته قائلاً: ابن ذي السهمين في هذا الليل ؟ ـ نعم ايها الامير.

ـ وماذا تصنع في المعسكر ؟ ـ أتيت لأراك .

فدنا منه قائلاً : انك لا تأتي في مثل هذه الساعة الا لأمر يهتز له الجيش .. ماذا جرى ؟ ومشى الاثنان ، ويدا المثنى على جراحه يحاول ان يسكت وجعه .

فقال عبدالله : احمل اليك خبراً ، اذا صدق صاحبه، اهتز له الجيش . قال : قدمت جيوش كسرى ؟ ـ لا .

ـ وهل اشتعلت نار الثورة بين العشائر النازلة في البويب ؟ ـ لا .

ـ وهل مات امير المؤمنين ؟ ـ حرس الله امير المؤمنين .

ـ اذن فالجيش لا يضطرب الا لأمر آخر لم يبق سواه .

قال : اذكر هذا الامر . قال : خيانة !!

ـ نعم أيها الأمير . خيانة يلبس أصحابها لباس المخلصين !

فشعر المثنى بان الدم يتدفق من جراحه ، ولكنه لم يتردد في مسيره ولم يفارقه الهدوء .. وكان عبدالله يسمع صوت أنفاسه ، بل يسمع صوت زفيره وهو ساكت .

على ان المثنى كان يمشي ولا يقول كلمة حتى انتهى الى مضربه ، فاستلقى على بساط له يشبه الفراش والتف بعباءته وجعل يقول : أوجز يا عبدالله .

فجلس عبدالله وقال : سأقص على الأمير ما سمعته دون ان أبدي له رأياً فيه ، إلا بعد ان يذكر رأيه . ـ قال : هات .

قال : في الجيش ثلاثة أمراء يخدعونه ! ـ بماذا ؟

ـ بالظهور بمظهر الدفاع عن المسلمين ، وهم خونة !

ـ وكيف تصف خيانتهم ؟

ـ سيكونون أصدقاء لنا يوم تروج سوق الموت . ـ وبعد ذلك ؟

ـ واذا رجحت كفة الفرس بعد ذلك ، يمسون أعداء .
ـ إذن فهم حصة الظافر !
ـ نعم، وهم لا يفضحون أنفسهم إلا في الميدان . ـ ومن معهم من العرب؟
ـ طوائف من عشائرهم الثلاث !
فاستوى جالساً وقال : عشائر ثلاث !؟ إذن فالخيانة تسود قطعة كبيرة من قطع الجيش الذي ينتظر عدوه .. اذكر الأسماء الآن ..
فخفض صوته قائلا : أنس بن هلال النمري .
فزفر المثنى زفرة ثم قال : ويلك يا عبدالله انك تذكر أشراف القوم .
ـ أجل ، وسيحمل لواء الخيانة ولده المنذر .
ـ لقد خيل إليّ ، يوم رأيت هذا الفتى ، انه خير الفتيان .. ثم قال : أترى ان القوم باعونا خيلهم ليحاربونا بالمال الذي أخذوه ؟
ـ ليس لي رأي في ذلك كما قلت ، اني أكتفي بان أذكر لك ما قيل لي .
قال : وابن الفهر الذي يقود القوم من بني تغلب .. أخائن هو ؟
ـ انه مع ابن هلال في صف واحد ..
فزفر زفرة أخرى وقال : من يستطيع ان يقرأ ما في صدور هؤلاء ؟؟ لقد خدعت بهم وخدع ابو عبيد بن مسعود يوم قدموا الحيرة .. وكيف عرفت ذلك يا عبدالله ؟
قال : بقي أمير آخر أسميه لك ثم أخبرك كل شيء .
ـ من هو الأمير الآخر ؟ ـ رجل حمى المسلمين يوم الجسر .
فوضع يده على جبينه وجعل يستعرض ماضيه ويقول : رجل حمى المسلمين يوم الجسر ... انه ابو محجن الثقفي ، ولكن أبا محجن ليس في المعسكر .
قال : سمّ غيره أيها الأمير . قال : عروة .
ـ ابن زيد الخيل ؟ ـ نعم ، ولكن عروة ترك الجيش بعد الواقعة .
قال : ألا تذكر رجلاً من أنصارك غير هذين الرجلين ؟
ـ أذكر رجلاً هو سيد النبلاء ، وسيد الأبطال في ساحات الوغى ، أذكر

أبا زبيد الطائي الذي يساوي نصف الجيش . ــ انه أبو زبيد نفسه !!
فضرب الأرض بعباءته وقال : قدمت يا ابن ذي السهمين لتهزأ بي ؟
ــ والله ما قدمت إلا لأنقل الكلام كلمة كلمة .
قال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والله اني لأثق بابي زبيد اكثر مما أثق بنفسي ولقد كذب الذي خبَّرك . ــ ومع ذلك فهو من الخونة .
فانتهره قائلاً : اسكت ، فالمثنى بن حارثة قائد هذا الجيش ، يخون المسلمين، والامير الطائي لا يخون مسلماً . قال : لقد ظننت قبلك ما تظنه الآن .
قال : لا تزد كلمة يا عبدالله فانا أضنُّ بنفسي ان تصغي الى ما يجرح بطل بني طيء ، ويسيء الى شرفه . من هو هذا الكاذب الذي روى لك خبر خيانته ؟
فتكلف الهدوءْ وقال : ان الامير يقول في نفسه الآن ، ان الرجل الذي خاض صفوف الفرس يوم الجسر ، وصبغ فرسه ، وثوبه ، وسيفه ، بدمائهم ، لا يصير بين ليلة وضحاها ، صديقاً لهم ، وعدواً للاسلام ، أليس كذلك ؟
ــ بل أقول في نفسي ، ان اللسان الذي ذكر خيانة ابي زبيد ، لسان نمام لعين ، لا يحفظ أقوال رسول الله ، ووصية امير المؤمنين .
ــ ولكن اصغ الى النهاية ..
ــ والله لا أسمع كلمة واحدة بعد ، قل من هو ؟ قال : لقد أقسمت يميناً ..
قال : لئن أقسمت يا ابن ذي السهمين ، ان لا تبوح باسمه لأنتزعن هذا الاسم من صدرك الآن ، ويلك ، أتكتم قائد الجيش اسم النمام الواشي باعز الناس عليه؟
ــ لا والله لا أفعل ، ولكني وعدته ان قائد الجيش لا يبوح باسمه اذا انا بحت له به . أتعدني بالكتمان ؟
ــ وكيف أعدك بهذا وقد يخطر لي ان أفضحه عند الصباح !
فسكت عبدالله وجعل ينظر الى الارض . فقال : عجل يا عبدالله .
قال : أوتظن اني أنتهك حرمتي بيدي وأخلف ما وعدت !
فعمد المثنى الى اللين فقال : لعلَّ الرجل صديق لك ؟
ــ كان صديقاً لي . ــ واليوم ؟

ـ أما اليوم فقد بت أخشى صداقته وانا أسألك منالآن ان تبعده عنالجيش.
ـ لماذا ؟ ـ لأنه أراد ان يجعلني ، وانا سيد خثعم ، مطيةً لغايته !
ـ اذن فانت لم تثق بما قاله لك ؟
ـ بل وثقت بانه كاذب،وقد قلت لك اني أقصّعليك خبره ولا رأيلي فيه.
فأشرق جبينه قائلاً : اذا كان هذا فلم يبقَ لك عذر في هذا الكتمان .
ـ قلت اني وعدته أيها الامير فعدني انت بدورك انك لا تبوح باسمه .
ـ وان لم أفعل ؟ ـ أحفظ هذا الاسم في الصدر الى الأبد .
فرأى انه سيمضي في أمره الى النهاية ، فقال : أعدك بهذا .
ـ ولا يعرف اسمه أحد ؟
ـ لو سألني امير المؤمنين نفسه ان أذكره له لما فعلت .
قال : هو كليب بن خالد .
فجعل الامير يردد ذلك الاسم ، ثم قال : الفتى النمري ؟
ـ نعم وقد جعلته تابعاً لي فيالميدان وسيحارب مع قومي وهذا ما لا أريده.
قال : أعد عليَّ قوله .
فأعاده كما سمعه حتى انتهى الى ذكر القتل ، فقال المثنى :
ليس هنالك اخلاص يدفع الفتى الى مثل هذا . انه ثائر وشرير وسأنظر في أمره من وراء الستار ، في هذين اليومين .. ماذا تظن انت يا عبدالله ؟
ـ أظن ان بينه وبين القوم ثأراً وهو يضمر الشر لعمه انس بن هلال ، اكثر مما يضمره للآخرين .
فجعل يقول : يقتلهم واحداً بعد واحد في ساحة الحرب ، ليقوم في أذهان الناس انهم قتلوا بسيوف الفرس . ان عند الفتى ما عنده منالدهاء . ولكن لا . انه أعجز عن ان يلحق الأذى بانصار المسلمين وانا حي ..
ـ وكيف تحول بينه وبين غرضه ؟
ـ سأجعل اربعة من الرجال الاشداء ، حرساً له .. يمنعون شرّه .
ـ ولكن قد يغفلون عنه . ـ سيكون الموت جزاء الغافل .

ـ وماذا يصنعون به اذا همّ بالقتل ؟
ـ يقتلونه عندما يشهر سيفه ويجعلون جثته تحت الاقدام .
ـ وتريد ان تبقيه تابعاً لي ؟
ـ أجل فليس من الرأي ان انفـّره او انفرّ رجلاً واحداً من الجيش . ان الحكمة تقضي عليّ وعليك ، بان نتجاهل أمره ، وننظر اليه ، وهو بيننا ، كما ننظر الى عدو لنا نخدعه بمظاهر الحب .
ـ اما انا فأرى ان تطرده من المعسكر وتنهاه عن الرجوع اليه .
فهز رأسه قائلاً : ليس في هذا الرأي شيء من الدهاء يا عبدالله ، ان طرده من الجيش ، يفضحه ويفضح القوم وانت لا تريد ذلك وهنالك أمر آخر هو انه يستطيع ، وهو بعيد عنا ، ان يسيء الينا ، في ساعة من ساعات الليل ، اكثر مما يسيء وهو في هذا النطاق الضيق الذي نحصي عليه فيه الانفاس .
وخطر للقائد في تلك اللحظة ، خاطر جديد ، فقال : ارسل اليّ عند الصباح ، سيد بني النمر ، لأقرأ اسراره . قال : وهل تشك فيه ؟
ـ لو لم يكن ابو زبيد متهماً معه لمزّق الشك هذا الصدر ، اني لا أشك في رجل حمل هو وولداه ، أرواحهم بأيديهم ليدافعوا عن الاسلام .. أجل ، أنا لم اختبر سيد النمر بعد ولا اعرف ماضيه ، ولكن يكفي ان يثق به ابو زبيد ، ويعده صديقاً له ، ويشهد امام رؤساء العشائر ، بأنه من أشرف الناس ..
ـ وماذا عنيت بقراءة الاسرار ؟
ـ عنيت اني سأعرف الاسباب التي دفعت كليباً الى السعاية . اذهب ولاتنسَ ان تبعث اليّ بابن هلال .
فخرج ابن ذي السهمين وجعل المثنى يعالج جراحه وهو يعـــاني من الألم ما يعانيه ، حتى بزغ الفجر .

* * *

٣٤

أقبلت كبشة على خباء الزهراء ، عند الصبـــاح ، فابتسمت لها ابنة عمها ابتسامة الحب ، ثم رأت في عينيها الصافيتين آثار البكاء ، فقالت : ما هذا الذي أراه يا ابنة العم ؟

فأومأت اليها بان تصرف الجارية القـائمة بالباب ، ففعلت وهي تنظر اليها ، وقد اضطربت لما تراه ، من دلائل الهم .

فجلست كبشة وهي تقول : لقد عاد أخي كليب الى جنونه .

فضحكت قائلة : لم يترك كليب هذا الجنون ليعود اليه ، ماذا جرى ؟

فتساقطت الدموع على خديها وقالت : انه يتآمر مع أحد قواد الجيش ، على الأبرياء ، ويهم بسفك الدماء ..

ـ ولكنك قلت لي من قبل ، يوم عـــاد من ديار بني طيء ، ان ثورته ثورة غرام ، سيخمد ناره الزمان !

فذكرت الفتاة عندئذ ، انها لم تحدث ابنة عمها في ذلك الحين ، بمـا يجول في صدر أخيها ، من خواطر الانتقـام ، فقالت لها : لقد تلاشت عاطفة الغرام من صدره ، على ما ظهر لي ، وتأججت في ذلك الصدر نار عاطفـة اخرى ، تزداد اضطراماً في كل يوم . . — ومن هم الأبرياء الذين يهم بسفك دمائهم ؟

— أبوك انس ، وأخوك المنذر ، وابو زبيد . ثم قالت : وقد يتبعهم الرجل الذي يرأس بني تغلب ... فصاحت الزهراء صيحة ذعر لم تجاوز الخباء .

فأسكتتها قائلة : اذا بدرت منك بادرة يا ابنة العم انقضت الصاعقة . ان الجواري حول الخيمة والرجال والغلمان يروحون ويجيئون .

— وماذا تريدين ان اصنع وابي والمنذر يهددهما الموت ؟

— نخفض الصوت ونتحدث بهدوء فذلك خير للعشيرة ..

قالت : اسألك سؤالاً قبل ان تقصي عليّ ما تعللين. ألم يجيء كليب مستغفراً نادماً ، قبل ان تغزونا عنزة ؟

- بلى .   - ألم يعد عمه بالطاعة العمياء والخضوع الذي لا غشّ فيه ؟

- بلى .   - وما معنى ذلك الاستغفار ؟

- معناه انه استغفار كاذب ، ووعد رجل ثائر .. خدّاع .

وكانت الفتاة النبيلة ، تستصعب الاقرار بهذه الحقيقة الهائلة .

فقالت الزهراء : وكنت تعرفين ذلك يا كبشة ؟

- اجل ، كنت اعرف ما يجول في صدر كليب !

- ولماذا لم تذكري لي ما تعرفين ؟

- آثرت الصبر على التعجل في الأمر ، وقام في ذهني ان الايام ستمحو مايحس به اخي المجنون !   - وهل باح لك اليوم بما يريد ان يفعل ؟

- قلت انه يتآمر مع احد قواد الجيش وقد باح له بسره وسمعت أنا كل شيء .. لا ، لقد اخطأت .. ان ذلك القائد بريء من المؤامرة وقد نهاه عن الاستسلام الى ثورته .   - أتعرفين من هو ؟

- خيّل اليّ انه عبد الله بن ذي السهمين الذي سيحارب كليب تحت لوائه .

- وكيف سمعت حديث الاثنين ؟

- كانا يتهامسان في مضرب كليب ، وانا بالقرب منهما ، وكليب يظن اني نائمة ، وليس في المضرب من يفضح سره . وأعادت عليها ما سمعته .

فأطرقت الزهراء .. وجسمها يرتجف ، وجعلت تتمتم قائلة : ويلي لقد وقعت الفتنة في العشيرة وليس بعد الفتنة غير الخراب والذل .

فرفعت رأسها وقالت : بل يكون الذل نصيب كليب وحده ، الذي تحمل اخته البريئة عاره .. لا لا .. اني لا أسكت عن هذا ولا أطيق ان يغدر اخي بقومه ويستنزل عليه وعلى أبيه وأهل بيته اللعنات .

ومسحت دموعها وهي تقول : نعم .. سأنقذ العشيرة .. سأنقذ العشيرة ولو كلفني ذلك حمل العار الى الابد .

- وكيف تنقذينها وانت اضعف من ان تغيّري لأخيك رأياً ؟

- أبوح بما اعلم ولا أبالي ..   - لمن ؟

ـ لعمي انس وأبي زبيد ، وأردّ بصبر سهام النـــاس الذي سيقولون : لقد فضحت كبشة أخاها بين العربان .
قالت : هذا هو الشرف يا ابنة العم وانت تسمينه عاراً .. ولكن الاعتراف بما تعلمين يخلق الفتنة ، ويهرق الدماء .
ـ لقد فكرت في كل هذا يا ابنة العم فلم أرَ الا ان ابوح بكل شيء لأنقذ الأبرياء . ـ وكيف ذلك ؟
ـ ماذا يصنع كليب ، اذا سكتنا نحن الاثنتين ، عما نعلم ؟
فأدركت الزهراء معنى ذلك السؤال فقالت : يعمد الى القتل !
ـ واذا عرف عمي سرّه ؟
فترددت قليلاً في الجواب ثم قالت : قد يعمد الى ما يعمد اليه ابن اخيه .
ـ لا .. بل يحذره كما يحذره أبو زبيد ويتجاهلان غرضه .
ـ ولكن هذا الحذر صعب في معسكر يملأ الشاطىء .
ـ غير انه أسلم عاقبة من السكوت كما ترين وسنكون نحن جميعنا عيوناً عليه
ـ وهل يخطر لك ان أبي يقف عند هذا الحد ؟
ـ يجب ان يفعل ذلك اذا أراد ان يسلم شرف قومه .
وذكرت عندئذ كلام ابن ذي السهمين ، فقالت : وانا أظن ان هنالك رجلا غريباً عنا ، سيعرف ما نعرفه نحن ، ويفعل ما نفعله ..
ـ ومن هو هذا الرجل ؟ ـ المثنى بن حارثة .
ـ إذن سيلتهي خبر كليب الى القائد العام .
ـ أجل ، وأنا اثق بأن عبدالله بن ذي السهمين سيقصُّه عليه ، ويسأله ، كما وعد كليباً ، الا يبوح به . فجعلت الزهراء تقول : لو لم يجعلني ابي خطيبة لزبيد لاشتريت بنفسي سكوت ابن عمي وانتهى الأمر .
قالت : لقد انقضى الزمان الذي كانت فيه لكليب رغبة في الزواج ! انك لا تجدين اليوم في صدره ، غير البغض الذي لا حدّ له .
قالت : وماذا تصنعين بزياد ؟ أتخبرينه بكل شيء ؟

فتنهدت قائلة : سيخبره ابوه فليس لي معه شأن !!

فقام في ذهن الفتاة ، ان بين الاثنين شيئاً من الجفاء ، فقالت : ماذا تقولين يا كبشة ؟ — أقول ان الصلة بيني وبين زياد الطائي ستضمحل، كأنها لم تكن .

— الا تحبينه ؟ — احبه كما احب نفسي .. ولكن ..

— ولكن ماذا ؟

— ان هذه النار التي يرسل اخي لهيبها الى بني طيء، ستفصل بيننا الا الابد.

قالت : ستخمد هذه النار يا ابنة العم .

— من يعلم ، فقد يخلق الله ، قبل ان تنتهي الحرب ، ناراً اخرى تحرق العشيرتين اني في حلٍّ من زياد ولسنا خطيبين ..

— ولكننا نشهد انه وعد اباه بأن لا يتزوج غير كبشة .

— كما انك تشهدين ايضاً انه لم يشأ ان يخطبني ابوه له ..

— اجل .. ولماذا فعل ذلك ؟ — لأني نهيته عن الخطبة !!

— انت ؟ — نعم فأنا اخشى ان يقتل اخي أباه ، فتصبح خطبتهُ عاراً عليه . ان الفتى الشريف لا يتزوج فتاةً اخوها هو قاتل ابيه ! ..

— وكيف رضي بما تطلبين وهو يجهل اسبابه ؟

— قالت له ان لي سراً يجب ان يحترمه ، واقسمت له انه اذا كان هنالك زواج فأنا لا ازفّ الا اليه . قالت : خير لك ان تقصّي عليه حكاية كليب ، من يوم رجوعه من الربدة ، الى هذه الساعة .

قالت : اخشى ان تثور نفسه فامسي بين ثورتين ..

— ان نظرة واحدة ترسلها عيناك الساحرتان ، تسكت ثورته ، ومع ذلك فهو سيعلم من ابيه ، ما تحاولين ان تكتميه اياه . قالت : وهل تضمنين سكوته؟

— أضمن سكوت زبيد وأبيه ، ومتى سكت الاثنان سكت هو .

وكان الصواب فيما تقوله الزهراء ، فقالت : سأفعل ذلك الآن ...

— واين تركت كليباً ؟ — اظن انه يطوف في المعسكر فقد ترك خيمته الساعة وقد تكون له غاية من وراء هذا الطواف ..

ـ لعله يريد ان يضع يده بيد رجل غير ابن ذي السهمين ..
ـ هذا ما أراه .   ـ ولكن القواد لا يجسرون على المضي معه في الأمر إلا اذا شاوروا المثنى .. قومي نذهب الى خيمة أبي فنسمع رأيه ..
– واذا عاد كليب ؟   – نتظاهر بان الحديث حديث حرب .
فنهضت وهي تنظر الى الارض ، وكأنها تتردد في الخروج من الخباء .
فقالت لها الزهراء : أراك تترددين في الذهاب ؟
– أجل ، فقد قام النزاع الآن بين الشرف والعاطفة ، اني أخاف ان أخسر كليباً اذا فضحته ، وتخسر النمر سيدها وابن سيدها ، ويخسر بنو طيء سيدهم، ان لم أفعل . وعادت الى الإطراق وعيناها تلمعان .
ثم وثبت فجأة الى الخارج وهي تقول : امشي يا ابنة العم فالشرف خير من حياة العار ، وسأسأل عمي وأبا زبيد ان يرفقا بكليب .
فخرجت الاثنتان، وهما تتظاهران بالابتسام، خوفاً من ان تم عليهما العيون، التي يتلألأ فيها الدمع ..

* * *

كان انس جـــالساً على مقعده ، والمنذر بين يديه ، وهو يسأله عن أبطال العرب ، في ذلك الزمان ، ويذكران المثنى وبلاءه في حرب العراق .
فلما دخلت الزهراء وكبشة ، قرأ الاثنان الكآبة على وجهيهما ، وأيقنـا بأن هنالك ما ينغص عيش الفتـاتين ، وجعل انس يتفرس فيهما ثم قال : ما وراءك يا كبشة ؟
قالت : لي حاجة أسألك قضاءها يا عم قبل ان أقول كلمة .   — ما هي ؟
– هي ان تعدني بكتمان ما سأقوله الآن .   – أعدك بهذا .
– وابن عمي ؟   فقال المنذر : وانا أعد بما وعد به ابي .
فجلست تعيد على الاثنين حديث اخيها مع ابن ذي السهمين .
والوالد وولده لا يطرف لهـما جفن ، ولكن القلبين كانا يضطربان ، حتى

قصّت حكايتها كلها وهي لا تكفّ عن البكاء .

فبكى انس ! ليس بكاء جزع وخوف ، بل بكاء اعجاب ، بهذه الفتاة الشريفة القصد ، التي تقذف بأخيها الى الهوّة ، لتنقذ عشيرتها من غدره ! ثم رفع عينيه الى السماء قائلاً : من يظن ان كبشة وكليباً أخوان ..

وكان صوت البكاء قد ارتفع حتى خافت الزهراء ان يسمعه الغلمان خارج الخيمة ، فقالت لها : لقد تعاهدنا على حفظ السر ، فلا تفضحي نفسك .

وقال المنذر : كفـّي عن البكاء فسيحفظ الله حياتي وحياة عمك .

– وحياة كليب ؟

فأجابها انس قائلاً : وهذه ايضاً سيحفظها الله ، انك تخافينني وتخافين ابن عمك على كليب أليس كذلك ؟ – وأخاف بني طيء .

– ان كليباً لا يُمس وانت اخته ، ولكن الويل له اذا مشى وراء جنونه .. اذهب يا بني وادعُ أبا زبيد وولديه وعبدالله التغلبي .

فدعاهم المنذر فأقبلوا ، فحدثهم انس بالأمر وسأل أبا زبيد رأيه ، فقال :

ليسعَ بي لدى المثنى ما طابت له السعاية فهذا لا أعبأ به والمثنى أرفع من ان يظن بي الظنون .. واما انه يريد ان يغدر بي في ساحة الحرب فليفعل اذا استطاع ، فحياتي بيد الله يسلبني اياها حين يشاء .. – وأنت يا زبيد ؟

– ان الرجل الذي يخوض صفوف الفرس ليشتري بدمه شرف قومه لا يخشى كليباً . – وأنت ماذا تقول يا زياد ؟

فنظر زياد الى كبشة ، والهوى في عينيه ، ثم قال : يحق لكبشة ان تظن ان حياة اخيها في خطر .. انه واحد ونحن كثار ، وقد يخطر لها اننا سنعمد الى التخلص منه قبل ان يبرز غدره الى الوجود .. ولكن لتعلم الآن انه سيبقى ، في الظاهر ، أخاً لنا ، كما كان من قبل ، حتى يبدأ بالشر ، فننظر اليه عندئذ نظرنا الى العدو .

فقالت لها الزهراء : ألم أقل لك انهم سيحذرونه دون ان يسيئوا اليه ؟

فتنهدت قائلة : لقد أرضيت شرفي الآن فالحمد لله ..

ودخلت هند في تلك الساعة وجعلت تنظر الى القوم فلم تبصر كليباً ، فقالت في نفسها : هـــذا هو الشر .. ثم جلست بين كبشة والزهراء وهامستها قائلة : أين كليب لا أراه ؟

فأجابتها الزهراء: انه يشحذ خنجره ليذبحبه من ترين.. وأومأت الى القوم.

فعرف المنذر ما تقولان ، فقال : انهـــا احدى ثوراته يا هند .. فلا تنسي حادث الربدة . — ولكني لا أعلم ماذا جرى .

فخبرتها كبشة ما تعلم ، ثم جعل القوم يهزأون بجنونه ، ويستخفون بثورته وقد ارتاحت نفوسهم الا هنداً فنفسها لم تطمئن .

وبينا القوم على ما رأيت ، أقبل عبدٌ لعبدالله بن ذي السهمين يقول لأنس : ان مولاي المثنى بن حارثة يريد ان يراك ..

فنظرت كبشة الى عمها كأنها تقول له : لقد عرف المثنى كل شيء .

أما هو فقال للرسول : قل له اني سألحق بك .

وقال ابو زبيد وهو يبتسم : سيسألك القائد عن خيانتك ايها الأمـــير وانا أخشى ان يضرب عنقك ...

فنهض وهو يقول : أوصيك خيراً بولدي يا أبا زبيد .. ولكن نسيت انك شريك لي وسينزل بك المثنى غضبه .

فقال ابن الفهر : اذهب ولا تخف فنحن وراءك ..

غير ان هنداً كانت تتمتم قائلة: قولوا لكليب ابن أخيه ان يحميه ..

وكانت كبشة غائصة في لجة التفكير ، فلما سمعت هذه الكلمة رفعت رأسها وقالت : استحلفكم بالله الذي تعبدون ان تتناسوا امر كليب ولا تذكروه لأحد .

ولم تقل كلمتها حتى وقف كليب بالباب والابتسامة على شفتيه .

فابتسم له القوم جميعهم ، كأن وجوده بينهم يبعث الفرح الى الصدور .

وكان قد أبصر كآبة اخته ، فقال : كبشة .. لقد كنت تبكين !

فأجابه زياد قائلاً : أجل ، ولو عرفت سبب بكائها لضحكت .. أتعلم ماذا

خطر لها في الليل الماضي !   – ماذا ؟

– خطر لها اننا سنقتل جميعنا في ساحة القتال وقد رأت في منامها ان أخاها وعمها وابن عمها وجميع من ينتمي الى ابي زبيد أمسو جثثاً مضرّجة بالدماء !!!

فقال اللعين : من يعلم فقد نسقط جميعنا تحت أرجل الفيلة !

قال : لسنا خيراً من قواد المسلمين الذين بذلوا أرواحهم يوم الجسر ! لقد كان الواحد منهم يدافع حتى يموت ..

قال : الموت في الميدان هو شرف العربي !!

– ومع ذلك فليس فينا من يؤثره على الحياة .. أين كنت الآن ؟

– كنت في المعسكر وقد سمعتهم يقولون ان أخبار الجيش الفارسي انتهت الى المثنى في الليل الماضي ..

– إذن سيصدر اليوم أمره للجيش بأن يتهيأ للحرب .

فقال انس : من خبّرك هذا يا كليب ؟   – بنو حنظلة .

قال : فارس هؤلاء شبث بن ربعي ، أهو قال لك ذلك ؟

– أجل وكان معه فرسان قومه ، وقد دعاهم المثنى امس ، قبل غروب الشمس ، ليبشرهم بقدوم الفرس . قال : يظهر انه يدعو القواد واحداً واحداً لغاية له .   – ولكنه لم يدعُ أحدكم .

– بلى فقد جاء رسوله منذ لحظة وأنا ذاهب اليه الآن .

– ودُعي عبدالله وأبو زبيد ؟

– موعد هذين بعد الظهر .. قالها انس ، ثم خرج من مضربه يريد قائد المسلمين .

فرأى المنذر ان ينتزع اسرار ابن عمه فقال : وهل بلغ عبدالله بن ذي السهمين ما بلغ المثنى ، من أخبار العدو ؟

– لم يقل لي عبدالله شيئاً من هذا .

– كان عليه ، وانت ستحارب الى جانبه ، ان يدعوك في هذا الصباح ، ويسألك ان تنظر بالاشتراك معه ، في امر رجاله .

قال : سأطلب الى القائد العام ، ان يأذن لي في القتال ، مع شبث بن ربعي.
ـ لماذا ؟ ـ لأني لا أطيق ان يكون ابن ذي السهمين قائداً لي .
ـ وهل أساء اليك ؟ ـ انه أضعف من ان يسيء الى مثلي .. ولكنه جبان ، ومتردد في امره ، وانا لا احب الجبناء .. !
ـ وكيف عرفت فيه هذه الصفات ؟ ـ ألمس صفاته بيديّ ، في كل يوم .
ـ ومن قال لك ان المثنى يأذن لك في الانتماء الى سواه ؟
ـ اذا لم يفعل تركته في الميدان ، وحاربت القوم وأنا حرّ دون ان انتمي الى صفّ ، ودون ان يكون لي قائد غير المثنى بن حارثة !!
ـ خير لك اذن ان تظلّ بيننا ، تحمل عندما نحمل ، وتكرُّ عندما نكرّ ، وتتراجع الى الوراء حين تكثر الاعداء ..
ـ بل خير لي ان انتقل من ناحية الى اخرى .. ثم اعود عند الغروب لأذكر للمثنى وحده ما فعلت .
قال : هكذا تفعل الابطال يا ابن العم .. ولكن نخشى ان تضيع بين صفوف الفرس فتتخطفك السيوف ..
فابتسم قائلاً : ان الرجل الذي يعجز عن ان يحمي نفسه ، لا يستطيع قومه ان يحموه .. ونظر الى اخته فقال : اصلحي درعيّ يا كبشة فسيموت خلق كثير قبل ان أموت ..
فخفق قلب الفتاة النبيلة وجعلت تقول : ما كانت ابنة خالد لترضى باصلاح الدروع !! ـ وماذا تصنعين إذن ؟
فجال الدمع في عينيها ثم قالت : سأحميك !!
فقال زياد : بارك الله في فتاة تحمي أخاها . اما هو فقال : وقتل الله فتى تحميه أخته !
فرأى المنذر ان يكفّ القوم عن الكلام ، الذي سينتهي الى ما لا تحمد نهايته ، فقال : قوموا نشحذ السلاح .. ونهض يريد الخروج .
فقال كليب ، اما انا فقد شحذت سلاحي منذ شهرين ..

فاجابه قائلاً : ولكنك ستشحذه مرة ثانية بعد ان يلوث بالدماء ..
فقهقه ضاحكاً ، ثم انصرف وهو يقول في سره : بعد أن يلوث بدمك ايها اللعين ..
وكانت هند تتبعه بنظرها وهي ساكتة ، وقلبها يرقص من الخوف ..

٣٥

كان المثنى جالساً في مضربه ، وعنده عبدالله بن ذي السهمين . وكان الاثنان يتهامسان . فلما أذن لأنس بن هلال، في الدخول، انفرجت شفتا القائد الجريح ، عن ابتسامة صفراء ، امتزج بها الألم بالازدراء .
ودخل انس فسلـّم ، ويده على السيف .
فقال له : اجلس يا ابن هلال وجُد علينا برأيك ، في أمر هؤلاء الاعجام الزاحفين اليوم الى البويب ، فأومأ الى سيفه قائلاً : هذا هو الرأي !!
قال : ولمن أعددته ؟ — لعدوي وعدوّ العرب ..
قال : أحسنت .. ولكن ماذا صنعت بالمال الذي قبضته من المسلمين ثمناً لخيلك ؟ — احتفظت به .
— والمال الآخر الذي تملك منه الشيء الكثير ؟
ـ ليس للنمر مالٌ ايها الأمير .. ارضنا ارض الخيرات .. والسماء تجود علينا بالغيث في كل عام ، وقد كفانا الله مؤونة النزول اضيافاً ثقلاء على العرب .
ـ ولكن قيل لنا ان دنانير كسرى تملأ منزلك ويشهد بذلك عبد الله .
فتكلف الهدوء قائلاً : بل تملأ حزامي وهي التي دفعها لي سليط بن قيس بأمر ابي عبيد بن مسعود .! ـ وتلك التي دفعها اليك مرازبة الفرس ؟
ـ دفنتها في ارض الحيرة لأستعيدها يوم يضمحل جيش الاسلام !!!
فارتجفت شفتا المثنى ، وارسلت عيناه نار الغضب وجعل يقول :

وتعترف بهذا يا ابن هلال ولا تبالي ؟!
فأجابه وهو لايخرج عن هدوئه : لقد رأيت ان الاعتراف لا بدّ منه ففعلت:
قال : صدق صاحبك يا ابن ذي السهمين .. ثم قال لانس :
ألم تقل الآن انك لا تملك غير ارضك ؟
ـ بلى ، وكنت اظن انك لا تعرف هذا السر .. ـ ومن اعطاك المال ؟
ـ اثنان من رجال رستم الفارسي نسيت اسميهما . ـ وبعتهما نفسك ؟
ـ نفسي وشرفي ، وكرامة قومي !!
ـ وواطأتهما على ان تقذف بالمسلمين الى الهوة .
ـ أجل ، وواطأهما معي اميران آخران ...
فحنى المثنى رأسه وتمتم قائلا : لقد خاب الرجاء يا أبا زبيد .. ويلك اتعني ابا زبيد الطائي وابن الفهر ؟ ـ لا أعني سواهما ..
فقال عبد الله : وما الذي دعا أبا زبيد الى الخيانة ، وهو عدو الفرس ، وقد أبلى البلاء الحسن في حربهم يوم قتل أبو عبيد ؟
ـ دعاه الى ذلك طمعه بالإمارة !!
فهامس المثنى قائلا: لقد صدق كليب في كل شيء ، ثم قال لأنس :
الا تكفيه امارته ؟ ـ لا ، فهو يريد ان يضم بلاد بجيلة واسد الى بلاده .
فارتفع صوت المثنى يقول : ومن يهب له هذه البلاد ؟
ـ الجيش الفارسي الظافر ..!
ـ اذن يخطر لك وله ان المسلمين سيتراجعون عن العراق فيستعيد اهل فارس سلطانهم فيه ويخلو لهم الجو .
ـ نعم ، ولو لم يخطر لنا ذلك لما كانت المؤامرة ..
وكان ذلك الاستخفاف الذي يظهره ابن هلال ، اشد وقعاً على المثنى من تلك الخيانة التي يصفها له .. هو يبوح بكل شيء ولا يعبأ بهيبة القيادة ، فكأنه يظن انه اعزّ مقاماً واطول سيفا من سيف الاسلام!.. وهذا ما لا يطيقه ذلك الجندي الجبار ، الذي يستهين بالموت في مواقف الفخار ، فنهض قائلا : اعطني سيفك ايها

النمري ، وكانت يداه تضطربان !

فتردد انس في امره ، ثم تنـاول سيفه وأعطاه إياه ، وهو كالحجر الأصم لا يفضح نفسه وجهه ، ولا يطرف له جفن .

فرمى به المثنى الى البساط ثم قال : وهل تلبس درعاً ؟

ـ لا ألبسها إلا في الحرب ..

ـ وأين خنجرك ؟ ـ ان سلاحي السيف وقد تركت الخناجر للفتيان ..

ـ بل تركتها لأولئك الذين يخطفون الأرواح في ظلام الليل ..

ـ أجل ، اولئك الذين يغدرون بالأبرياء .. قال : مثلك يا ابن هلال !!

ـ بل مثل الذين تثق باقوالهم وتستسلم الى أخبارهم الكاذبة !

فأومأ اليه ان يسكت، والتفت الى عبدالله قائلاً له : لقد أراد الله ان يسلّم الينا أعداءنا قبل ان يجردوا سيوفهم .

ولكن النمري لم يسكت ، بل كان يقول : ما أظنكم نسيتم سيف ابي زبيد .

قال : لا والله ، ما نسينـاه ، انه سيف بطل صادق العزيمة ، ولكنه وهبه للفرس قبل ان تخمد النار .. أين خبأ ابو زبيد ماله ؟

ـ لا أعلم . ـ وأنت في أي مكان بالحيرة خبأت مالك ؟

ـ في موضع لا يعرفه غير الذي وشى بي .

فقال عبدالله : ان الذي وشى بك لا يعرف شيئاً عن المال .

ـ كان عليه ان يعرف كل شيء .

ـ ولكنه لم يكن موجوداً يوم وضعتم أيديكم بأيدي الفرس .

ـ وكيف عرف اذن اننا متـآمرون ؟

ـ طلبتم اليه ان يكون شريكاً لكم في المؤامرة فلم يرض .

ـ وقصصنا عليه أخبار المال الكثير الذي أخذناه ؟؟.

ـ أما المال فقد بحت به الآن وانتهى الأمر .

فقال المثنى : لسنا بحاجة الى مالك ، قل أين تركت أبا زبيد ؟

ـ في مضربه في المعسكر . ـ وابنك المنذر ؟

ـ وأي شأن للمنذر ؟

فابتسم قائلاً : ليس له شأن ، غير أنه سينزل ضيفـــاً عليّ ريثما تنتهي هذه الحرب ..! قال : لم أفهم .

ـ بل فهمت وأنت تتجاهل ، سيكون ابنك أسيراً حتى يخطر لقائد المسلمين ان يطلقه .   ـ وأنا ؟

ـ اما انت وابو زبيد فستحاربان الفرس كما نحاربهم نحن.   ـ وزبيد وزياد؟

ـ نضعهما في الأسر الى ولدك !

قال : خير لك أيها الأمير ان تأمر بضرب أعناقنـــا فتستريح من الشر الذي ستلاقيه ونستريح نحن بالموت .

ـ بل أعمد الى القصاص الذي ذكرت فهو أمرّ من الموت .. تحـــاربون في صفوف المسلمين وانتم مكرهون على الاخلاص لهم ، فتنظر اليكم الفرس نظرها الى الكذبة الغادرين ..   قال : الرحمة يا ابن حارثة ..

قال : لم يبقَ في هذا القلب شيء من هذا ، اذهب يا عبـــدالله وادعُ أولاً أبا زبيد واحذر ان تخرج من فمك كلمة يتناقلها الجيش ..

فخرج الرجل ، وجعل المثنى يخاطب نفسه وهو غير شاعر بوجود ابن هلال الذي اعترف بخيانته . كان يقول وهو مطرق : يسألونني الرحمة بقوم يبيعون دمـــاء المسلمين بدنانير كسرى .. لا والله لا افعل ولن أخون الاسلام وأنكث عهد أمير المؤمنين .. اقتل .. واضرب الاعناق يا ابن حـــارثة .. واسفح دماء الخونة حتى تصبغ ارض البيوت.. ولكن لا .. ان القتل يبعث الفتنة في الجيش وبين العشائر فلا أعمد اليه ..

والتفت فجأةً الى انس وقال : لو لم تكن الحرب على الابواب لعلمتك ايهـــا النمري كيف يصـــان شرف العرب ... ويلك أتخون ، قومك من اجـــل الفرس الذين ألبسوا العرب العار وتكيد للجيش الذي يخرج القبائل من ظلام العبودية ، الى نور الحياة، وتسألنا الرحمة ؟ اني والله لم أرَ في كل ما رأيت عربياً ضيّع رشده مثلما ضيعته انت .

قال : الرحمة يا ابن حارثة فقد ندمت .

فاغتصب ضحكةً ملأت مضربه وخفض صوته قائلاً : خـــير لي ان أسمع أخبار الخيـانة واللؤم في كل يوم ، من ان اصغي الى رجاء مجنون،فضحك انس عندئذ كما ضحك المثنى . !

فتميز المثنى من الغيظ ، وهمّ بأن يعمد الى السيف يبري به عنقه .

واذا ابو زبيد بالبـــاب ، ووراءه ابن ذي السهمين ، فأومأ اليه انس بعينيه وشفتيه ان يمازح القائد المضطرب ، ويقابل غضبه وثورته بهدوء وصبر .

والرجل لا يعرف شيئاً ، ولم يقل له ابن ذي السهمين كلمة عما حدث .

فلما دخل فاجأه المثنى بقوله : أبا زبيد ؟ أأنت هو الفارس العربي الذي حمى المسلمين مع المثنى بن حارثة يوم الجسر ؟ قال : اي والله انا هو !

ـ وأنت الرجل الذي شرّف قومه فبقي مع المثنى ولم يلجأ الى الفرار مـع المسلمين الذين لجأوا اليه ؟ ـ اي والله انا هو !

ـ وانت سيد بني طيء الذين تحدثت بمروءتهم وجودهم قبائل العرب في العراق ونجد والحجاز ، وتناقلت اخبار شرفهم نساء البادية ؟ ـ اي والله . !!

ـ وكيف ضيعت ، بين ليلة وضحاها هذا الشرف الذي ذكرت ؟

فرفع رأسه قائلاً : اني والله أؤثر ان تضيع حياتي على ان يضيع شرفي ..

ـ ولكنك فعلت ، وهذا ابن هلال يشهد ان لك يداً في المؤامرة ، على جيش الاسلام .. ففهم أبو زبيد عندئذ كل شيء ، فقال لأنس :

ـ أفعلتها أيها الأمير وانت هادىء ؟

فأجابه وهو لا يبتسم : سلـّم سيفك كما سلمت سيفي فقد فضحت الاسرار .

انظر الى سيف ابن هلال النمري اين هو ! انه على البساط وقد انتزع مني كما ينتزع السيف من الذليل الجبان ..

قال : اما انا فلا ينتزع سيفي غير يد الموت ... ماذا قيل لك ايها القائد ؟

ـ قيل لي انك امسيت حليفاً للفرس . ـ وما جزاء من يفعل ذلك ؟

ـ لقد ذكرت هذا الجزاء لابن هلال فسيذكره لك .

فتناول سيف انس وقال : ما كنت أعتقد من قبل انك تصدق ما يقال لك عن ابي زبيد .. مُر بارجاع هذا السيف الى صاحبه فهو سيف شريف ..

فبرقت عينا المثنى وجعل ينظر اليه وهو ساكت ، فقال عبد الله: بريء والله. فأخذ المثنى يردّد هذه الكلمة وهو لا يدري ما يقول: وقد اشرق جبينه ، وغمرت مظاهر الفرح وجهه ثم ابتسم قائلاً: نعم بريء كما ظننت ولم اكن مخطئاً. وهذا يا أبا زبيد ! وأومأ الى انس ، فقال ابو زبيد :

لو عرفت هذا الرجل لما تعجلت في التهمة . انه من أشرف العرب !

قال : ما خبرته بعد .. أبريءٌ يا ابن هلال وتقول لي انك من الخونة !

قال : رأيت الأمير واثقاً بما قيل له عني فطاب لي ان اماشيه . !

ـ ولكنك كدت تقذف بنفسك الى أتون النار ! ـ البريء لا يخاف شيئاً.

قال : اجلسوا اذن فقد طاب لنا الحديث الآن .. أعد ما قاله لك صاحبك يا ابن ذي السهمين .

فأعاد عبدالله على الأميرين حديث كليب دون ان يذكر اسمه .

فأراد المثنى ان يلمس البراءة بيديه فقـــال : أتقسم لي يا أبا زبيد ان الرجل الذي قال هذا ، كان كاذباً ؟

ـ أقسم بالله الذي رفع لواء الاسلام فوق العراق ، انه كاذب .

فأخذ سيف انس وقال له : خذ سيفك واضرب به عدو العرب فقد أخطأ من سلبك إياه .. قال : حسبي اني سلمته الى قائد المسلمين وأنا غير مكره .

قال : أحمد الله على ان الواشي كان نذلاً وانكما ، مع عبدالله بن الفهر أبرياء . ماذا ترى الآن يا ابا زبيد ؟ ـ أرى ان يذكر لنا الامير اسم النمام ..

ـ لا أستطيع ذلك لأني وعدت بان أحفظ في الصدر ، هذا الاسم اللعين ، ما بقيت .. ـ إذن يذكره لنا سيد خثعم .

فقال عبدالله : اما انا فقد أقسمت اني لا أبوح به الا لقائد هذا الجيش .

فقال انس: واما انا فلا أسأل أحداً ان يبوح به لأني أعرفه !! وقد أكرمتني الأقدار على ان أحمل عاره !! ـ تعرفه وتحمل عاره ؟

ـ نعم ، والشرف يدفعني الى الدفاع عنه !

فقال المثنى وهو يتجاهل : إذن هو من قومك .

ـ بل هو من لحمي ودمي ايها الأمير .   قال : من هو ؟

ـ خير لي ان أتناسى وجوده وليفعل هو ما يشاء .

ـ بل تبوح باسمه الساعة ليتسع لنا مجال النظر في أمره ..

ـ أتخفيه انت وأفضحه انا ؟   ـ أجل فانت لم تعد أحداً بالكتمان .

فأرخى نظره الى الأرض وقال : هو كليب ابن اخي .. وهذا هو العار الذي يلحق بي ، فاهتز المثنى لمظاهر نبالته وقال : بل هو الشرف العربي يخفق لواؤه فوق رأسك .. ولكن قل لي ، أبينك وبين ابن اخيك ثأر ؟

ـ اجل ان له ثأراً ولا تطيب له الحياة الا اذا محا حياة عمه وابن عمه !

قال : قصّ عليَّ حكايته فقد يكون له عذر ..

ـ نعم .. عذره انه نذل .. ومـــاذا أقصُّ عليك من حكايته ؟ انها حكاية زواج ، بل هي حكاية حبٍّ فاشل !!   ـ وهذا هو ثأره ؟

ـ بل هذا هو الدم الذي يطلب به ويسعى بالأبرياء من اجله! ـ ومن أحب؟

ـ ابنتي الزهراء ولكنها ليست راغبةً فيه .. وهل تعرف لماذا يضمر الحقد لأبي زبيد ولديه ، ومن ينتمي الى هؤلاء ؟   ـ لماذا ؟

ـ لأن الزهراء مخطوبة لزبيد ، وهنداً مخطوبة لولدي المنذر .. أفلا ترى ايها الامير ان له عذراً في سعايته ؟

قال : يخيل اليَّ اني عرفت الآن شيئاً جديداً   ـ ما هو هذا الشيء ؟

ـ هو ان المنذر أعرض عن اخته ، فكرهت هذه ان يصفع هواها ، وتجرح كبرياؤها ، وتبقى ساكتة ..

ـ تريد ان تقول انها هي التي دفعته الى السعاية .   ـ نعم .

قال : لقد كان القضاء والطبيعة جائرين عندما جعلا كبشة اختاً لكليب ..

قال : أخشى ان يدفعك حسن الظن الى الهاوية .

ـ ليست القضية قضية ظنون ايها الامير ، بل هنالك حقيقة رائعة ينطق بها فمٌ طاهر لا يعرف الشر . ان كبشة نفسها ، هي التي نقلت اليَّ خبر كليب

وهمسه ، مع عبدالله بن ذي السهمين !!

قال : اذا كان هذا فلا يستحق اللعين ، كما قلت ، ان تكون كبشة شقيقة له .. وأطرق ملياً والافكار تجيش في صدره ، وساد السكوت .

ثم خاطب ابن ذي السهمين قائلاً : تخرج من هنا وتطوف في المعسكر حتى تعثر على هذا اللعين فتدفعه بالسوط الى هذه الخيمة على مرأى من القوم .

قال : لقد سألتك يا مولاي ان تكتم الناس اسمه ، فوعدتني بذلك ، وانت تريد الآن ان تفضحه في الجيش . وقال انس وأنا أسألك بما لي من حرمة في جيشك ان تنسى ما حدثتك وحدثك عبد الله به .

قال : هذا هو الرأي ، غير أني أخشى ان أخرج عن هدوئي عند ما تقع عليه العين . ـ ولكن رحابة صدرك تتسع لأكثر من هذا .

ـ إذن فاحذروا جميعكم ان تغفلوا عنه ، احذر انت يا عبدالله .

فقال أبو زبيد : سنجعل حولنا نطاقاً من الحراس لا يشعر به .

ـ واذا غفلوا عنه ؟ ـ اذا غفلوا فقائد الجيش لا يغفل عن شيء .

قال : أصبت فسنكون جميعنا حراساً .

وخبّره ابن هلال وابو زبيد عندئذٍ ، انهما كانا يعلمان ما سيقوله لهما ، وانتقلوا الى حديث الحرب ، التي كانت صورتها مطبوعة في الفضاء أمام كل عين ..

٣٦

اجتمع الفتيان الثلاثة ، بالفتيات الثلاث ، ينظرون في أمر كليب ، الذي كان في نظرهم ، أعظم شأناً من امر الحرب .

وكانت هند كثيرة الخوف كما عهدت ، وقد أثر خوفها في كبشة والزهراء ، حتى أمستا مثلها ، تخافان كليباً ، والفتيان الثلاثة يهزأون بخوفهن ، ويظهرون الاستخفاف ، بذلك اللئيم الغدار .

ولكن هنداً لم تشأ الا ان تعود الى تلك النغمة القديمة القائلة : سأحمل السيف ، وافعل ما تفعله الفرسان !

والمنذر ورفيقاه لا يرضون بهذا ولا يأذنون لهنّ في حمل السيف .

حتى قامت المشادة بين الفريقين ، وتجاوزت العشاق الى رؤساء العشائر الثلاث ، ثم انتهى أمرها الى قائد الجيش .

خبره بذلك ابو زبيد بنفسه ، وطلب اليه ان يمنع الفتيات من النزول الى الساحة ، وكان يقول له مفتخراً :

انهن يؤثرن الحرب على الاقامة بالخيام ، وراء الجنود .

فرأى المثنى ان يصدر امراً عاما ينهى به نساء العرب عن الاشتراك في القتال ، غير انه أباح لهنّ الطواف بين الصفوف ، وهن يحملن الماء .

فعرفت هند عندئذ انه لم يبقَ لها امل بما فكرت فيه .

فاستسلمت الى ارادة الله وكانت كبشة والزهراء تشاركانها في الصلاة له عزّ وجلّ ، لينقذ اهلهن من غول الحرب .

* * *

ـ ماذا فعلت يا عبدالله ؟

ـ خبّرت المثنى ما ذكرته لي، لم أنسَ كلمة .   ـ وماذا قرأت على وجهه؟

ـ قرأت سطور الألم السوداء على ذلك الوجه ، ولو لم أدعُ المثنى الى الصبر، لمزّق جراحه بيديه ، من شدة غضبه .

فارتسم البشر على جبين كليب وقال : ثم بعث على الاثر يأمر عمي وأبا زبيد بالمثول بين يديه ..   ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ قال لي عمي نفسه ان المثنى يدعوه اليه ،ثم رأيتك انت تسأل عن ابي زبيد.

فقال ابن ذي السهمين : لقد كان ذلك غير ان المثنى لم يطلب الأميرين ليخاطبها بشأن المؤامرة .   ـ وماذا إذن ؟

ـ أوصاهما بالاخلاص والطاعة ، وحذّرهما من الانفراد بالرأي يوم يتلاحم

الجيشان ، وقد أملى عليـــه الدهاء ان يراقبها ، ويراقب ابن الفهر التغلبي من وراء الستار .

قال : لو كنت انا المثنى لضربت أعناق المتآمرين دون ان اسألهم عن شيء .

ـ أجل ، كنت تفعل ذلك يا ابن خالد !! ولكنك نسيت ان في الحجـــاز خليفة يستظل بظل عدله كل مسلم ، وان قواد الجيوش يخـــافون غضبه اذا خالفوا وصيته . قال : ان المتآمرين ليسوا مسلمين .

ـ ولكنهم عرب ، والعربي اخو العربي مهما يكن مذهبه .. ثم قال :

وهنالك شيء آخر يبتعد عنه صاحب الرأي هو الفتنة التي تفتح فاها وتبتلع الأفراد والجماعات . وقال : أيخاف المثنى الفتنة وهو سيحارب الفرس ?

ـ نعم ، فاذا اشتعلت النار ، امتدت ألسنتها الى العشائر ، وتصاعد لهيبها في كل أفق يملأ الفضاء .. أنسيت يا كليب انك طلبت إليّ ان يكتم المثنى الأمر خوفاً من الفضيحة ?

قال : خفت ان ينتشر الخبر في الجيش فيخسرقومي شرفهم دون ان نستفيد شيئاً ، وأما القتل ، فلو لجأ اليه صاحبك فجأة لنجا الجيش ..

ـ ولكن الشرف لا ينجو ، وان لم يعلم القوم اليوم علموا غـــداً ، ان الذين ضرب القائد أعناقهم قبل قدوم الفرس ، كانوا أنذالاً ..

ـ وهل تخشون الفتنة بعد الحرب ?

ـ لا ، فالقتل بعدها لا بدّ منه ، وسيعلم ابن هلال ومن معه ، ان خيانتهم المسلمين كلفتهم حياتهم ..

فسكت قليلاً ثم قال : ألا يأذن لك القائد يا عبدالله ان تحارب في القلب ?

ـ لقد أمرني بان أنضم مع قومي ، الى صفوف الجنـــاح الأيسر ، وانتهى الأمر .. ولكن لماذا تسألني عن هذا ?

ـ لأني أؤثر ان اكون في قلب الجيش .

فأدرك غرضه فقال : القلب أصعب مواقف الجيوش يا ابن خالد .

ـ ولكني تعوّدت ان استهين بالأخطار ..

قال : لا استطيع ان افعل شيئاً مثل هذا إلا اذا أمرني المثنى ..
ـ سأسأله ان يأذن لي ان لم يأذن لك ..
قال: افعل ولكن لا تقل له اني رأيتك. قال: أيؤذن لي الآن في الدخول؟
ـ ان ابواب مضربه مفتوحة لكل قادم ، على رغم ما يقاسيه .
فمشى كليب يريد المثنى ، وانثنى ابن ذي السهمين وهو يقول في نفسه : يدنو هذا الفتى من النار وهو لا يدري ، فالويل له اذا غضب ابن حارثة .

* * *

لم يكن كليب قد جالس المثنى ، غير مرتين اثنتين .
الأولى ، يوم مثل القوم جميعهم بين يدي أبي عبيد بن مسعود ، والثانية ، يوم عادوا من ديار عنزة ، بعد يوم الجسر .
على ان المثنى كان يعرفه ، بل كان يعرف جميع فتيان العشائر ، اللامعين .
فلما دخل عليه ، هشّ الرجل المتألم للفتى الغدّار ، وأذن له في الجلوس ثم قال : أهلاً بابن خالد النمري المخلص للجيش .. قال : انك تعرفني اذن يامولاي !
فهزّ رأسه قائلاً : على القائد الّا ينسى شيئاً يا بني ، ما هي حاجتك ؟
ـ جئت اسأل مولاي ان يأذن لي في قضاء امر ليس لأحد شأن به .
ـ سل ما تشاء .
ـ اطلب ان تضمني في القتال ، الى الصفوف التي تقودها انت .
فخاف المثنى ان يفقد صبره، فجعل يعبث بحمائل سيفه ويقول ، ان الجندي الصادق في الطاعة لا يسأل قائده مثل هذا ..
وكأنه ذكر شيئاً آخر فقال : لا . لا . اني لا اجيز لك ذلك لاني اخشى ان تقوم بتنفيذ ما ذكرته لعبد الله بن ذي السهمين وهـذا ما لا اريده الآن .. انك تحاول قتل عمك وأبي زبيد ، اليس كذلك ؟
ـ نعم وانما افعل ذلك خدمةً للمسلمين .
ـ صدقت،ولكن احذر من ان تفعل فقد اعددت للخونة،جزاءً يستحقونه،

بعد ان تنتهي حرب العراق ، ثم قال :

لقد اصبحت الآن موضع ثقة المسلمين فاحفظ ماأقوله لك وسترى ان اعداءك سيمحوهم السيف ، يوم يدين لنا هذا القطر ، قال : أوثقت يا مولاي بما قلته لعبد الله ؟

– اجل ، وزادني وثوقاً استئذان عمك بالتنحي عن قلب الجيش والانصراف الى الجناح الأيمن ، فكأنه يريد ، وهو بعيد عني ان يكون طليقاً من كل قيد !

فقام في ذهن المغرور ان المثنى صادق في روايته ، فقال ، ومتى طلب اليك ذلك ؟ – امس ، ولكني رفضت ، ومنعته من ان يعود الى طلبه .

قال ، لقد رأى مولاي الامير ان الرجل خائن ، فليأمرني بقتله وانا اعاهده على الكتمان !

قال ، خير لي ان استل هذا السيف ، واضرب به عنقه ، وهو في مضربه ، وبين فرسان عشيرته ، من ان اغدر به فيقال ، ان المثنى ابن حارثة لا شرف له. قلت لك اصبر ريثما تنتهي الحرب ، فاصبر ولا تتعجل في امرك .

– ولكن قد تطول ايام الحرب يا مولاي .

قال : لا بدّ لها من ان تنتهي ولو طال الزمان .. انصرف الان ولا تنسَ ما اوصيتك به ، وضاق صدره ، فنهض يريد الخروج كأنه يطرده من خيمته .

فلم يستطع الفتى الا ان يذهب متعثراً بفشله . وقبل ان يجاوز الباب ، ناداه قائلاً : يا ابن خالد ، متى يقوم عمك بتنفيذ مهمته ،

– لا أعلم يا مولاي فقد يفعل ذلك في واقعة البويب أو في مكان آخر تدفعنا اليه الحرب .

قال ، لقد فكرت الآن في ان اقبض عليه متلبساً بالجريمة ، لأشاور في أمره المؤمنين واحاسبه على مرأى ومسمع من طوائف العرب .

– وكيف تستطيع الوصول اليه بعد ان ينضم مع عشيرته الى جيش الفرس؟

فتظاهر بالتفكير ثم قال : سنرى ماذا يحدث في البويب ، ثم ننظر في الأمر بعد ذلك . أما أنت فابق مع عبد الله بن ذي السهمين كما أمرتك وعليّ الباقي .

وأومأ اليه بالذهاب ، ويده على صدره ، يحاول ان يسكت بها غضبه .
وكان كليب يقول : انك يا ابن حارثة أجبن من عبد الله ، وقد فاته ان القوم جميعهم كانوا حزباً عليه ..

٣٧

ما هذه الغمامة السوداء التي تسير ببطء ، في منتهى الأفق ؟
انها جيش مهران الفارسي الزاحف الى البويب ، ومعه أفياله وفرسان قومه المغاوير .
وكان المسلمون يرددون : الفرس الفرس ، وقد عمد كل عربي الى سلاحه ينظر في امره من جديد ، ويتهيأ لخوض الغمرات .
وقد مرّ بضع ساعات ، وتلك الغمامة تمشي كما تمشي السلحفاة وهي تدنو من الفرات شيئاً فشيئاً ، حتى انتهت عند الغروب ، الى الشاطىء .
وجعلت عندئذ تنتشر وتمتد ، فملأت السهل ، وحجبت الافق عن الجيش العربي ، النازل في الشاطىء الآخر ..
والخوف يدبّ في النفوس ، والقلوب تضطرب وتخفق على الضفتين ..
غير ان رجال المثنى كانوا أثبت جناناً ، ولولا ذلك التأثير الذي أحدثته واقعة الجسر في قلوب بعض المسلمين لما عرف اولئك الأبطال الأشداء ، ما هو الخوف !
وكانت نساء العرب ، يتفرجن على تلك الصفوف ، تتقدمها الأفيال ، والرماة يحملون القسي الغليظة ، والفرسان يلبسون وتلبس خيلهم لباس الحرب .
ولو لم تنشأ اولئك النساء ، في البادية الجافة ، بل لولا عيشهنّ بين السيوف والرماح ، لتمشت قشعريرة الذعر في نفوسهن .
وانقضى الليل ، وقواد الجيشين لم يغمض لهم جفن ، هذا يضع منهاج القتال ، مع اركان حربه ، وهـذا ينفخ روح الاستبسال في الصدور ، والآخر يوصي

عشيرته بان تؤثر الموت في الميدان ، على الرجوع الى الوراء .

وقد عوّل المثنى على البقاء في ذلك الموضع الذي اختاره ، وعلى إكراه الفرس ، على العبور اليه .

اجل ، لقد كان موت ابي عبيد ، وسليط بن قيس ، وغيرهما من قواد المسلمين ، درساً للمثنى ولمن يجيء بعده ، من رجال الميادين .

كانوا يخافون العبور ، بعد ذلك الفشل الذي ردّدت بلاد العرب ذكره ، وكانوا يحترمون من الناحية الاخرى ، وصية امير المؤمنين .

وهو الذي يقول لهم : لا تعبروا بحراً او نهراً .

ولم يترك المثنى ، في ذلك الليل ، عشيرةً الا زارها ، وقرأ الإيمان الثابت على وجوه رجالها ، ولمس بيديه وثوق الجيش بنفسه ، واستسلامه الى قائده الجبار .

وكان ابو زبيد وانس ، وابن الفهر ، والامراء الفتيان ، من العشائر الثلاث بينهم كليب بن خالد ، يمشون وراءه ، ليتبينوا مواضع الضعف في الصفوف ومواضع القوة ، ويشاركوا ذلك المسلم العظيم في الرأي .

إلا كليباً فلم تكن له غير غاية واحدة هي الاطلاع على كل شيء .. ! وقد قام النزاع في داخله بين فكرتين ، فكرة القضاء على من عرفت من الرجال وفكرة اخرى أوسع نطاقاً هي ان يحمل هنداً في الليلة المظلمة ، ويطير بها في الآفاق .

ولا تعوزه الجرأة والإقدام على تنفيذ فكرته الهائلة ، بل يعوزه التوفيق في اختيار الرجال الذين يرضون بان يشاركوه في لؤمه !

نشأت فكرته هذه ، بعد خروجه من خيمة المثنى ، فاستلذها ، ثم راح يعالجها بالدرس حتى نضجت في صدره المضطرم ، ولم يبقَ إلا ان يساعده الحظ في العثور على معاونيه ..

على انه كان يعلم ، أن أبناء العشائر ، التي تعرفها العرب ، لا ينزلون الى هذا الدرك السافل ، فخير له ان يلجأ الى أوغاد الناس الذين لا يجمعهم جامع العشائر ، ولا ينتمون الا الى كل سلاّب نهّاب .

وانك لترى من هذا الصنف ، طوائف كثيرة في كل جيش ، يحملون سلاحه ،

ويستظلون بظل لوائه ، بغية الارتزاق والكسب .

وطال النزاع بين الفكرتين ، حتى غلبت فكرة الخطف ، فكرة القتل ، فهي أسلم عاقبة ، وأبعد عن مواقف الخطر ، الذي يعقبه الموت .

ان عيون المثنى وعبدالله بن ذي السهمين ، ومن حولها من الرجال ، ستتجه اليه في الميدان ، وتحصي عليه كل وثبة وكل ضربة سيف ، وقد أمره الرجلان بألاّ يعرض « للمتآمرين » بسوء فليس من الرأي إذن ان يخالفها فيا أمراه ، ويحملها عدوين .

وكان المثنى ومن معه قد انتهوا في طوافهم ، الى بيوت خارج المعسكر لا تشبه الخيام ، بل هي رقاع ، من كل حجم وكل لون ، منتشرة في ذلك السهل الواسع الذي يغصّ بالعربان .

بلى .. انها خيام الرعاع اللاحقين بالجيش ، ليأكلوا خبزه ، ويضربوا بسيفه. والمال وحده هو العقيدة التي تملأ صدورهم .

فدعا المثنى بعضهم وسألهم عما يفكرون في امر الحرب ، فكانوا يقولون : ستراننا يا ابن حارثة في طليعة جيشك ، وسنصبغ سيوفنا بدماء الفرس أعداء الاسلام .. نحن رجال ابن الخطاب .. نحن رجال ابن حارثة قائد العراق ..

وكليب ينظر الى وجوه هؤلاء ، ويقرأ عليها سطور النذالة والنهم والشر ، وهذا ما يرغب فيه ! وقد لفت نظره ، فتىّ أحمر الوجه طويل القامة يحدّث المثنى ، وكأنه سيد القوم وقائدهم ، وأعظمهم شأناً ونفوذاً ، فعمد الى « مفاوضته » في تلك الليلة ، بعد ان ينصرف القوم ، ليجعله عوناً له على قضاء غايته .

وخطا بضع خطوات حتى قارب المثنى ، ليراه الفتى ، فيقوم في ذهنه انه من القواد أصحاب الأمر في ذلك الجيش ..

وكان المثنى ورجاله يبتسمون لهتاف القوم ، والمثنى يعدهم ببعض الأسلاب والغنائم ويوصيهم بالصبر في ساحة القتال، وقد ارتاح الى مظاهر جنوده وإيمانهم، ورجع الىمضربه لينظر مع قواده في كلامر يتعلق بالجيش قبلان يجرّد السيف.

* * *

غفل الأمراء والفتيان عن كليب في ذلك الليل ، وغفلت كبشة والزهراء كما غفل هؤلاء ، فخلا له الجو ، في « مفاوضات » السلام ..

كان انس ومن حوله ، وهم في مضرب المثنى ، يظنون ان كليباً في خيمته ، يفكر في أحلامـه ..! وكانت كبشة والزهراء وهند وام هند ، يحسبن انه مع رؤساء العشائر في خيمة القائد العام ، ولم يخطر لهن انه خارج المعسكر بين تلك « الرقاع » المختلفة الألوان ..

اجل كان كليب قد عرف من بعضهم ، اسم ذلك الفتى الذي كان يخاطب المثنى ، فالتفّ بعباءته ، وأرخى شعره الى وجهه ، وأقبل يسأل عن عامر بن مذعور ، فدلوه على الموضع الذي يقيم بـه ، وكان مع امٍّ له عجوز وهبت له ، لوجه الله الكريم ، أدب نفسها وأخلاقها الراقية ..

وكان الاثنان جالسين على الارض والوالدة تقص على ولدهـا ماضي أبيه الخالد .. وسيرة حياته الرائعة .. فلما أقبل كليب أومأ الى دليله بان ينصرف، ثم رفع شعره بيديه فبان وجهه ، فذكر عامر أنه رآه مع المثنى منذ ساعة، فنهض يستقبله بالتكريم والاحترام وهو يقول : أهلاً بالامير الذي لا أعرف اسمه ، انا عامر بن مذعور.. اجلس على فراشي فليس في الارض سواه.. فابتسم قائلاً : من هي هذه المرأة ؟

– هي امي ايها الأمير وكانت تنصح لي بان اسبق الجيش كله الى العلَم الفارسي وانتزعه من يد حامله كما انتزع الفارس عن ظهر فرسه !!

قال : انك فتى باسل وانا احب البسلاء الابطال .. متى قدمت العراق ؟

– اني من اهله وأقيم بباديته .

– إذن شهدت واقعة الجسر مع عبيد بن مسعود .

– لا ، فقد كنت في الشام واشتركت في قتال الروم .

– وماذا غنمت من ذلك القتال ؟

فقالت المرأة : والله لو احتفظ هذا الفتى بالغنائم لكان المال بين يديه اليوم ، اكثر من هذه الحصى التي تدوسها قدماك . – وكيف يضيع ماله ؟

– لا أعلم والله كيف يضيعه وأين يذهب به .. يبيع الثوب بدرهمين عند الصباح ، فينفد الدرهمان قبل ان تغرب الشمس !!

قال : لو كنت أنا في مكانه لاستبدلت دراهمي بدنانير كسرى وجعلتها عوناً لي يوم يحور الزمان ، ويتفرّق الخلان .. قالت : ما رأيت بعد موت أبيه ديناراً واحداً .

وكان عامر يضحك ، فقال له : تأتيك الثروة يا ابن المذعور فلا تحتفظ بها وتعيش في البادية الجرداء كما يعيش صعاليك العرب .

قال : لو كانت الغنائم التي وضعت عليها يدي ، تمحو هذا الفقر الذي تراه لجعلتها عوناً لي كما قلت ، ولكنها غنائم عافها جيش الشام فانتهت اليّ وقد بعتها كلها بسبعين درهماً ليس غير !! – وهذا هو المال الذي ذكرته امك ؟

– أجل هذا هو المال ، وهو في نظرها اكثر من الرمال ؟

فحاولت المرأة ان تجيب فأسكتها كليب قائلاً : والآن ماذا تصنع ؟ ..

– أصنع ما تراه .. فراشي هذه العباءة البالية ، وغطائي قطعة النسيج التي مزقتها الريح .. واما طعامي فتمرٌ تحرقه الشمس وانا ارى الناس حولي يشربون حليب النوق كل صباح ومساء ولا نوق لي ثم قال :

على اني ارجو ان تشتعل نار القتال غداً لأستطيع أن أعيش ويعيش معي هؤلاء الاشقياء .. وأومأ الى القوم النازلين بالقرب منه .

فقال : ومن يرأس هؤلاء ؟

– يرأسهم فتى هو أقواهم وأوفرهم مالاً !! – وأين هو ؟

– في هذا المكان .. انه عامر بن مذعور نفسه !

– انت ؟ – نعم انا .. انا الذي اقول لهذا الجيش الصغير مت فيموت !!

– ولكنك لا تملك شيئاً . – بل املك تمراً وهم لا يذوقونه !!

– واذا جاع جيشك ؟

– ابعث به الى مدن العرب والفرس ينهب منها ما تصل اليه الايدي .

قال : يظهر ان الاقامة لم تطب لك بالشام .

– ان معظم مدن الشام يفتح صلحاً وقد قلّت في تلك المدن غنائم الجيش .
قال : لنفترض ان قائد الجيش الفارسي دعاك اليه ، واعطاك من المـــال ما يكفيك مئة عام على ان تحارب العرب مع رجاله ، فماذا تقول ؟
– أعيد اليه ماله وأقول له : لا احـــارب أبناء قومي ولو وهبت لي عرش الفرس . فخفض صوته قائلاً : واذا أعطاك المال رجل من قومك .
– على أن احارب مَن ؟ – على ان تساعده في قضاء امر لا حرب فيه .
قال : افعل ولكن بعد ان أرى هذا الرجل الكريم الجواد وأعرف غايته .
قال : أيسمعنا احد الآن ؟
فأرسل نظرة الى الجهات الأربع ثم قال : لا يجسر احد على الدنو من هـــذا المكان قل ما تريد قوله . – انا هو الرجل !
فمدّت المرأة عنقها وهي تنصت الى كل كلمة .
اما عامر فقال : وما هو غرضك ؟
– هو ان تعدّ لي هودجاً على ناقة ادفعها اليك .
– إذن فالقضية قضية نساء .. وغرام ! – قد يكون ذلك .
– ثم ماذا ؟ – ثم تستسلم اليّ استسلاماً كاملاً لا قيد فيه ولا شرط !
قال : اذكر لي شيئاً من هذا الاستسلام ان شئت ..
– ان لا تتردّد في الطاعة .
فقهقه ضاحكاً وجعل يقول : أجـل فستشتري ارادتي بمالك وامسي عبداً لك .. ولكن قل لي ، افي قضيتك قتل ؟
– لا ، فالهوادج لا يعدّونها لجثث الأموات ..
قال : لقد عرفت الآن غايتك كأني في ذهنك ! – ما هي ؟
– هي ان تضع في هودجك فتاة من الفتيات اللواتي يرافقن الجيش ، وتسوق الناقة الى ما وراء الصحراء . قال : أصبت ، فأنا سأسوقها على ان تقودها انت !
– وأترك الجيش ؟
– اجل ، وتبقى معي حتى يظفر المسلمون او يخونهم الحظ .

فصاحت المرأة قائلة : وانا من يعولني وهو بعيد .

قال : سأعطيك ناقة تعالجين بها أمرك حتى نعود .

فهمّت بالبكاء ، فقال : وهل تستطيعين السفر الى ضواحي دجلة ؟

ـ بل اسافر مرة ثانية الى الشام ولا ابالي .

فقال عامر : بل تبقين .. لاني اريد ذلك ..

فخافت المسكينة ان تلجّ في الطلب ،فيغضب ،ولا يستطيع الا الله القادر على كل شيء ، ان ينقذها من غضبه ، ثم قال لكليب : لقد رضيت بما ذكرت فأنا عبد لك منذ الآن .. ولكن بقي المال . ! ـ قال : اطلب منه ما تشاء !

قال : والحساب بالدنانير لا بالدراهم .

فضحك قائلاً : أي والله بالدنانير . قال : تعطيني عشرة !!

وكان كليب يظن انه سيطلب مئة ، فقال : عشرة ورجالك ؟

ـ وهل أنت بحاجة الى الرجال ؟

ـ اجل احتاج الى اثني عشر رجلاً يسوقون النوق .

ـ إذن تعطيني اثني عشر ديناراً لهؤلاء ودينارين لهذه المرأة !!! وأشار الى امه . ـ وهل هي باقية ؟

ـ نعم ستفعل ما قلته لها دون أن يكون لها في ذلك رأي !!

فقال في نفسه : لقد خلق هذا الفتى الذي لا يبالي بامه وقومه ، ليكون رفيقاً لي ، متى تقبض المال ؟ فمدّ يده قائلاً : هات الآن .

قال : لا احمل منه الآن شيئاً . ـ ومتى إذن ؟

ـ قبل ان نرحل من هذه الأرض .

قال : كنت أوثر ان أرى دنانيرك الساعة لتنام امي ملء جفنيها ، في هذا الليل !!

قال : سأبعث اليها الليلة بناقتين ، واحدة لها والاخرى للهودج ، على ان تعدّه قبل الصباح ، وتبقيه في هذا المكان .

قال : انك من أجواد العرب ايها الأمير ، فما اسمك ؟

ـ ستعرف ذلك يوم تقود الناقة وعليها الفتاة .   ـ واسم الفتاة ؟

ـ انها تدعى هنداً ، وهذا يكفيك .. والآن فاتبعني لاحضار الناقتين ، ولا تنسَ ان تحارب غداً الى جانبي ، في الجناح الأيسر ، وقال للمرأة : واما انت فاحفظي السر ولا تبوحي به لأحد من الناس .

وسدل ذوائبه على وجهه ، ومشى وعامر وراءه حتى اتيا موضع النوق ، فاختار له كليب ناقتين وتركه وانصرف الى مضرب المثنى ليصغي الى اراء القوم.

فسأل عامر أحد العبيد قائلاً له: لقد نسيت اسم سيدك المحسن فهل تذكره ؟

– افعل اذا ذكرت لي حكاية الناقتين .

قال : عرف سيدك اني من فقراء العرب فجاد عليّ بهما !! قل ما اسمه ؟

– كليب بن خالد .   – من بني ثقيف ؟..

– بل من النمر النازلين في جوار عنزة .

فحوّل وجهه عنه وهو يردد في سره اسم كليب حتى انتهى الى خيمته فقال لأمه : احفظي اسم الرجل فهو كليب بن خالد من بني النمر .

– وأي نفع لي باسمه ، وهو راحل وانا باقية ؟

فجعل يهزّ رأسه ويقول : لقد قضيت هذا العمر كله وانت لا تعلمين من أين يجيء المال .. ان اسمه سيذهب بهذا الفقر الذي نعانيه ، وسيكون لك من ورائه وانا غائب اكثر مما سيكون لي ..

فبرقت عيناها لذكر المال وأجابته قائلة: ألا تذكر يا بني كيف يكون هذا ؟

قال : لقد رأيت الآن ان كليباً سيختطف فتاة تدعى هنداً وينتقل بها من قطر الى آخر ، دون ان يعلم ذووها أين هي .   – نعم .

– ولكن هل تعلمين ماذا يحدث بعد ذلك ؟   – لا .

– تعمد عشيرتها الىالبحث عنها في هذه الديار، فلا تبصر لها وجهاً ، فترسل رسلها الى الأقاليم البعيدة ، فيعودون وقد فشلوا في أمرهم وضيعوا الرجاء ، فلا يبقى عندئذ الا ان تذهب الى القوم ، عجوز تدعى ام عامر وتقول لهم :

ان الفتى الذي اختطف الفتاة ، هو كليب بن خالد ، وقد سمعته يقول انه

سيذهب بها ، الى الناحية الاخرى التي تجاور دجلة .   – وأين هو المال ؟
– في هذه الكلمة التي تقولين .
قالت : لقد فهمت الآن فأنا سأطلب ما أشاء قبل ان أقولها .
– بل تعدّين الدنانير بيدك قبل ان تفعلي .
قالت : بارك الله فيك يا بني ، يعطيني كليب دينارين وهذه الناقة ، ثم آخذ من القوم ما أشاء ، بعد ذلك .. فانا إذن أستطيع ان أعيش دون ان أحتاج الى احد .. اذهب يا بني ، بارك الله فيك ، وقد أنساها المال ابنها ، في تلك الساعة ، فأغمضت عينيها تفكر في ناقتها ودنانيرها ثم نامت على أمل ان تقود ناقتها ، في صباح اليوم الثاني الى المرعى الخصيب ، التي لا ترعى فيه نوق الجيش .
وانصرف عامر الى أكواخ رفاقه ليختار الفتيان الأشداء الذين لايخافون الموت.

٣٨

أصبح المثنى ، فاذا رسول مهران بالباب ؛ فأذن له في الدخول ، وأحضر الترجمان ، ثم قال : ما وراءك ايها الفارسي ؟
وكانت رسالة مهران ، كلمة يقولها ، ذلك الرسول ، فقال : أسألك ايها القائد سؤالاً باسم مولاي ، ثم أعود .
قال : ما هو سؤالك ؟   قال : اما ان تعبروا الينا ، واما ان نعبر اليكم !
– وهذه هي الرسالة ؟   – أجل .
فتظاهر بأنه يستشير أركان حربه ، ثم قال : اعبروا الينا فمنا واحدة ، ومنكم واحدة .   قال : نفعل ونحن الظافرون ..
فقال : لقد علمتكم واقعة الجسر ان تقولوا مثل هذا ، كم هو عددكم ؟
وكان الرجل من دهاة الفرس ، فقال : لقد جربت مرتين ان أعد الجيش عند خروجه من المدائن فلم أستطع ..

فضحك قائلاً : اما نحن فكل رجل منا يعد عشيرته ثم ينتهي عددهـا الى القائد فيعرف عدد الجيش الذي يحارب تحت لوائه وهو في خيمته ..

– إذن فانت تعلم عدد رجالك ؟

فبسط كفه قائلاً : أعرفه كما أعرف عدد هذه الأصابع .. عندنا خمسون الفاً فخبّر مولاك بما تسمع والله يظفر قلتنا بكثرتكم ..

قال : ما نسينا الجسر ايها الامير .

– والمسلمون لم ينسوا النمارق وقد أسروا فيها جابان ، وهزموا الجـالينوس ونحمد الله ايها الفارسي على ان فضل النصر يعود الى سيوف رجالنا لا الى أرجل أفيالنا ... قال : حسب الجيش ان يظفر بعدوه .

– وحسب المسلمين ان اقدامهم ثبتت بهذا القطر فاذا انتقلوا منه فانمـا هم ينتقلون الى الامام لا الى الوراء .. وأراد ان يعبث به من ناحية اخرى فقال : من هو ملككم اليوم ؟ أيسودكم رجل ام فتاة ؟

قال : فتاة ، ولكنها من نسل الملوك ..

– على ان الامر ليس في يدها فهي خيال على عرش .. – وفي يد من ؟

– في أيدي رجلين يتنازعان تاج كسرى .. ان الدولة التي يكثر فيها طلاب التاج ليست بالدولة التي تعيش .

– ومع ذلك فلنا عرش نستظلُّ به ، ولنا القصور ترفع رؤوسها الى السماء ، وعندنا الحصون نلجأ اليها اذا فاجأنا عدو ..

– أما نحن فما نستظل الا بعرش الله مذلّ الملوك وقاهر الأكاسرة ، وامـا قصورنا فهذه الخيام التي ترى تحملها نوقنا الى حيث يطيب لنا الفتح ، وحصوننا هذه السيوف التي تلمع بالأيدي والتي تحمينا من الأعداء .. نحن نلبس اللبـاس الخشن وانتم تلبسون القلانس والطيالسة الخضر ، ولكن عندما تتلاحم السيوف تسقط هذه القلانس عن الرؤوس ، ويمسي صاحب الطيلسان موطئاً للنعـال ... اعبروا اعبروا ، فكل قتيل من قتلى المسلمين يوم الجسر بعشرة من الفرس في البويب.

فرأى الرجل مظاهر الغضب على وجه المثنى ، فآثر السكوت على الكلام ،

ومضى القائد يقول : صف لنا ايضاً ، عظمة الفرس وعزّها ايها الرسول .

قال : أخشى انِ يغضب القائد اذا فعلت وليس وراء غضبهَ غير الموت ..

قال : ويلك أتخـاف وانت رسولٌ وفي منزلي ؟ والله لو جعلت بلادك سماء وقومك آلهة لما سقطت شعرة من رأسك وانت بيننا ، تكلم .. قل ما تشاء .. ولكن خير لك ان تصف الأفيال من ان تصف الرجال ... أشهدت انت واقعة الجسر مع أبناء قومك ؟

– أجل شهدتها وحملت الى المدائن أسلاب عشرة من المسلمين ..

– وقتلت انت هؤلاء العشرة ام جمعت أسلابهم في ظلام الليل بعد ان عبرنا الفرات ؟ – بل قتلتهم بيدي هذه .

قال : لا والله لا تصلح هذه اليد لحمل السيف وسنراك غداً في الميدان فأثبت اذا قدرت . ثم قال : ماذا جرى للفيل الأبيض ؟

– اي الفيل الذي قتل قوادكم؟ انه في مقدمتنا ووراءه في كل صف، فيل مثله!

قال : تيهوا عزاً ودلالاً بأفيالكم ايها الفرس ؟

– كما تتيهون انتم عزاً ودلالاً بأفراسكم ..

قال : نحن نقتحم على الخيل الصفوف ..

– ونحن نسقي الناس بقوة أفيالنا ، كأسِ الحتوف ..

قال : الخيل في نواصيها الخير .

– والفيلة في أرجلها الويل ..

قال : موعدنا غداً .. فاما لنا واما لكم ..

قال : لا تنس ايها الأمير ، ان تتقلد سيفين ، وتلبس درعين ، وتحمل رمحين!

– ولِمَ كل ذلك ؟

– لانه قد يخطر لك ، عندما يصطف الجيشان ، ان تهـاجم الفيل ، كما فعل الامراء الذين تقدموك .

وكانت غـــايته ان يهيّج كبرياءه ، ويدفعه الى قتال الفيل الأبيض فتنتهي حياته كما انتهت حياة ابو عبيد ، ولكن المثنى أدرك هذه الغاية فقال : ما كنت

لأرسل رمحي وسيفي ، الا الى صدور الرجـال ، ورقاب الأبطال ، ونهض وهو يقول : اعبروا اعبروا ففي البويب يعرف الشجاع ويعرف الجبان ..

فعرف الفارسي انه يأمره بالانصراف ، فقام وقال : سنعبر اليوم .

ـ بل الآن فلم يبقَ للعرب متسع من الصبر، وليعلم مولاك ان جيشنا لا يشهر سيفاً حتى يتمّ عبور جيشه .

فخرج وكان يقول للترجمان بالفارسية :

لم أرَ قط رجلاً أثبت جناناً من هذا ! وكان المثنى يقول لمن حوله :

ما رأيت فارسياً أجرأ وأفصح لساناً من هذا !

وصدرت الأوامر للجيش ، بان يقف موقف الحذر على ان لا يباشر القتال ، الا بعد انتقال جيش مهران من الشاطىء الآخر ..

وانضم كل عربي الى صفه ، والمثنى مع قواده ورؤساء العشائر ، يستعرضون تلك الصفوف .

وكان كليب بن خالد ، في بني خثعم ، وبالقرب منه عامر بن مذعور .

٣٩

بدأ جيش الفرس بالعبور في صباح ذلك اليوم ، ولم ينتهِ منه ، الا في صباح اليوم الثاني ، وكان المثنى على فرسه الشموس ، يطوف في جيشه ، ويقف عند الرايات رايةً رايةً يحضّ اصحابها ويأمرهم بأمره ، ويزيّن لهم الموت ، في ساحة القتال .

ثم قام فيهم خطيباً وهو راكبٌ قال : « انتم اليوم في رمضان وانكم صوّام والصوم مضعفة ، واني أرى من الرأي أن تفطروا فتقووا بالطعام على قتـال عدوكم ، ثم حوّل وجهه الى ناحية اخرى فقال :

اني لأرجو ان لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم،والله ما يسرني لنفسي شيء الا

وهو يسرني لعامتكم .

وبينا هو يقول ذلك ، أبصر رجلاً يهمّ بالخروج من الصف ، فقال لقواده : ما بال هذا الرجل ؟

قالوا : هو ممن فرّ من الزحف يوم الجسر وهو يريد اليوم ان يستقتل !!

فهمز فرسه وقرعه بالرمح وقال له : لا أبا لك . الزم موقفك ، فاذا أتاك عدوك فاغنه عن صاحبك ولا تستقتل .

وكان الفرس قد نزلوا على شاطىء البويب في مكان يقال له موضع الرزق وجعل مهران يعبيّ جيشه ، والعرب لا تفاجئه ولا تنقل اليه قدماً .

وكان موقف المسلمين ، على ذلك الشاطىء ، في الموضع الذي يلي موضع الكوفة اليوم ، وقد افطروا كما امرهم المثنى، ووقفوا والسيوف في الأيدي ، والشرر في العيون .

وعندما طلعت الشمس ، أقبل الفرس في صفوف ثلاثة يتقدمها المشاة ، وفي كل صف فيل عليه عدّته واصحابه ، أقبلوا ولهم زجلٌ يردد الشاطىء صداه .

فقال ابن حارثة للمسلمين: ان الذي تسمعون فشل ان شاء الله فالزموا الصمت وائتمروا همساً ، وقد أضاف الى الجناحين في ذلك الصباح ، فارسين من فرسان المسلمين ، هما بشير بن ابي رهم وأخوه بسر ، وجعل على الخيل أخاه المعنى بن حارثة وعلى الطلائع رجلاً يقال له النسير ، وكان على جناحي مهران مرزبان الحيرة ، وفارسي آخر عظيم الأثر في قومه ، هو مردانشاه .

فلما استعد الجيشان قال المثنى :

اني مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احملوا مع الرابعة .

غير ان الفرس عاجلوا المسلمين بعد التكبيرة الاولى وخالطوهم ، فرأى المثنى خللاً في بعض صفوفه .

فقال لقرط بن جماح سيد بني عبد القيس : من القوم ؟ قال : بنو عجل .

قال : اذهب وقل لهم ان الامير يقرأ عليكم السلام ويقول : اعتدلوا ولا تفضحوا المسلمين اليوم ، وجعل يمد لحيته لما يرى منهم .

فلما اعتدلوا واعتنوا بأمرهم اعتناء لم يجيء به احد من المسلمين في ذلك اليوم رأوه فاذا هو يضحك فرحاً وقد ارتاحت نفسه .

وكانت السيوف قد تلاحمت ، والأفيـــال قد هاجت ، وارتفعت الاصوات وانتمت العرب، ومرقت السهام بين الصفوف ، ومن الأجساد ، حتى خيل اليك ان ذينك الجيشين الكبيرين ، يغوصان مع الفيلة والخيل ، في بحر من الدماء .

والمثنى الجبـــار ، ينظر الى المعركة بعينين تشبهان عيني النسر ، وفرسه الشموس يثب من لجة الى لجة لا يهدأ ولا يهدأ راكبه ، حتى اشتد القتـال كثيراً وطال ، وصفق الموت بجناحيه فوق جوانب الجيش لا يستطيع جانب منها ان يغـــادر صفه او يردّ سيفه ! وقلب الجيش الفارسي الذي يقوده مهران ، ثابت لكثرته كالجبل الراسخ ، يحميه الجناحـان ، ويحميها وقد انتشرت الجثث حوله تطأها حوافر الخيل .

فرأى المثنى ، انـه اذا غربت الشمس ولم يظفر بعدوه فالذعر سيملأ قلوب رجاله ، وسيضيعون الأمل .

وكانت عيناه في تلك الساعة تنتقل من قلب العدو الى جناحيه ، وهو يضع بتينك العينين الحديديتين ، منهاجاً جديداً ، لهجوم جديد ، ولكنه خطر، يفني به صفوف الفرس او تفنى صفوف العرب .

ولم يتردد في التنفيذ ، بل حوّل وجهه الى أركان حربه قائـــلاً لهم : عليّ بانس بن هلال وابن الفهر التغلبي .

فوثبت الخيل يدعو أصحابها الأميرين حتى عثروا عليهما والدمـــاء تصبغ فرسيهما ، فرفع صوته قائلاً : يا انس ، انك امرؤٌ عربي وان لم تكن على ديننـا فاذا رأيتني قــد حملت على مهران في قلب جيشه فاحمل معي فاني مقدم على أمر ارجو ان أبلغ به الغاية .. واحمل انت ايضاً يا عبدالله . فقـال انس وعبدالله : لبيك يا ابن حارثة .

وأقبل المنذر وزبيد وزياد يقولون : الى القلب فسيقتل مهران ان شاء الله . فهامسهم قائلاً : ولكن احذروا كليباً فانا لا أراه ولا أعلم في أي صف هو.

قالوا : رأيناه في بني خثعم وهو يقاتل قتال الابطال ..

– بل يقاتل قتال الغدار ..

وكان قوم من بني تغلب قد التفوا حول عبدالله فخاطبهم قائلاً : انظروا يا بني قومي الى قلب الجيش . قالوا : نظرنا

قال : ألا ترون بين ذلك النطاق من الحراس رجلاً على فرس له أحمر ضارب الى الصفرة ، وعليه التجافيف التي ترد عنه السهام والرماح ؟

فحدقت العيون الى الموضع الذي ذكره ثم قال أحدهم : رأيته ، وهو ينظر الينا وبين عيني فرسه هلال ، وعلى ذنبه أهلّة من نحاس أصفر .

قال : والله انه هو . قال : من ؟

وكان المتكلم غلاماً تبسم له الحياة ، عندما يبتسم لسواه الموت ، فقال عبد الله : انه مهران صاحب هذا الجيش ..

– وتريد رأسه ؟ – أي والله اريده من يد تغلبي !!

قال : قتلني الله ان لم احمله على رأس هذا السنان .

فجرد المثنى سيفه ، وهو لم يجرده يومه الا في تلك الساعة .

ثم قال : الله اكبر اليوم يوم مفاخر العرب .. انا المثنى بن حارثة ..

وحمل ، وحمل القوم معه على ذلك النطاق الضيق الخطر الذي يلمع الموت فيه ، على الأسنة والشفار فانفرجت لهم الحلقات .. وتضعضع مهران وهو بين الالوف من اركان الفرس .. وحاول ان ينقذ موقفه ، بثبات القلب الذي يضم نخبة الرجال ، في وجه اولئك الابطال المغاوير ..

ولكن الخيل خيل العرب كانت تدفع بصدورها الفرس وسيوف العرب تقطع الأيدي وتبري الاعناق ، حتى أزال المثنى ومن معه قلب مهران ودخلوا في الجناح الايمن .

وكان مسعود بن حارثة يقول لقومه وهو يقاتل : « ان رأيتموني أصبت فلا تدعوا ما انتم فيه فان الجيش ينكشف ثم ينصرف .. الزموا مصافكم واغنوا غناء من يليكم » .

وعبد الله بن الفهر يقول : رأس مهران يا بني تغلب ... انتم سادة الناس وابطال الحرب ..

وقد أصبحت حال القواد والجنود من الفريقين ، فوضى ونطق القوم بلغاتهم حتى خيل اليك انها امتزجت .. هـذا يدعو قائده ، وهذا ينتسب الى قومه ، والآخر يهتف هتاف الظفر عندما يصيح جاره صياح الألم والذعر .

والمثنى والفرسان الذين ذكرت، ينقضون كالعقبان على عدوهم وهم يمعنون في التهشيم والتقتيل حتى افنوا حراس مهران وجانباً كبيراً من قلب الجيش .

والتقى قرط بن جمّاح وهو يصرع الرجال، رجلاً فارسياًيلبس لباس الاشراف وعليه ملامح العظمة والسلطان وكان بينهما خمسون ذراعاً .

فقام في ذهنه انه مهران، فجعل يخاطب فرسه قائلاً : اركضي ويلك اركضي فهذا سيد الفرس ووالله لو اجتمع الجيش كله حوله لما انقذه من يدي ! ودفع الفرس فشقت كأنها تلعب في سهل فسيح الجوانب والناس يظنون انها ستقذف به الى الأرض .

وكان الفارسي ، صاحب خيل مهران ، وهو يدعى شهربراز .

فلما داناه تمشت قشعريرة الخوف في دمه وأهوى بالسيف يريد ان يقطع اليد الممتدة اليه ، ولكن يده قطعت في طرفة عين ، وسقطت ضربة اخرى على رأسه ففصلته عن الجسد !.. وارتفع في الوقت نفسه صوت غلام يقول : انا الغلام التغلبي .. انا قتلت مهران ..!

فالتفت المسلمون والفرس، فرأوا الغلام مستوياً على فرسه ، ورأس مهران في يسراه وهو يشخب دماً ..

فصاح عبد الله بن الفهر وقد أشرق جبينه : يا لتغلب .

وتغلغلت الأصوات بين الصفوف كلها قائلة : قتل مهران قائد الفرس .

فاصطدم عندئذ الجناحان بالجناحين كما يصطدم الحديد بالحديد ، وحجب الغبار الجنود عن العيون ، وهتفت النساء للجيش وهنّ يصحنَ : الماء . الماء .

وهند ، وكبشة ، والزهراء ، في الجانب الأيمن من الميدان وهنّ لا يعرفن ،

في ذلك العجاج ، الفارسي من العربي !!

ورجال المثنى يطوفون ويقولون : ايها المسلمون ، ايهـا العرب ، يقول لـكم المثنى : عاداتكم في أمثالهم .. انصروا الله ينصركم .. حتى ضاقت السبل بوجوه الاعجام ، فجعلوا يتراجعون ببطء ، ثم خسروا ثقتهم ونظامهم فتعجلوا في الفرار يسقط بعضهم فوق البعض الآخر ويفتح لهم الموت ذراعيه !

واضمحل ذلك العجاج ، وصفا الفضاء عند غروب الشمس ، فرأى المسلمون ومن معهم ان القوم يتسابقون الى الجسر ، فسبقوهم اليه ، والتاريخ يعيد نفسه ، وأحاطوهم بنطاق من الأسنّة سدّ عليهم منـافذ البر ومنافذ الفرات . ولكن ، عندما كان المثنى ومن معه ، يصرعون الفرس بصدور الخيـل ، ثم تثب خيلهم فوق جثثهم ، كان هنالك ، في النـاحية الاخرى من الساحة ، طائفة من القواد والامراء يصارعون الموت .

لقد سقطوا جرحى ، قبل فرار الفرس ، بينهم مسعود بن حارثة وسواه من أعلام الجيش ، والمثنى لا يعلم .

وقد رأى مسعود ، تضعضع قومه ، عندما سقط عن ظهر فرسه . فقال لهم : « يا معشر بكر بن وائل ، ارفعوا رايتكم رفعكم الله لا يهولنكم مصرعي » .

فبينا المثنى عند الجسر ، وقد تفرق الاعجـام مصعّدين ومصوّبين ، أقبل فارس من قومه يقول له : ان الجرحى من قوادك يريدون ان يروك .

قال : ويلك من هم ؟

فجعل يعدهم واحداً واحداً حتى ذكر مسعوداً فقال : وصرع ابن حارثة ؟

– نعم يا مولاي .

– وهل بقي احد لم تذكره ؟ – بقي انس بن هلال النمري !

فوضع يده على جبينه وتمتم قائلاً : ويلي ، لقد قتله ابن اخيه .. بل قتلته انا فانا قلت اني سأحميه ..

وأومأ الى الفـارس بان يتقدمه وجعل يركض فرسه وراءه حتى انتهى الى كثيب من الرمل وضع فوقه مسعود بن حـارثة والجرحى الآخرون وقد نزفت دماؤهم .

فترجل وجعل ينظر اليهم والدموع في عينيه، ثم جثا على ركبتيه بالقرب من ابن حارثة وقال : مسعود .. اخي مسعود ، أتسمعني ؟

ففتح الجريح عينيه وأجـابه قائلاً : اجل أسمعك فاحملني الى خيمتي اذا كان قد تمّ لنا النصر والا فخير لي ان اضطجع على هذا الكثيب الى الابد !

قال : لقد قتل مهران وفرّ الفرس ! فتنهد وقال : الحمد لله احملوني .

قال : اجعلوا له ولاخوانه المحفـــات ربثما أرى ذلك الفارس النمري الذي ذهب ضحية مروءته .

فقال الذين حوله : انس بن هلال ؟ — أجل فأين هو ؟

— هو هنا وعنده ولده وابو زبيد الطائي ، ودلـّوه على موضعه .

قال : وهل فيه رمق ؟ — انه دنفٌ يا مولانا ولكنه يتكلم ..

فمشى اليه ، وكان المنذر وابو زبيد ، وزبيد وزياد ، وعبدالله بن الفهر حوله وهم يخاطبونه ويعالجون جراحه .. فقال لهم : أين هي هذه الجراح ؟

فقال المنذر : في كل عضو من اعضائه عشرة ..

قال : بارك الله فيك وفيقوم أنت سيدهم يا ابن هلال..أقاتلت اليوم وحدك؟

فقال انس وعيناه مغمضتان : صوت المثنى قائد المسلمين ؟

قال : أنا هو المثنى فافتح عينيك لأرى فيهما بريق الحياة .

قال: اما الحياة فلا رجاء لي بها بعد الآن.. حسبي انأموت والعرب ظافرة!

ثم قال : اين المنذر .. ولدي المنذر ..

— هنا يا أبي فأنت بين ذراعي .. — والزهراء ؟

— مع نساء المسلمين تحمل المـــاء للجيش وتعنى بأمر الجرحى الذين صرعهم السيف . — اريد ان اراها قبل ان أموت ..

وكان بين القوم فتىً طويل القامةأحمر الوجه برّاق العينين.. فلما سمع الجريح يسأل عن ابنته قال للمنذر : سأدعوها اليه الآن .

فقال زبيد : انها مع النساء في الموضع الذي تكثر فيه الجرحى .. ولكن لا تقل لها ان اباها جريح .

وكان الفتى عامر بن مذعور اخا كليب بالروح ..

فقفز وهو لا يلتفت الى الوراء ، وكان يقول في نفسه اليوم يوم الدنانير ..حتى وصل الى المكان الذي سقطت ازاهير الجيش فيه ، والفتيات الثلاث في ذلك المكان مع طائفة كبيرة من النساء ، يقمن بالواجب الذي تقوم بـه المرأة العربية في الحرب ! وكان يعرفهن كأنه نشأ بينهنّ .

أجل ، فقد دلّه كليب عليهن في ذلك الصباح ، ولفت نظره بنوع خاص الى هند اكثر من عشر مرات ، فدنا من الزهراء وجعل يهمّ بان يخاطبها ثم يتظـاهر بالتردد في أمره وهي تنظر اليه وقلبها يحدثها بأنه رسول شر ، ثم قالت له : ماذا تريد ايها الفتى ؟ — عندي جريح أتيت أسألك العناية به .

ـ سأفعل ريثما ننتهي من أمر هؤلاء .

ـ ولكنه يريد ان يراك قبل أن يغمض الموت عينيه ..

فكادت تسقط لهول الصدمة .. ثم صاحت قائلة : اخي المنذر ؟

وأقبلت هند وكبشة في تلك اللحظة ، وهما مضطربتان ، فقال : لا ..

ـ ومن هو ؟ زبيد الطائي ؟ ـ لا ..

ـ اذن هو ابي انس بن هلال ، فحنى رأسه قائلاً : اجل هو ابوك .

فقالت : ويلاه لقد مات ابي .

ـ بل هو حي وقد امرني المثنى بان ادعوك اليه .

فقام في ذهن كبشة ان اخاها هو القاتل ، فتمتمت تقول : لقد خسرت النمر عزها فيا خيبة الرجاء ..

وحملت قربة الماء وقالت لعامر : في اي مكان هو ؟

ـ بين كثبان الرمل التي تلي نهر بني سليم .

فمشت والزهراء المسكينة تستند اليها في مشيها ويدها في يد هند التي أصيبت بالذهول ، فاستوقفهنّ عامر وقال : بقيت لي كلمة أقولها لهند بنت ابي زبيد .. من هي هند ؟

وكان تجاهله حيلة منه ، وفيها شيء من الدهاء كما رأيت .

فقالت : أنا هي ، فما هي كلمتك ؟

ـ هي ان وراء المعسكر عجوزاً تشفي الجراح ..   ـ احضرها الساعة .
ـ لقد حاولت ان أفعل فلم تسمع لي ، لانها امي وقد ضربتها هـذا الصباح ففضبت ولم تشأ الآن ان تنظر اليّ .

قالت : في الجيش رجال يداوون الجرح .
ـ ولكنهم لا يستطيعون ان يعالجوا جراح الأمير فجسمه كله يكاد يكون جرحاً واحداً .. هذا ما أمرني المنذر بان أقوله لك فافعلي ما تشائين ..!
وانثنى يريد الذهاب ..
فنادته قائلة : المنذر قال لك ذلك ؟   ـ نعم ، وفي يدك الآن حياة ابيه .
قالت أتعرف كليباً ابن اخي انس ؟   ـ كان رفيقاً لي في القتال .
ـ وهل رأيته الآن ؟   ـ انه بالقرب من عمه مع القوم .
فقالت لكبشة : استعيني بالنساء على حمل الزهراء وأنا ذاهبة .
فقالت وهي تغصُّ بالبكاء : لا تذهبي يا هند مع فتى يضرب امه ..!!
قالت : ليضرب من يشاء فأبو المنذر في خطر وانا لا ابالي بشيء.ومشت وراء عامر ، من ناحية الشمال ، أما الزهراء وكبشة فسارتا من ناحية الجنوب ، الى تلك الكثبان التي أشار اليها ابن مذعور .
واحتجبت الشمس عندئذ وراء الافق ، وبدأ الليل يرخي سدوله على ذلك الميدان الرهيب المصبوغ بالدماء ، والمفروش بالجثث والاشلاء ..

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١ ٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع